محمد عزة دروزة

تدوين القُرآن المجيد



تنزيله وأَسلوبه وأثره وجمعه وتدوينه وترتيبه
وقراآته ورسمه ومحكمه ومتشابهه وقصصه
وغيبياته وتعليقات على مناهج مفسرية
والطريقة المثلى لفهمه وتفسيره



دار الشعاع

http://kotob.has.it

الكتاب : تدوين القرآن المجيد

الكاتب : محمد عزة دروزة

الطبعة الأولي ٢٠٠٤

جميع الحقوق محفوظة

الناشر : دار الشعاع للنشر

المدير المسئول / عمرو بيومي

٢٥ شارع الاشبولي - شارع شبرا

روض الفرج - ٣٢٩٩٥١١

غلاف : وليد سيد

http://kotob.has.it

الفهرس

http://kotob.has.it

http://kotob.has.it

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

كتبت هذا الكتاب في مدينة بورسه اثناء هجرتي في الحرب الي تركيا وبعد ان اتم الله عليّ نعمته فانتهيت من كتابة تفسير القرآن بكامله فيها و قد وجدت في مكتبات المدينة العديدة ما استعنت به من مراجع قيمة في التفسير و الحديث و الكلام والقراءات و علوم القرآن. وقد جاءالكتاب ككتاب مستقل لما احتواه من بحوث عديدة كما جاء كمقدمة للتفسير لما احتواه من شرح المنهج الذي سرت عليه فيه وببيان الطريقة المثلي لفهم القرآن و خدمته و تفسيره.

ولقد عدت فقرأت كتباً عديدة اخرى لاستيفاء الكلام في مواضيع الكتاب وتوثيقه، و ادخلت تنقيحات كثيرة علي مسودة بورسه فجاء الكتاب علي اسلوب ونهج جديدين بحثت في نطاقهما مختلف مسائل القرآن ووصلت بذلك الى نتائج و حلول هامة وجديدة ارجوا ان يكون الله قد هداني فيها الي الحق و الصواب، وان اكون بذلك قد خدمت كتاب الله المجيد فيما اخذت علي نفسي من خدمتة له منذ اربع عشرة سنة استغرقت اكثر اوقاتي. كما ارجوه ان يتم نعمته و توفيقه بتنقيح و طبع اجزاء التفسير وهو ولي التوفيق و منه نطلب العون و السداد .

المؤلف

http://kotob.has.it

http://kotob.has.it

الفصل الأول

القرآن وأسلوبه ووجه وأثره

القرآن والمسلمون :

ليس غريباً أن يكون القرآن شغل الناس في كل زمان ومكان طيلة القرون الثلاثة عشر السالفة، وطيلة ما أن يكون شاء أن يكون من أمد هذه الدنيا، وأن يتنافس فى الكتابة فيه الكتاب والعلماء والمصلحون والباحثون من مسلمين وغيرهم، وأن يصدر فيه كل يوم كتاب.

فهو الكتاب المقدس للمسلمين المنتشرين فى كل صقع من أصقاع الأرض، والذين تتمثل فيهم شتى أممها، فهى أصول دينهم وشرائع حياتهم ونبع إلهامهم ونبراس أخلاقهم ونور هدايتهم فى مختلف شئونهم الدينية والدنيوية، الروحية والمادية، العامة والخاصة، السياسية والقضائية، والاجتماعية والشخصية والإنسانية، وفيه أقوى الحوافز إلى أسمى الآفاق وأبعد الأشواط الموصلة إلى أعلى ما يمكن أن يكون من رفعة الذكر وعلو القدر وقوة التمكين والنصر، وجعل متبعيه خير أمة أخرجت للناس إذا هم قاموا بأعباء ما حملهم إياه من تبعات، وأدوا ما ائتمنوا عليه فيه للإنسانية من أمانات : من دعوة إلى الخير والحق والهدى، ومن أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، ومن تواص بالصبر والحق والمرحمة، ومن تناصر ضد البغي والإثم والعدوان، ومن اتصاف بكل صفات الخير والعدل والبر والرحمة والإحسان والكرامة والعزة والصدق والوفاء وكل خلق كريم، ومن تحذير للفواحش والآثام والمنكرات ما ظهر منها وما بطن، وما صغر منها وما عظم، وصفه الله فيه بأنه يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات بعظيم الأجر، وأن فيه لهم الشفاء والرحمة والهدى، ووصفه نبيهم بهذا الوصف الشامل الرائع المأثور عن طريق على بن أبى طالب والمثبت فى كثير من كتب الأئمة والثقاة : فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره تأصله الله، وهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم. فهم من أجل هذا مكلفون بالاشتغال به دينياً فهماً وتدبراً وتفسيراً واستنباطاً واستلهاماً واستيحاء.

http://kotob.has.it

القرآن وشخصية النبي ﷺ

وشخصية الرسول ﷺ الذى أنزل عليه القرآن هى الشخصية الوحيدة التى ليست محل شك وريب من الوجهة التاريخية، وعند مختلف الملل والنحل والأقوام من بين شخصيات الأنبياء، وفى صدد حادث "نبوة النبي" المتصل بسر وحى الله وسر الوجود وواجب الوجود والذى تواترت الأخبار عن تكرره فى مختلف عصور التاريخ السالفة.

والقرآن الكريم هو الكتاب السماوى الوحيد الذى ليس محل شك وريب من بين الكتب السماوية المتداولة فى كونه متصلا بالنبى، وفى صدوره عنه بحروفه وألفاظه وسوره بوحى من الله، وقد تكرر فيه تقرير بشرية النبى، وكونه فى طبيعته البشرية كسائر البشر، وكون قصارى مهمته دعوة الناس إلى الله وحده، وإخراجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، والحث على مكارم الأخلاق، والتحذير من الشر والأذى والفواحش، وتبشير المستجيبين بالخير والنجاة، وإنذار المعرضين بالويل والخسران، كما ترى فى الآيات التالية التى هى فيض من غيض فى هذا الباب :

بسم الله الرحمن الرحيم

١- ﴿قل أى شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإننى بريء مما تشركون﴾.

(الأنعام: ١٩)

٢- ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون﴾.

(الأنعام: ٤٩)

٣- ﴿قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾. (الأنعام: ٥٠)

٤- ﴿الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾. (إبراهيم: ١)

٥- ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾

(الكهف: ١١)

وقد تكرر فى تقرير كونه أعظم مظهر لنبوة النبى وأقوى آياتها ودلائلها كما ترى فى نص الآيات التالية :

http://kotob.has.it

بسم الله الرحمن الرحيم

١- ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون أن تقولوا إنما نزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون﴾

(الأنعام : ١٥٥-١٥٧)

٢- ﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾

(الأعراف : ٥٢)

٣- ﴿ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم﴾

(الحجر : ٨٧)

٤- ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين. أو لم يكفهم أنا نزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾

(العنكبوت : ٥٠-٥١)

وقد تكرر فيه توكيد اتصاله بوحى الله وصدوره عنه، وعجز الناس عن الإتيان بمثله معلناً ذلك على ملأ من خصومه الألداء وجاحديه الأشداء كما ترى فى الأمثلة التالية بالإضافة إلى الآيات السابقة.

بسم الله الرحمن الرحيم

١- ﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾

(البقرة : ٢٣-٢٤)

٢- ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً ﴾

(النساء : ٨٢)

٣- ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً﴾

(النساء : ١٦٥)

٤- ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (الإسراء : ٨٨)

http://kotob.has.it

٥- ﴿وأنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾ (الشعراء : ١٩٢- ١٩٥)

بالإضافة إلى هذا فقد احتوى آيات كثيرة فيها إعلان بإشهاد الله على صحة هذه التوكيدات والتقريرات، وتعظيم لجرم الافتراء على الله كما ترى في الآيات التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم

١- ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ (الأنعام : ٩٢-٩٣)

٢- ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربى مبين إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ﴾

(النحل : ١٠١-١٠٥)

٣- ﴿ أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور ﴾

(الشورى : ٢٤)

٤- ﴿ أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم ﴾

(الأحقاف : ٨)

٥- ﴿ تنزيل من رب العالمين ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين وإنه لتذكرة للمتقين ﴾

(الحاقة : ٤٣-٤٨)

ففى أسلوب هذه الآيات وأمثالها الكثير ما يبعث فى نفس كل منصف حسن النية مهما كانت نحلته وملته أقوى معانى اليقين بصدقها، ويزيل منها أى معنى من معانى الشك والارتياب فى عمق

http://kotob.has.it

إيمان الرسول عليه السلام بصحتها، وفى استغراقه فيها استغراقاً تاماً لا يمكن أن ينبعث إلا من أقوى الإيمان واليقين والصدق الصميم.

الدعوة القرآنية :

واحتوى دعوة الناس كافة إلى عبادة الله وحده، وعدم الخضوع لأي قوة من قوى الكون غيره وتنزيهه عن كل نقص وشائبة، وإلى جماع مكارم الأخلاق والفضائل، وأسباب سعادة الدارين، والتصديق بنبوة أنبياء الله والكتب المنزلة عليهم وتقرير اتحاد المنبع والوجهة بين ما دعا إليه ودعوا إليه من غير تفريق بينهم، وتقرير كون هذه الدعوة التى احتواها هى الدين الحق الذى ارتضاه الله للناس جميعاً منذ بعث الله رسوله محمداً عليه السلام بالهدى ودين الحق الذى فيه إظهاره على الدين كله، يقيم البشر فى ظله دعائم مجتمعهم، ويسيرون فى مختلف شئونهم وفق تعاليمه ومبادئه وتلقيناته القائمة على أسس الحق والعدل والمساواة والإحسان والتعاون، ورفع الأسر والأغلال، وحل الطيبات وتحريم الخبائث والفواحش والمنكرات، وتوطيد السلم العام بين الناس كافة إخواناً متحابين، لا يظلم بعضهم بعضاً، ولا يبغى بعضهم على بعض، ولا تنبذه فيه طائفة، ولا تحرم فيه فئة، ولا تتعالى فيه طبقة على طبقة، مع إيجاب التناصر على الباغى حتى يفيء إلى حكم الله والحق، ومع الدعوة إلى التمرد على كل ضار، والإقبال على كل صالح بقطع النظر عن قدمه وجدته، ومع تقرير كون الله إنما يريد للناس اليسر ولا يريد بهم العسر ولم يجعل عليهم فى الدين حرجاً، وبأسلوب قضى له بالخلود من حيث البرهنة على صدق الدعوة وأهدافها بتوجيه الخطاب للعقول والقلوب، وإدارته حسب أفهام الناس ومداركهم فى هذا النطاق، ودون أن تجعل المعجزة الخارقة دعامة أساسية فى ذلك، لأن مثل هذه الدعوة فى غنى عن المعجزة لإثبات حقها وصدقها، ثم من حيث سعة الأفق والشمول والمميزات التى لم تسبق ولم يلحق بها فى شتى نواحى التشريع والتلقين، والتوجيه إلى أفضل المثل وأقوم الطرق مع الاتساق التام وحقائق الأمور وطبائع الأشياء والتمشي مع كل ظرف ومكان والاستجابة إلى كل شأن من شئون الناس وحاجاتهم الروحية والمادية والعامة والخاصة، وحسب اختلافهم وتفاوتهم فى العقل والسعة والثقافة والأفق.

واحتوى كذلك حلولاً للمشاكل المعقدة التى كانت تجعل الناس شيعاً وأحزاباً، وفرقا وأضدادا، وإهابة بالغلاة والمفرطين للارعواء عن غلوهم وإفراطهم، وإرشاداً للحائرين والمترددين للانتهاء من حيرتهم وترددهم بأسلوب وجه فيه الخطاب إلى العقول والقلوب معاً فيه كل القوة وكل النفوذ وكل الإقناع لمن لم تخبث طويته، ويجعل إلهه هواه، ويتعمد العناد والمكابرة والاستكبار عن قصد وتصميم، ثم احتوى تنظيماً للمناسبات بين مختلف فئات الناس وخاصة بين المستجيبين للدعوة –

http://kotob.has.it

المسلمين – وغيرهم على أساس المسالمة والحرية والحق والعدل والتزام حدود ذلك بالتقابل، وكف الأذى وعدم الصد والتعطيل والدس، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتى هى أحسن إلا الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً، ومقابلة العدوان بمثله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله[1].

أسلوب القرآن :

وقد جاء فى نظمه وسوره وآياته وقصصه وعظاته وتلقيناته وأمثاله وخطابه وحججه وجداله أسلوباً رائعاً متميزاً فى ذلك كله بخصوصيات جعلته فذا بالنسبة لأسلوب الكتب السماوية السابقة، وبالنسبة لما هو مألوف من أساليب النظم والسبك والخطاب، ذا طابع خاص خالد مما لا يصح أن يقاس عليه أنواع الكلام وأساليب الكتب والتأليف ومما يصح أن يعد أسلوباً خاصاً فيقال إن اللغة العربية نظم ونثر وقرآن كما قاله كبير من أدباء العربية الحديثين بقطع النظر عن الباعث عنده على هذا القول، ومما يصح أن يكون معينا لا ينضب فى فنون النظم والسبك وسمو الطبقة.[2]

القرآن والبيئة والسيرة النبوية :

وعلى اعتباره أصدق مدونة دونت فى عهد النبى، بل وأوحد مدونة من عهد النبى احتفظت بصورتها الأصلية دون تحوير وتعديل فقد جاء بما احتواه من معان وأساليب واصطلاحات ومفردات وتشبيهات واستعارات وفنون خطاب ولغة دليلاً قوياً رائعاً على ما وصل إليه العرب الذين نزل بلسانهم فى عهد نزوله من الدرجة الرفيعة فى سلم الفصاحة خاصة وما كانوا عليه من حضارة مادية

---

(١) اقرأ مثلاً الآيات التالية فى صدر تقرير كون الدعوة فى غنى عن الخوارق : الأنعام ٤-٢٠ و١٠٩ -١١٧ و يونس ١٥-٣٦ والرعد ٧-٣٢ والإسراء ٨٩-١٠٠ والأنبياء ٢-١٠ والفرقان ١-١٠ والعنكبوت ٤٥-٥٢.

(٢) اقرأ مثلاً الآيات التالية فى صدد أهداف الدعوة ومبادئها ووحدتها من دعوة النبيين وحل المشاكل وتنظيم الملابسات : البقرة ٨٣-٩٠ و ١٠١ و ١٣٦ – ١٣٩ و ١٧٧ و ٢١٣ و ٢٦١ – ٢٨٦ وآل عمران ٣٤-٦٤ و ١٠٤ و١١٠ و ١٨٩ – ١٩٩ و ١٥٠ – ١٦٦ والنساء ١-٣٨ و ٩٠-١٣٥ و١٦٣ -١٧٩ والمائدة ١-٥ و٤٤-٥٠ و٥٩ -٨٦ والأنعام ١٤٧-١٥٣ والأعراف ٢٩-١٣٣ و١٥٦ -١٥٨ والنحل ٩٠- ٩٧ و١٢٥-١٢٨ والإسراء ٢٢-٣٩ ومريم ١٦-٣٧ والمؤمنون ١-١٠ والفرقان ٦٣-٧٦ والعنكبوت ٤٥-٤٩ والشورى ١٣-١٥ و٣٦-٤٣ والممتحنة ١-١٢ والحشر ٧-١٠ والحجرات ١-١٨ فإن الكتاب يضيق عن استيعابها لكثرتها.

http://kotob.has.it

وعقلية وثقافية بصورة عامة خلافاً لما حلا لبعضهم أن يرويه ويقوله على ما ذكرناه فى كتابنا عصر النبى[١] وعلى ما نبهنا عليه فى مناسبات كثيرة من التفسير.

واحتوى بالإضافة إلى ذلك أولاً أصدق الصور وأوثقها لبيئة النبى ﷺ وعصره من النواحى الاقتصادية والمعاشية والجغرافية، وعما كان عليه أهلهما من تقاليد وظروف وعادات دينية واجتماعية وأخلاقية وعقلية وثقافية واقتصادية اتصلت بظروف البعثة والسيرة النبوية وتطوراتهما أوثق اتصال، وثانياً أصدق الصور وأوثقها للسيرة النبوية الشريفة فى عهديهما الملكى والمدنى، وسواء فى ذلك ما كان روحانى المظهر من حيث الصلة بالله ووحيه وتلقينه وتوجيهه ومدده وتأييده وتعليمه وتأديبه وتثبيته،أو ما كان متصلاً بالناس من حيث مواقفهم من النبى ﷺ ودعوته مسلمين وكتابيين ومشركين، ومن حيث تأثرهم بهذه السيرة وهم شهود العيان لحادث "نبوة النبى" فى شخص محمد ﷺ، ثم من حيث موقف النبى من الناس ومن حيث تطور موقفهم منه وموقفه منهم بتطور الدعوة واتساع نطاقها.

فالقرآن من أجل ذلك كله كان وسيظل موضوع نظر وتدبير واستلهام واستنباط لدى الناس على مختلف الملل والنحل والأجناس بطبيعة الحال.

ونريد أن نستدرك بأننا لا نعنى أن القرآن قد احتوى جميع صور السيرة النبوية والبيئة النبوية وأحداثها، أو أن ما احتواه منها قد جاء قصداً لها بالذات. فهناك من دون ريب أحداث وصور كثيرة من البيئة والسيرة النبوية لم ترد فى القرآن، كما أن ما جاء منها فيه إنما جاء فى الحقيقة عرضاً وبسبيل الدعوة والموعظة والتذكير والتشريع والأمر والنهى مما اقتضته الحكمة ليكون مصدر إلهام وإيحاء وتوجيه، ومرجع تشريع وتلقين للمسلمين فى جميع العصور، ولكن الذى نعنيه أن فى القرآن من هذه الصور شيئاً كثيراً منه ما جاء بصراحة ووضوح، ومنه ما جاء إشارة وتلميحاً.

الوحى الربانى والوحى القرآنى :

وصلة النبى عليه السلام بالوحى الربانى التى كان القرآن مظهرها الرئيسى وطيدة، لأنها متصلة بسر النبوة، فإن القرآن احتوى آيات عديدة قد تساعد بعض الشيء على فهم مظاهرها ومداها بقدر ما تسمح به اللغة البشرية وتتسع له أفهام البشر الذين يتخاطبون بها.

منها ما جاء فى سورة التكوير :

---

[١] صدر عام ١٣٦٦ = ١٩٤٧.

http://kotob.has.it

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالأفق المبين وما هو على الغيب بضنين وما هو بقول شيطان رجيم فأين تذهبون ﴾
(التكوير : ١٩-٢٦)

حيث ترد الآيات كما هو واضح على نسبة الجنون وصلة الشيطان بالنبى التى نسبها الكفار إليه حينما أخذ يخبر بحادث رؤياه ملك الله وخطابه له، وسماعه منه أولى آيات القرآن. ولعل هذه الآيات أقدم آيات واردة فى الموضوع بهذه الصراحة.

ومنها ما جاء فى سورة النجم :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى ﴾ (النجم : ١-١٢)

وهى كسابقتها مضمون وتوكيد بصدق تقرير النبى عن صلته بالله أو ملك الله، ونزول وحى الله عليه، والآيتان الأخيرتان تشيران إلى أن رؤية النبى لملك الله كانت بعين بصيرته وفؤاده، وتتضمنان حجة قوية على انسداد مجال المماراة فى هذه الرؤية الخاصة التى ليست قدراً مشتركاً بين الناس. ولعل ما يصح التمثيل به- ولله ووحيه ونبيه المثل الأعلى - على سبيل التقريب لمفهوم الآيات ما يخطر ببال الإنسان من خواطر أو ما يراه الرائى فى المنام، فهذه وتلك إحساسات أو رؤى خاصة ليست قدراً مشتركاً بين الرائى أو الهاجس وغيره حتى تصح فيها المماراة والتكذيب، كما تصح فى تقرير رواية مشهد من شاهد الكون كالشمس والقمر والشجر وغيرها. فإذا قال أحد إنه يرى القمر ولم يكن بازغاً أو يرى شجراً ولم يكن هناك شجر فالمماراة واردة وصحيحة.

ومنها ما جاء فى سورة الشعراء :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين ﴾ (الشعراء : ١٩٢-١٩٥)

والسياق الذى جاء بعدها يلهم أنها هى الأخرى بسبيل الرد على نسبة الكفار صلة النبى إلى الشيطان دون الملائكة والتوكيد بأن القرآن وحى ربانى حيث جاء بعد ذلك:

http://kotob.has.it

١- ﴿ وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون﴾

(٢١٠-٢١١)

٢- ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ﴾ (٢٢٢-٢٢٤) وفى الآيات الأولى ١٩٢-١٩٥ إشارة إلى كيفية صلة وحي الله القرآني بالنبى ﷺ وهى نزوله به على قلبه مما يتسق مع تقرير آيات النجم الأخيرة.

ومنها ما جاء فى سورة النحل :

﴿ وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ (٩٨-١٠٢) وهى مثل سابقاتها تؤكد صلة النبى ﷺ بالله ووحيه القرآني وتنفى صلة الشيطان المزعومة من الكفار من جهة وتنطوى على كيفية مقاربة لما جاء فى الآيات السابقة من جهة أخرى.

ومنها ما جاء فى سورة البقرة.

﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ (٩٧)

وقد جاءت الآية فى سياق التنديد باليهود ومواقفهم وإعلانهم العداء لجبريل عليه السلام، وانطوت على كيفية مماثلة للكيفية التى احتوتها آيات الشعراء مع صراحة اسم ملك الله الذى كان اسمه معروفا فى معرض الوحى الربانى عند اليهود والنصارى والذى ذكر اسمه فى أحد الأناجيل فى معرض بشارة مريم وحملها بالسيد المسيح عليه السلام.

وفى سورة الشورى آيات فيها بيان كيفيات اتصال الوحى الربانى بالبشر وبالنبى ﷺ:

﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم ﴾ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ (٥١-٥٢)

ومع أن الوحى الربانى اصطلاحاً هو ملك الله الذى يتصل بالنبى ﷺ فإن الآيات الثانية تلهم أنه أريد به المعنى اللغوى وهو القذف بالقلب والروع على ما فسره العلماء مما هو متسق مع مضمون الآية الأولى التى احتوت إشارة إلى طريقتين أخريين كما هو ظاهر.

ومنها آيات فى سورة القيامة :

http://kotob.has.it

﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه ﴾ (١٦-١٩)

وآية في سورة طه مقارنة لهذا المعنى :

﴿ فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل ربى زدنى علماً ﴾ (١١١)

وآيات القيامة خاصة احتوت نهيا صريحاً للنبى عن حركة آنية كانت تبدو منه حينما كان ينزل عليه الوحى القرآنى وفيها صورة عظيمة المدى لصلة الشعور النبوى بالوحى الربانى، حيث كان النبى يردد ما كان يوحى إليه بلسانه مما شاء لإلقاء الوحى القرآنى فى ان نزوله عليه حرصاً منه على أن لا يفلت منه آية أو كلمة أو حرف أو معنى مما كان يوحى إليه به.

وفى سورتى النحل وغافر آيتان وإن كانتا ليستا فى صدد صلة النبى محمد ﷺ بالوحى خاصة ، فإنهما فى صدد معنى ومدى صلة الله ووحيه بمن يختاره لرسالته من عباده :

١- ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ (النحل)

٢- ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق﴾ (غافر: ١٥)

والآية الثانية قد تلهم أن الروح فيها لا تعنى جبريل الذى فسرت به الكلمة فى أكثر ما ورد فى صدد الوحى الربانى وإنما قد تعنى تجلياً ربانياً يتصل بالشخص المختار. أما الآية الأولى فإنها تلهم أن هذا التجلى يحدث بمرافقة الملائكة وإطلاقا. وفى سورة فاطر آية تؤيد هذا الإطلاق والشمول :

﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ (فاطر : ١)

ولقد وردت فى صدد صلة النبى بوحى الله أحاديث عديدة توضح أحياناً بعض ما احتوته الآيات من صور وتتفق أحياناً معها. منها حديث البخارى المشهور عن عائشة رضى الله عنها فى كيفية بدء الوحى :

" أول ما بدأ به رسول الله من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالى ذوات العدد قبل أن ينزح إلى أهله ويتزود إلى ذلك. ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها. حتى جاءه

http://kotob.has.it

الحق وهو فى غار حراء. فجاءه الملك فقال : اقرأ قال ما أنا بقارئ قال فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثالثة ثم قال اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم. فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة وأخبرها الخبر. لقد خشيت على نفسى، فقالت خديجة كلا والله ما يخزيك أبداً. إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد ابن عبد العزى ابن عم خديجة. وكان امرأ قد تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمى فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع ابن أخيك. فقال له ورقة يا ابن أخى ماذا ترى فأخبره رسول الله خبر ما رآه. فقال له ورقة هذا الناموس الذى أنزل الله على سيدنا موسى ويا ليتنى فيها جذع، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أو مخرجى هم قال نعم. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً."

ومنها حديث رواه الطبرى عن ابن زبير :

" قال رسول الله ﷺ فجاءنى وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال اقرأ فقلت ماذا أقرأ. فغطنى حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت ماذا أقرأ – وما أقول ذلك إلا اقتداء من أن يعود إلى بمثل ما صنع بى – قال اقرأ باسم ربك الذى خلق إلى قوله علم الإنسان ما لم يعلم قال فقرأته ثم انتهى ثم انصرف عنى وهببت من نومى وكأنما كتب فى قلبى كتاب. قال ولم يكن من خلق الله أبغض على من شاعر أو مجنون. كنت لا أطيق أن أنظر إليهما قال قلت إن الأبعد يعنى نفسه لشاعر أو مجنون لا تحدث بها عنى قريش أبداً. لأعمدن على شاهق من الجبل فلأطرحن نفسى منه فلأقتلنها فلأستريحن قال فخرجت أريد ذلك حتى إذا كنت فى وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل. قال فرفعت رأسى إلى السماء فإذا جبريل فى صورة رجل حافية قدماه فى أفق السماء يقول يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل. قال فوقفت أنظر إليه وشغلنى ذلك عما أردت فما أتقدم وما أتأخر وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك. فمازلت واقفا ما أتقدم أمامى ولا أرجع ورائى حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ثم انصرف عنى وانصرفت راجعاً إلى أهلى."

ومنها أحاديث أخرى وردت فى البخارى أيضاً :

http://kotob.has.it

١- عن عائشة رضى الله عنها أن الحرث بن هشام رضى الله عنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحى فقال رسول الله أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فينفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال. وأحياناً يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول قالت عائشة - رضى الله عنها - ولقد رأيته يتنزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فينفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً.

٢- أخبر صفوان بن يعلى أن يعلى كان يقول ليتنى أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ينزل عليه. قال فبينما النبى كان بالجعرانة وعليه ثوب قد أظل معه فيه أناسا من الصحابة إذ جاءه اعرابى عليه جبة متضمخ بالطيب فقال يا رسول الله كيف ترى فى رجل بعمرة فى جبته بعد ما تضمخ بالطيب فأشار عمر إلى يعلى بيده أن تعال فجاء يعلى فأدخل رأسه فإذا بالنبى صلى الله عليه وسلم محمر الوجه يغط كذلك ساعة ثم سرى عنه فقال أين الذى يسألنى عن العمرة آنفاً. فالتمس الرجل فأتى به فقال أما الطيب الذى بك فاغسله ثلاث مرات وأما الجبة فانزعها ثم اصنع فى عمرتك كما تصنع فى حجك.

٣- أخبر زيد بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى عليه ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله﴾ "فجاءه ابن أم مكتوم وهو يمليها قال يا رسول الله والله لو استطعت الجهاد لجاهدت وكان أعمى فأنزل الله على رسوله وفخذه على فخذى فثقلت على حتى خفت أن ترض فخذى ثم سرى عنه فأنزل الله ﴿غير أولى الضرر﴾ .

٤- عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عائشة هذا جبريل يقرئك السلام قالت وعليه السلام ورحمة الله قالت وهو يرى ما لا نرى ففى بعض النصوص القرآنية صراحة بنزول وحى الله بالقرآن على قلب النبى، وفى بعضها ما يمكن أن يلهم أن الوحى تجل روحانى ربانى ينزل على من يختاره الله من عباده لرسالته تارة مترافقاً مع الملائكة وبتخصيص مع جبريل وتارة بدون ذلك، وفى بعضها إشارة إلى أن النبى كان يرى الملك الربانى بعين بصيرته وكان يسمع كلامه ويتلقى عنه أيضاً. والأحاديث الواردة تفيد تارة نزول الوحى على قلب النبى، وتارة رؤية النبى لمالك الله وسماعه كلامه وتلقيه عنه كذلك.

وهذه وتلك وآثار عديدة أخرى تفيد أن الوحى كان ينزل على النبى وهو بين الناس أو هو فى بيته فلا يشعر به غيره، وكل ما يكون من مظهره أن يأخذه الجهد ويطرأ عليه شيء من الانفعال الروحانى ويتصبب عرقاً، ثم ينفصم عنه وقد وعى ما نزل عليه فيبادر إلى ابلاغه وإملائه فى مجلسه الذى يكون فيه، ويستأنف ما كان فيه من عمل أو حديث وقد كان النبى ﷺ يشعر بأن الوحى

http://kotob.has.it

الربانى الذى ينزل عليه بمختلف الطرق هو شيء منفصل عن ذاتيته، ولا تصح المماراة فى ذلك لأن المخبر الصادق بأمر لا يستطيع غيره أن يشعر به.

هذا ولقد أثر عن النبى النهى عن تدوين شيء غير القرآن عنه كما تواترت الأخبار بأنه كان يأمر أحد كتابه بتدوين ما كان ينزل عليه من الوحى القرآنى فوراً. فهذا وذاك متصلان بشعوره الخاص بالفرق بين ما كان ينزل عليه من وحى قرآنى وبين كلامه العادى أو ما يجول فى نفسه من أفكار وخواطر. أو ما يلهمه من الله إلهاماً أو يوحى إليه إيحاء من غير القرآن وبالحرص على عدم الخلط بينهما.

ومما يتصل بهذه الإلهامات أو الإيحاءات الربانية للنبى فى صدد أعمال وتشريعات عديدة، فغزوة بدر مثلاً أقدم عليها النبى نتيجة لهذه الإلهامات، وسورة الأنفال إنما نزلت بعد وقوعها.

وفى هذه السورة آيات تحتوى على إشارات إلى وقوع تلك الإلهامات قبل الخروج إحداها فى صدد القافلة وهى ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم﴾ والثانية منها فى صدد المعركة وهما ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم..﴾ ومع ذلك فإن النبى لم يبلغ هذه الإلهامات على أنها وحى قرآنى قبل الخروج أو قبل المعركة، ولكنه سار سير المسلمين إلى الهدف بها، ولم يبلغ الآيات نصاً على أنها كذلك. إلا بعد الواقعة وحينما أوحيت إليه مع فصول أخرى من سورة الأنفال على أنها كذلك. ومن هذا رحلة الحديبية وما كان من النبى فيها ورحلة خيبر وتشريع الفيء والخمس والزكاة وصلاة الجمعة وكيفيات وأوقات الصلوات الخمس والوضوء والتنكيل ببنى النضير وبنى قريظة ونمير وغيره مما يصعب حصره لكثرته، حيث كان ذلك بالإيحاء والإلهام الربانى فلم يبلغ النبى ذلك كوحى قرآنى وإنما سار وسير المسلمون عليه بقوته، ولعله بكفه للمسلمين على أنه إلهام أو إيحاء مطلق ولم يبلغ ما جاء فى القرآن فى هذا الشأن بعد العمل إلا حينما أوحى إليه على أنه وحى قرآنى.

ومما يزيد هذا وضوحاً ما يروى عن النبى من الأحاديث المعروفة بالأحاديث القدسية والتى تحتوى كلاماً ربانياً.

فليس من أحد يمكن أن يفهم منطقياً بين هذه الأحاديث وبين ما يوحى إلى النبى قرآناً.

ومحتوياتها مما يتصل بمحتويات القرآن وعظا أو إنذاراً أو تبشيراً أو أخباراً أو قصصاً.

ومع ذلك فقد فرق بينها وبين القرآن ولم يأمر النبى بتدوينها قرآناً، ومما لا ريب فيه أن هذا التفريق يتصل بالصفة القرآنية التى كان يدركها النبى لما يوحى إليه به قرآناً.

ولعل فى آيات سورة يونس هذه دليلاً قوياً على ما نقرره من ذلك الشعور :

http://kotob.has.it

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قــل مــا يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلي إنى أخاف إن عصيت ربى عــذاب يــوم عظيم قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾

(١٥-١٦")

كما أن فيها برهاناً على أن النبى ما كان يفكر فى أى شيء من دعوة الناس والاســتعداد لــها، وكل ما كان من أمره أنه كان مستغرقاً فى الله وآلائه وعظمته حتى صار مظــهر رســالة الله و(الله أعلم حيث يجعل رسالته)، فأمر به فصدع بما أمر.

ومما يجدر التنبيه عليه :

أولاً : أن فى القرآن آيات عديدة تبدو أنها جاءت على لسان النبى أو علــى لســان الملائكــة مباشرة، أى غير مسبوقة بأمر القول ولا معطوفة على آيات فيها ذلك مثل :

١- ﴿الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ألا تعبدوا إلا الله إنى لكم منه نذير وبشير وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضلــه وإن تولوا فإنى أخف عليكم عذاب يوم كبير إلى الله مرجعكم وهو وعلى كل شيء قدير﴾

(هود : ١-٤)

٢- ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا... ﴾

(مريم : ٦٤)

٣- ﴿وما منا إلا له مقام معلوم وإنا لنحن الصافون وإن لنحن المسبحون﴾

(الصافات: ١٦٤-١٦٦)

٤- ﴿ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إنى لكم منه نذير مبين﴾

(الذاريات : ٥٠-٥١)

وثانياً – إن فيه آيات أخرى احتوت تنبيهاً على حركة شخصية وفورية من النبى ﷺ وليســت متصلة بما سبقها أو بما لحقها من الآيات سياقاً وموضوعاً وهى آيات سورة طــه (١١١) والقيامــة (١٦-١٩) التى نقلناها قبل قليل.

ومع أن المفسرين قالوا فى صدد الآيات المذكورة فى الفقرة الأولى وأمثالها : إن هناك تقديــراً وهو أن الله أمر النبى بأن يقول ما قال، وإن الله بلّغ النبى ما قالتـه الملائكة، وإن الآيات على هــذا

http://kotob.has.it

التقدير هى من الوحى الربانى القرآنى فإن فى هذه الآيات وتلك ما يسيغ على المعنى الذى تقرره وضوحاً على ما هو المتبادر حيث بلغت قرآناً مع ما جاءت عليه من صيغة وأسلوب.

وعلى كل حال فالنصوص والآثار تسوغ القول إن صلة الوحى الربانى بالنبى هى صلة روحية خاصة به، كان يشعر بها بالقوة التى اختصه الله بها دون أن يكون بإمكان غيره إدراكها، غير أن أثرها قائم قياماً حاسماً لا سبيل إلى المماراة فيه، وإن من الممكن أن يدرك بعض كيفياتها وصورها من الآيات والأحاديث والإيضاحات التى أوردناها آنفاً.

وروحانية صلة النبى عليه السلام بالوحى الربانى وخصوصية ذلك بإدراك النبى عليه السلام قد تبدوان واضحتين أيضاً بما كان من تحدى الكفار للنبى باستنزال الملائكة مما حكته آيات مكية عديدة مثل هذه :

بسم الله الرحمن الرحيم

١- ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون﴾

(الأنعام : ٨)

٢- ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾

(هود : ١٢)

٣- ﴿وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين﴾

(الحجر : ٦-٨)

٤- ﴿وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً﴾

(الفرقان : ٧)

وجل هذه الآيات نزل فى سياق الحجاج فى صحة اتصال النبى بالوحى الربانى. فلو شاءت حكمة الله أن تكون صلة النبى هذه مادية يمكن أن يدركها غير النبى لكان الملك تتراءى للكفار أو غيرهم فى معرض الإفحام والإلزام أو التأييد.

هذا، وننبه على أن لعلماء القرآن ومفسريه من أصحاب النبى وتابعيهم ومن بعدهم أقوالاً كثيرة فى كيفية نزول القرآن ووحيه من الناحية الشكلية والعملية. مثل كيفية تلقى الملك القرآن عن الله، ومثل نقله القرآن عن اللوح المحفوظ، ومثل إنزال القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا وإنزاله منها منجماً، ومثل كيفية تلقى النبى القرآن عن الملك وتحوله روحياً ليكون متناسباً مع الروح الملكية.

http://kotob.has.it

وقادراً على التلقى من الملك إلخ.. لم نر ضرورة إلى التطرق إليها فى هذا المقام، لأنها يبدو عليها آثار التكلف والتجوز التى تؤدى إلى عدم الاطمئنان، ولاسيما أن فيها تطرفاً لا يشفى عليلاً. ولا طائل من ورائه إلى السر الذى ظل على الرغم من ذلك كله محجوباً عن سائر الناس.

شهود العيان لأعلام النبوة:

وإذا كانت صلة الوحى الربانى بالنبى على الوجه المشروح حقيقة لا يصح إيمان المسلم إلا بالإيمان بها، فإن أى شخص منصف، حسن النية مهما كانت عقيدته، لا يسعه إذا ما تمعن بالآيات والأحاديث، إلا التصديق بصدق الشعور النبوى بها، وبكون النبى ﷺ إنما يصدر عن أمر راهن منها ظل سراً ربانياً ونبوياً، فإنه لا يمكن المماراة فيه. على أن فى شهود العيان دعامة حقيقية حاسمة فيما نعتقد أيضاً. فقد شهد حادث نبوة النبى محمد صلى الله عليه وسلم آلاف الناس منهم العرب ومنهم غير العرب، ومنهم المشركون ومنهم الوثنيون ومنهم الكتابيون، ومنهم المستقرون من هؤلاء فى مكة والمدينة، ومنهم الوافدون خصيصاً على هاتين المدينتين للاستعلام والاطلاع على النبأ العظيم الذى بلغهم. ولقد آمن بنبوة النبى فى بدء الأمر مئات منهم فى مكة طوعاً وشوقاً، ممن طابت أنفسهم وحسنت نياتهم وأنار الحق قلوبهم فى وسط المعارضة الشديدة التى تولى كبرها زعماء أشداء ألداء لأسباب عديدة ذكرها القرآن، وكان بين المؤمنين تلك الطبقة النيرة القوية فى عقولها وشخصياتها، والتى لمع أفرادها لمعاناً باهراً فيه الدلالة على هذه المزايا، مثل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وسعد وسعيد وطلحة والزبير وأبى عبيد، وغيرهم وغيرهم رضوان الله عليهم، ثم كان بينهم كثير من أهل الكتاب بل وعلمائهم مستقرين ووافدين ممن طابت طوياتهم وحسنت نياتهم وتجردوا من الهوى والغرض وأنفوا من المكابرة والعناد، ولم يبالوا بما كان من قوة الزعماء الأعداء وتحرشهم، وإذا هم على ما احتوته الآيات القرآنية المكية كما ترى فى هذه الأمثلة:

١- ﴿الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾. (الأعراف : ١٥٧)

٢- ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾. (يونس : ٦٢-٦٣)

٣- ﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك﴾. (الرعد : ٣٦)

http://kotob.has.it

٤- ﴿للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كم هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب﴾.
(الرعد : ١٨-١٩)

٥- ﴿والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوأنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾.

(النحل : ٤١-٤٢)

٦- ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتو العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾.

(الكهف :١٠٧-١٠٩)

٧- ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين﴾[1]
(القصص : ٥٢-٥٥)

ثم آمن بها الرعيل الأول من أهل يثرب وكان من شأنهم ما كان من نصر وتأييد وتفان فى دين الله ونبيه وآمن منهم فريق من علماء اليهود وسط معارضة شديدة قادها بعض زعماء العرب مع زعماء اليهود لأسباب عديدة وصفها القرآن وصفاً مسهباً، وهى متصلة أيضاً بنفس أسباب معارضة زعماء مكة، وآمن معهم وفود من علماء النصارى وفدوا على النبى فى المدينة، مستطلعين مستعلمين أيضاً على ما احتوته الآيات القرآنية المدنية، كما ترى فى الأمثلة التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم

١- ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين﴾

[1] هناك آيات كثيرة أخرى ووصف رائع لتقوى وورع وعبادة وخشية المؤمنين السابقين تدل على عمق الإيمان والاستغراق فيه فى العهد المكى مثل الآيات التالية الرعد ٢٠-٢٢ والفرقان ٦٣-٧٦ والمؤمنون ١-٨ والذاريات ١٥-١٩ والمعارج ٢٢-٣٥ والإنسان ٥-٢٢.

http://kotob.has.it

(آل عمران: ١١٣-١١٤)

٢- ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب﴾.

(آل عمران : ١٩٩)

٣- ﴿لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً...﴾

(النساء : ١٦٢)

٤- ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾.

(المائدة : ٨٢-٨٣)

٥- ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾.[١]

(التوبة : ١٠٠)

فالرعيل الأول من المؤمنين العرب. المشركين سابقاً فى مكة والمدينة. الذين آمنوا رغبة وطوعاً واستهانوا بكل شيء فى سبيل إيمانهم، والكتابيون فى مكة الذين آمنوا رغبة وطوعاً مع أنهم كانوا أكثر تعرضاً للأذى وهذا وذاك فى ظروف ضعف النبى المادى - وعلماء اليهود الذين آمنوا رغبة وطوعاً واستهانوا بكل شيء فى سبيل إيمانهم ولم يبالوا بعداء قومهم، وعلماء النصارى الذين جاؤوا مستطلعين فآمنوا كذلك بالصفة الرائعة التى ذكرتها آيات المائدة ٨١-٨٦ ما كانوا ليؤمنوا لو لم يشهدوا من أعلام النبوة وصدق الدعوة النبوية وصلة النبى بالله ووحيه ما لا يسع الطيب النفس المتجرد عن الغرض إلا ذلك.

---

[١] هناك آيات كثيرة أخرى تصف شدة إيمان المؤمنين الصادقين فى العهد المدنى واستغراقهم فى نصرة الله ودينه ونبيه مثل البقرة ١-٥ و ١٥٥-٢٠٧ وآل عمران ١٥-١٧ و ١٣٣-١٣٦ و ١٩٠-١٩٥ والمائدة ٥-٦ والتوبة ٧١ والأحزاب ٢٣-٣٥ والفتح ٢٩ والحديد ١٨-١٩ والمزمل ٢٠ وهى مكية والحشر ٨-١٠.

http://kotob.has.it

أثر القرآن الروحي وبلاغته النظمية :

وهنا محل لاستطراد وتنبيه، فقد ذهب بعض الباحثين[٢] استنتاجاً مما ذكره علماء المسلمين عن بلاغة اللغة القرآنية إلى أن هذه البلاغة كانت هي المؤثر الأول في إيمان الذين آمنوا في نجاح الدعوة النبوية. ومع كون اللغة القرآنية في الذروة العليا من البلاغة ليس محل شك، فإن في هذا الحصر شيئاً من الخطأ فيما نعتقد، إذ يجب أن يضاف إلى ذلك روحانية القرآن وقوة نفوذه، بل إن هذه وتلك يجب أن تكون مقدمتين.

والحق أنهما كانتا المؤثرتين في الدرجة الأولى، بالإضافة إلى روحانية الدعوة النبوية وصدق لهجتها وشواهد إعلامها. ويبدو هذا واضحاً في كون فريق الرعيل الأول من المؤمنين في مكة قد آمن في وقت مبكر جداً، وقبل أن يكون نزل من القرآن جملة كبيرة، فلا يصح أن يشك في أن إيمانهم كان بما نفذ إلى أعماقهم من روحانية الدعوة النبوية وصدق لهجتها، وبما شاهدوه من أعلام النبوة في الدرجة الأولى.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الوصف الذي به وصف أثر القرآن في الذين أوتوا العلم في آيات سورتي الإسراء ١٠٧-١٠٩ والقصص ٥٢-٥٣ المكيتين لا يصح أن يكون وصف أثر فصاحة القرآن وبلاغته اللغوية فقط، بل ولا يصح أن يشك في أنه وصف أثر روحانية القرآن، وقوة نفوذه، بالإضافة إلى روحانية الدعوة النبوية وشواهد إعلامها الصادقة في الدرجة الأولى، ولاسيما أن المذكورين في الآيات كتابيون ويحتمل أ لا يكونوا عرباً، أو ممن يجيدون العربية ويتذوقون بلاغتها بقوة وإلى أمثالهم على الأرجح نسب للكفار تعليم النبي كما جاء في آية النحل. ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ (النحل : ١٠٣)، حيث تقرر صراحة عجمة لسان بعض أهل العلم والكتابيين الذين كانوا في مكة. وهذا الذي نقوله في صدد المؤمنين السابقين من العرب والكتابيين في مكة ينسحب على من آمن بعدهم في مكة ثم في المدينة من الفريقين أيضاً. والآيات التي نقلناها قبل قليل وخاصة آيات المائدة بالنسبة لعلماء النصارى تحتوي برهاناً حاسماً في هذا الشأن.

وهناك ملاحظات مهمة في هذا الصدد تدعم ما نحن بسبيل تقريره، وهي أن الذين آمنوا في العهد المكي كانوا بضع مئات، في حين بقيت الأكثرية العظمى من أهل مكة ثم سائر أهل المدن

---

[٢] فيليب حتي وآخرون من المستشرقين.

http://kotob.has.it

والبوادى العربية متصامة عن الدعوة النبوية، بل ومناوئة لها طيلة هذا العهد، والنبى ﷺ يتلو القرآن على كل من يلقاه من هؤلاء وأولئك فى المواسم وغيرها، وظل الأمر كذلك مع أن ثلثى القرآن قد نزلا فى هذا العهد، وأن الأسلوب القرآنى المكى هو أقوى وأنفذ من حيث النظم والإنذار والتبشير والترغيب والترهيب والحجاج والإفحام والإلزام، وليس ما يصح قوله فى حال إن الذين آمنوا هم فقط الذين تذوقوا بلاغة القرآن وتأثروا بها. فغالب الزعماء والنبهاء والشعراء وذوى الشأن كانوا فى صفوف الكفار. ولقد ذكرت روايات السيرة[1] ما كان من تأثير فى بعض زعماء الكفار ونبهائهم فى مكة، وما كان منهم من اعتراف بسمو طبقته وبلاغته وحلاوته وقوة نفوذه، ومع ذلك فقد ظلوا مناوئين للدعوة إلى النهاية استكباراً وعناداً وأنفة وعصبية، وخوفاً على مراكزهم وزعمائهم إلى الفتح المكى، أو بعبارة أخرى إلى أن هلك بعضهم وضعف شأن من بقى منهم وأمكن الله منهم.

أثر الدعوة القرآنية فى نجاح الفتوحات الإسلامية :

والمناسبة تجرنا إلى استطراد وتنبيه آخر مهما كان موضوعه أمس بالتاريخ فإن له مساساً أيضاً بالبحث الذى استطردنا إليه. فقد حلا لبعض المستشرقين والباحثين[2] أن يقولوا إن ما تم من انتصار الجيوش الإسلامية فى بلاد الشام ومصر والعراق إنما كان انتصاراً للعروبة لا "للمحمدية" - الدعوة الإسلامية- أو إن العامل الاقتصادى فى بلاد العرب والعامل السياسى فى امبراطوريتى الفرس والرومان هما أبرز عوامل، وأن الذين أسلموا من أهل هذه البلاد إنما أسلمو أكثرهم للتخلص من الجزية، أو نتيجة للاضطهاد فهذه الدعوة تدعونا هنا إلى التنبيه فقط - لأن المقام لا يتسع للأسباب - على أن القائلين قد أغفلوا أو تجاهلوا عن قصد أو غير قصد أثر الدعوة المحمدية القرآنية العظيمة فى يقظة العرب الجديدة، وتجمعهم وموجتهم الكبرى فى عهد الخلفاء الراشدين، وكون قواد الحملات الإسلامية الأولى بنوع خاص وزعمائها ومشاهيرها كانوا من أصحاب النبى الذين رسخت فيهم مبادئ تلك الدعوة، وكون هذه الحملات امتداداً لحركات التنكيل والتأديب الدفاعية التى بدأت فى عهد النبى فى نطاق تلك المبادئ، وكون الشعار الذى حمله هؤلاء هو الدعوة إلى الإسلام بالموعظة والحكمة، والجزية على من أبى من الأعداء وخضع للسلطان الإسلامى، حتى لا يصد عن الدعوة ولا يفتن المستجيبون إليها ويكون الدين كله لله، والقتال لمن ظل على عدائه وصده إلى أن يتحقق ذلك القصد، وما احتواه التاريخ الإسلامى من الصحف النورانية الوهاجة عن التصرف الذى تصرفه

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٤٧-٢٤٨ و ٢٧١-٢٧٢ و ٢٨٥-٢٨٦.

(٢) فيليب حتى وكايتانى.

http://kotob.has.it

هؤلاء القواد والزعماء الذين زودهم الخلفاء الراشدون، بالإضافة إلى ما رسخ فيهم من مبادئ القرآن من الوصايا بالرحمة والبر والرأفة والوفاء ورعاية الذمة وترك المسالمين والحياديين وغير المحاربين والعجز والنساء والرهبان وشأنهم، مما هو مستمد كذلك من تلك المبادئ ومن السيرة النبوية الشريفة، وكون الدين الإسلامى لم يكن غريباً أو منحرفاً فى الأصل والجوهر عن الأديان السماوية التى كانت سائدة فى هذه البلاد، فلكل من هذه الأمور أثر قوى فى ما تم للعرب المسلمين من نصر وفتح، وما تم للدين الإسلامى من انتشار وإقبال فى أثناء الحملات الأولى وما تبعها من ظروف. وإذا كان التاريخ يذكر بعض ثورات قامت فى بعض الجهات، وبعض نكسات حدثت أو بعض أحداث نوقضت فيها تلك المبادئ، فإن ذلك لا يبرر القول الذى قيل، وما أريد توجيهه من غمز أو استهانة بآثار الدعوة النبوية القرآنية. وإذا كان قصد التخلص من جزية خفيفة هى فى الوقت ذاته بدل ضريبة الدم التى كان يؤديها المسلمون، وبدل ما كان يبذله هؤلاء من حماية وذمة للدافعين سببا فى اعتناق الإسلام فإنه يحمل نفسه معنى كبيراً، وهو كون الدين الذى كان المرتدون عنه يدينون به لم يكن من الرسوخ والقوة فى النفوس بحيث يكون أغلى من أن يباع بدينار أو دينارين أو أربعة دنانير فى السنة يؤديها الرجل البالغ القادر حسب مقدرته، لأن الجزية لم تكن تؤخذ من النساء والأطفال والعجزة، على أن من الحقائق التى لا تتحمل مماراة أن أكثر الذين اعتنقوا الإسلام من هؤلاء قد اعتنقوه عن قناعة ورغبة، لأنهم رأوه متطابقاً مع ما هو عليه دينهم من أسس، ومع كثير من تقريرات كتبهم المقدسة، ووجدوا فيه حلولا لعقد عقائدية كانت تثير بينهم الحيرة والفتن الهوجاء وتجر عليهم الاضطهادات. ولعل انحدار أكثرهم من الأرومات العربية الجنس التى سماها المستشرقون الحديثون بالساميين، وانتساب كثير منهم للعروبة التى تمركزت فيها هذه الأرومات قد ساعد على الانطباق والاندماج. على أن بقاء شرائم من النصارى واليهود والسامريين والصابئة بعد الحملات الإسلامية الأولى، ثم خلال ثلاثة عشر قرناً كان السلطان فيها والكثرة للمسلمين، بل كان هذا السلطان فى بعضها قوياً ليس فى الميدان من يدانيه قوة وشمولاً أو يتحداه لدليل خالد رائع على أن الطوائف غير المسلمة لم ترغم على الإسلام إجمالاً، وخاصة فى عهد الحملات الأولى والظروف القريبة منها، وإن الذين اعتنقوا إنما اعتنقوه بطوعهم وقناعتهم، وإن من بقى على دينه منهم قد تمتع بحريته وأمنة فى ظل هذا السلطان وفى ظل مبادئ القرآن الذى قام عليه مما لم يكن مثله فى أى حركة دينية قبله وبعده عاضدتها القوة والغلبة، بل ومما جاءت الوقائع والنصوص مؤيدة لعكسه على خط مستقيم. ومن الغريب أن يتجاهل المستشرقون المغرضون والمبشرون ذلك، ويحاولوا أن يجعلوا الشذوذ فى المسلمين وتاريخهم. وأنه لمن الحق والإنصاف أن يلاحظ استناداً إلى ذلك الدليل

http://kotob.has.it

الخالد الرائع أنه قد يكون لما يمكن أن يكون وقع من نكسات أو تصرفات قاسية أسباب سياسـية أو إدارية أو محلية، كالتمرد أو دس أو استفزاز، أو استجابة لدعاة سوء وشر أو لتحريكات خارجيـة مما سجل التاريخ بعض شواهده في سياق النكسات والتصرفات، ومما كان سبباً لإيقاع مثلـها فـي بعض طوائف المسلمين أنفسهم أيضاً.(١)

ومن الغريب الباعث على الدهشة أيضاً ما يحلو لمبشرى النصارى بل ولكتاب عرب(٢) منـهم يودون أن يظهروا غير متعصبين تعصباً أعمى وغير مغرضين من تكرار القول بقوة تأثير النصارى في المسلمين وأثر النصرانية كدين في مدنية وحضارة بلاد الشام والعراق ومصر حتى بعد اعتناقـهم الإسلام بمن فيهم أجيال عديدة، وضنهم مع ذلك أن يجعلوا للإسلام والمسلمين والمبادئ القرآنية أثـراً ما في الحضارة التي صارت عليها هذه البلاد، حتى بعد أن مضى على السلطان الإسـلامي منـها أجيال عديدة، ثم من الإصرار على وصف رجل أو امرأة بأنه نصراني قديم أو أنه يسـتمد مظـهره ودوره وروحه وسلوكه ومدنيته من نصرانيته ولو أنه صار مسلماً راسـخاً وقضـى فـي إسـلامه أضعاف السنين التي قضاها نصرانياً وغدا كيانه قائماً بالإسلام، حتى ولو كان عربياً أعرابياً من بني كلب أو تغلب ولا ندري لماذا لا يعقل أن ينطبع هؤلاء بالطابع الإسلامي ويتأثروا به وأنهم لا بد مـن أن يكونوا منطبعين دوماً بالطابع النصراني وطابعين به الإسلام، ثم لا ندري لماذا يحـاول أولئـك الكتاب العرب خاصة تهوين هذا التراث العظيم والبناء الباذخ، وهم يعرفون أنهم إنما يحاولون عبثـاً لا جدوى فيه.

تطور سيرة النبي والتنزيل القرآني:

والمناسبة تسمح كذلك بتنبيه واستطراد آخر. فقد حلا للمستشـرقين والمبشـرين أن يسـتعملوا تعبيراً عجيباً في معرض الإشارة إلى تطور السيرة النبوية في العهد المدني، فيقولون إن النبي ﷺ في هذا العهد انقلب من نبي إلى حاكم أو صار سلطاناً أكثر من نبياً أو ما في معناه، وقد اخـذ بعضـهم بعض ما روته الروايات أو ما تبادر لهم أنهم فهموه من عباراتها أو من عبارات القرآن فـي صـدد بعض أحداث السيرة النبوية الشخصية والعامة في العهد المذكور وسيلة للطعن والغمز، والقـول إن النبي قد نقض المبادئ التي بشر بها ودعا إليها في مكة وخالفها!

---

(١) في كتاب التاريخ التبشير والدعوة الإسلامية لأرنولد تقريرات وشواهد كثيرة على ما جاء في هذا البحـث، ومثل هذه الشواهد مثبتة في كتب التاريخ الإسلامي أيضاً.

(٢) فيليب حتي والآباء اليسوعيون في كتبهم العربية والأفرنجية.

http://kotob.has.it

أما أن السيرة النبوية فى العهد المدنى قد تطورت، فهذا مالافيه شك وفى القرآن شواهد حاسمة عليه، غير أن هذا لا يقتضى أن يكون النبى قد انقلب إلى حاكم أو صار سلطانا أكثر منه نبياً. لأن فى القول تحكماً فى تعيين مدى "النبي" ومهمته لا يستند إلى دليل راهن، كما أن القول بأن النبى ﷺ قد نقض المبادئ التى بشر بها فى مكة وخالفها خطأ فاحش لا يستند إلى حق أو شبهة من حق. والقرآن هو الحكم الحاسم والقول الفاصل فى هذا وذاك، لأنه من جهة احتوى صوراً للسيرة النبوية فى مختلف أدوارها وعهديها. فعدم النفوذ إلى مدى الآيات والفصول القرآنية، أو عدم الإحاطة بها لا يمكن أن يغير حقيقة ما احتواه من هذا وذاك بطبيعة الحال، كما أنه إذا كان هناك روايات متعارضة مع هذه المحتويات فإنها تكون مدسوسة أو محرفة من دون ريب. والمماراة فى ذلك مكابرة تنشأ عن الغرض وسوء النية والقصد حتماً.

ولقد عين القرآن المكى مهمة النبى الرسول ﷺ وهى الدعوة إلى دين الله الحق، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وإحلال الطيبات وتحريم الخبائث، ورفع التكاليف الشديدة السابقة التى تقيد البشر وتغل أيديهم ونشاطهم، وتبشير الذين يتبعونه ويطيعونه ويستجيبون إلى دعوته بسعادتى الدنيا والآخرة، وإنذار الضالين المنحرفين بشقاء الدنيا والآخرة، وبيان الهدى من الضلال والحق من الباطل والحلال من الحرام، ومحاربة الشرك بكل معانيه، والأمر بمختلف المكارم الأخلاقية الشخصية والاجتماعية والإنسانية، والنهى عن مختلف الآثام والمنكرات الشخصية والاجتماعية والإنسانية، على أساس الحرية والمساواة والتسامح والتعاون والتواد والأخوة والحق والعدل والإحسان ودفع البغى والعدوان ومقابلتهما بالمثل دفاعاً وضمانة لاحترام الناس حقوق بعضهم، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة إلا مع الظالمين، وعلى أساس صلة النبى والقرآن بالوحى، ثم على أساس طبيعة النبى البشرية، والاتساق مع العقل والمنطق والمصلحة وطبائع الأمور وحقائق الأشياء، وقد وعده الله هو والمسلمين معه بالنصر وأمرهم بالصبر إلى أن يأتى أمر الله، فينصر رسوله والذين آمنوا، وكان حقاً عليه نصر المؤمنين، مما هو مثبوت فى مختلف الفصول والسور المكية.

فإذا أمعن المرء النظر فى القرآن المدنى وأخذه كمجموعة يتم بعضها بعضاً، فإنه لا يجد مندوحة عن التسليم بأنه قد ظل فى حدود ما رسمه القرآن المكى لمهمة النبى والدعوة النبوية ومبادئها وأسسها وتوجيهاتها، ويرى دلائل ذلك فى صريح الآيات ومراميها وتلقيناتها وروحها، فنواة كل ما ورد فيه من تشريع وأوامر ونواه وتلقين وتوجيه موجودة فى القرآن المكى، وليس مما يصح فى عقل عاقل وإنصاف منصف أن يكون النبى الذى بلغ القرآن والذى قام الإيمان بنبوته وتنزيله

http://kotob.has.it

واستغراقه فى مهمته العظمى وتخلقه بأخلاق القرآن، قد خالف فى مختلف أدوار سيرته بأقواله أو أفعاله أو أوامره أو نواهيه أو توجيهاته النصوص والتلقينات والمبادئ القرآنية.

نقول هذا ونحن نعرف أن القائلين يذكرون فيما يذكرون على سبيل التدليل ما كان من تبدل موقف القرآن والنبى من اليهود قولاً وفعلاً، ومن الدعوة إلى قتال المشركين كافة ومطلقا وعدم قبول غير الإسلام منهم، ومن الأمر بقتال الكتابيين عامة حتى يسلموا أو يعطوا الجزية، وما وهموه من مناقضة بين هذا وبين الحرية الدينية التى قررها القرآن المكى، ومن اقتران الدعوة إلى الجهاد بالإغراء بالغنائم، ومن ظهور النبى فى مظهر ذى السلطان السياسى والحربى والقضائى والمالي والتشريعى، وما وهموه من مناقضة بين هذا وبين مهمة "النبى" وما قرره القرآن المكى من أنه لا يطلب أجراً وليس هو مسيطراً على الناس ولا جباراً ولا وكيلاً ولا مسئولاً، وليس هو إلا نذيراً وبشيراً وداعياً إلى الحق. فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها، ومن القائلين من ضاق أفقه ونظره وخلط مع هذا زوجات النبى وحياته الخاصة أيضاً.

غير أن إنعام النظر فى الإنصاف والإحاطة يظهر الحقيقة ساطعة وهى أن ما كان من تطور فى السيرة النبوية المدنية وفى المرامى القرآنية المدنية ليس هو تطوراً فى معنى الانحراف عن الأصل المكى سيرة وقرآنا، وإنما هو فى حدود هذا الأصل ونطاقه. فالقرآن المكى وإن كان دعا إلى ما دعا إليه ونهى عما نهى عنه بأسلوب الحث والتحريض والترغيب والترهيب والتحسين والتقبيح والتقرير والتبليغ، فإنه انطوى على نواة الأمر والنهى والتشريع أيضا، كما نرى فى الآيات التالية مثلاً :

١- ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾.

(الأنعام : ١٥١-١٥٢)

٢- ﴿قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لاتعلمون﴾[1].

(الأعراف : ٣١)

---

[1] ومن هذا القبيل آيات الإسراء ٣٢-٣٩.

http://kotob.has.it

٢- ﴿قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لاتعلمون﴾[1].

(الأعراف : ٣١)

فإذا تطور هذا إلى أسلوب التشريع الحاسم فى العهد المدنى فإنه إنما كان تطوراً تطبيقياً ليس فيه شيء من الانحراف والغرابة، كما أن تمثل قوة التشريع والحكم والقضاء والقيادة والزعامة فى شخص النبي عليه السلام هو نتيجة طبيعية لهذا التطور التطبيقى، وليس من مسوغ للقول إن طبيعة مهمة النبوة لا تتحمله.

وكل ما كان من تبدل فى القرآن وموقف النبى إزاء اليهود والدعوة إلى قتال المشركين والأمر بقتال الكتابيين لم يخرج فى أصله عن المبادئ القرآنية المكية، ويجد الذى يمعن النظر فى الفصول القرآنية المكية والمدنية دلائل حاسمة على ذلك، فالقرآن المكى قرر الحرية الدينية والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكنه قرر كذلك حق المسلمين فى الدفاع والانتصار من البغى، وأوجب الوقوف من الظالم موقف الشدة بالمقابلة، كما ترى فى هذه الآيات :

﴿فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم﴾.

(الشورى : ٣٤-٤١)

والقرآن المدنى إنما ثبت هذه التقريرات فى صيغة الأمر والتشريع وحسب وأمر بالتزام العدل التام مع الأعداء والوفاء بعهد المعاهدين وبترك المسالمين والحياديين وشأنهم، وبل بتشجيع البر بهم والتواد معهم، وبإنكار كون الغنائم غاية من غايات الحرب الإسلامية، وبالجنوح للسلم إذا جنح العدو لها، كما ترى فى الآيات التالية هى قليل من كثير فى هذا الباب :

بسم الله الرحمن الرحيم

١- ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم

---

[1] ومن هذا القبيل آيات الإسراء ٣٢-٣٩.

http://kotob.has.it

فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين. فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾.
(البقرة: ١٨٩-١٩٢)

٢- ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاؤوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً.."﴾ (النساء ٩٠)

٣- ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا. إن الله كان بما تعملون خبيرا﴾. (النساء :٩٤)

٤-﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب..﴾

(المائدة : ٢)

٥- ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون..﴾

(المائدة : ٨)

٦- ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾.

(الأنفال : ٦١)

٧- ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين﴾. (التوبة : ٤)

٨- ﴿إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين﴾.

(التوبة : ٧)

٩- ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾.

(الممتحنة: ٨-٩)

http://kotob.has.it

ولا يمكن فى حال أن يكون النبى ﷺ قد ناقض المبادئ القرآنية التى بلغها، وروايات السيرة الوثيقة تؤيد أن ما كان من قتال بين المسلمين والمشركين العرب وغيرهم فى حياة النبى إنما كان دفاعاً وانتصاراً من الظلم والعدوان وتوطيداً لحرية الدعوة إلى الإسلام، وإنه لم يكن بسبيل إكراه الناس على الإسلام أو بدء أحد بالعدوان والإكراه. ولا يقدح فى هذا أن يكون كثير من العرب قد أسلموا بعد أن قوى المسلمون وانتصروا على أعدائهم، وفتح الله عليهم مما يمكن أن يكون طبيعياً لا شذوذ فيه طالما لم يكن فيه إجبار وإكراه. ولعل ما كان بين النبى عليه السلام وبين فئات المشركين من معاهدات فى مختلف أدوار العهد المدنى أكبر دليل على ما نحن بسبيل تقريره. ولعل التمعن فى نص صورة النصر يجلى هذه الحقيقة كل التجلية، فإن فى تعبير ﴿يدخلون فى دين الله أفواجاً﴾ لوصفاً رائعاً للإقبال التطوعى على الإسلام مهما كان ذلك نتيجة من نتائج الفتح والنصر والتغلب على الأعداء البغاة الصادين عن دين الله وخضد شوكتهم، بل إن هذا يحمل على القول إن عدم إقبال الناس على الإسلام قد كان أثراً لنشاط هؤلاء الأعداء ومكرهم ومؤامراتهم وحسب. وهو ما تؤيده نصوص قرآنية عديدة، أيضاً كما ترى فى الآيات التالية مثلاً:

١- ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب﴾.

(البقرة : ١٦٦)

٢- ﴿وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء﴾. (إبراهيم : ٢١)

٣- ﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾. (سبأ : ٣٣)

كذلك يجد الذى ينعم النظر فى النصوص القرآنية أن قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية محدود بحد الذين لا يدينون بدين الحق ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، وأن هؤلاء ليسوا جميع أهل الكتاب وإنما فريق منهم، ومعلل كذلك بأن زعماءهم الدينيين كانوا يصدون عن سبيل الله لضمان منافعهم المادية كما ترى فى الآيات التالية :

١- ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾.

(التوبة : ٢٩)

٢- ﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلوا أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله﴾ (التوبة : ٣٣)

http://kotob.has.it

ثم يجد أن اليهود وغيرهم تمتعوا بكل حرية الجدل والحجاج والإنكار والجحود، بل بث الشكوك والريب فى صدور المسلمين وغيرهم، بل والوقوف موقف السخرية والتحدى مع احتفاظهم بدينهم وطقوسهم وعهودهم، وإن موقف العداء الحربى ضد العرب منهم إنما كان مقابلة على ما بدا منهم من صد وأذى وطعن وإخراج وفتنة وظلم ومؤامرة وبغى.

وإن هذا الموقف من اليهود لم يكن إلا بعد أن بدأ منهم الصد والطعن والأذى والغدر والنكث والتآمر مع الأعداء المحاربين ومظاهرتهم فى الحرب، مما يعد فى القرآن قوياً صريحاً واضحاً[1] وبالتالى إن ما كان من أحداث بين النبي واليهود لم يخرج عن نطاق المبادئ القرآنية المكية والمدنية. أما ما كان من غزوات مشارف الشام التى يقطنها نصارى العرب فى زمن النبى كدومة الجندل وبنى كلب ومؤتة وتبوك فالروايات كثيرة على أنها لم تقع إلا مقابلة على عدوان هؤلاء على قوافل المسلمين، والحملات التى جهزها أبو بكر ليست إلا امتداداً لها ولحركات حروب الردة.

والقول بأن الجهاد اقترن بالإغراء بالغنائم مهما كان فيه شيء من الحقيقة، إلا أنه طبيعى لا شذوذ فيه ما دام الجهاد دفاعياً وفى نطاق الانتصار من الظلم، على أن فى إطلاق القول توسعاً لا ينطبق على نصوص القرآن، فأكثر آيات الجهاد اقترنت ببيان واجب الجهاد وضرورته وثوابه عند الله. والقليل الذى اقترن بوعد الفتح والغنائم اقترن أيضاً ببيان الواجب والضرورة وحسن الثواب عند الله، وإن من الحق أن يقرر أن ذلك على كل حال قد جاء فى القرآن وظل ثانوياً ولم يكن رئيسياً أصلاً[1] وعلاوة على هذا فإن الحث على الإنفاق فى سبيل الله قد شغل حيزاً غير يسير من القرآن وجاء بأساليب قوية نافذة.

---

[1] فى سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة آيات وفصول عديدة وطويلة فيما كان لليهود من مواقف حجاجية وتشكيلية وتآمرية كما أن فى سور الأنفال والحشر والأحزاب آيات صريحة بمواقف النكث والعداء والخيانة التى وقفوها فاستحقوا عليها التنكيل مما يستغرق نقله حيزاً واسعاً اقرأ مثلاً آيات البقرة ٤٠-٤١ و ٧٥-٧٦ و ١٠٦ و ١٣٩ و١٤٧و آل عمران ٦٥-١٢٠ والنساء ٤٤-٥٦ و ١٥٣-١٦٥ والمائدة ٤١-٤٢ و ٥٧-٧٦ و٧٢ والأنفال ٥٥-٦٣ والأحزاب ٢٦-٢٧ والحشر ١-٤ .

[1] اقرأ مثلاً الآيات التالية البقرة ١٥٤ إلى ١٥٧ و١٩٠ إلى ١٩٤ و ٢١٦ إلى ٢١٨ وآل عمران ١٣٩ إلى ١٤٨ و ١٦٩ إلى ١٧٩ و ١٩٥ والنساء ٧٢ إلى ٧٦ و ٩٤ إلى ١٠٠ والمائدة ٣٣ إلى ٣٥ و٥١ إلى ٦٦ والأنفال ١ إلى ٨ و ٣٨ إلى ٤٧ و٥٥ إلى ٧١ والتوبة ١ إلى ١٦ و ٢٠ إلى ٢٢و٢٩ إلى ٣٥و٨٩ إلى ١٠٠ و١١١ و ١١٨ إلى ١٣٢ والحج ٣٩ إلى ٤١ والأحزاب ٢٢ إلى ٢٧ و١٠ إلى ١٤ والصف ١٠ إلى ١٣.

http://kotob.has.it

وهذا مما يكون قرينة قوية على الهدف الذى استهدف بالجهاد، وهو توطيد الأمن وحرية الدعوة ودفع البغى والعدوان وإيجاب الإنفاق عليه على المسلمين أكثر من إغرائهم بالمغانم من ورائه[١].

أما حياة النبى ﷺ الشخصية وزوجاته فإنها من جهة متسقة مع طبيعة النبى ﷺ البشرية التى قررها القرآن، ومن جهة فإن فى الفصول القرآنية ما يزيل ما وقع من الوهم فى مشكلاتها وما يدل على الخطأ فى فهمها وروايتها. وفى آيات تخيير نساء النبي فى سورة الأحزاب ٢٨-٣٤ ما فيه كل الاتساق مع عظمة خلق النبي واستغراقه فى الله ومهمته العظمى وما كان يختاره من شظف العيش فى حياته البيتية الخاصة. هذا مع القول إن الأخذ والرد فى هذه الناحية ليس إلا ظاهرة من ظواهر التمحل والهوى وضيق الأفق والنظر والتعامى عن الجوهر واللباب[٢].

القرآن والعرب فى عهد النبى:

والناظر فى القرآن يجد أن موضوع (القرآن) وصلته بالوحى الربانى كان موضوعاً رئيسياً بل من أهم المواضيع الجدلية بين النبي وبين زعماء الكفار ونبهائهم. وقد نسبوا إلى النبى فى سياق ذلك أنواع النسب فقالوا إنه شاعر وإنه كاهن وإنه ساحر. وإنه كاذب وإنه مفتر وإنه يقتبس ما يتلوه من أساطير الأولين وكتبهم وقصصهم، وإن هناك من يعلمه ويساعده فى ما ينظمه ويتلوه، وإنه مسحور وإنه مجنون وإن الذين يوحون إليه به هم الشياطين والجن على ما كانوا يعتقدون ذلك فى شأن السحرة والكهان والشعراء، وتآمروا سراً وعلناً على التشويش عليه واللغو عند تلاوته، والإعراض والصد عن سماعه، واستغلوا بعض الظروف[٣] فى صدده فيحملون بعض ضعفاء الإيمان على الارتداد إلخ، ويجد أن هذا الموضوع قد شغل حيزاً غير يسير من سور القرآن وخاصة المكى منه[٤]، وإن القرآن قد حكى عنهم ما قالوه وفعلوه بكل ما فى ذلك من جرأة وصراحة وبذاءة وسوء

---

(١) اقرأ الفصل الرابع فى سورة البقرة ٢٦٠ إلى ٢٦٤ وكذلك آيات البقرة ١٩٥ و٢٤٥ و٢٥٤ والحديد ١٠ إلى ١١ و١٨ مثلاً.

(٢) فى مختلف فصول كتابنا سيرة الرسول الذى صدر عام ١٣٦٨-١٩٤٨ شروح وبيانات وافية مؤيدة بالأسانيد القرآنية فى صدد جميع ما تناوله هذا البحث وخاصة فى فصول اليهود والنصارى والجهاد والتشريع فى الجزء الثانى.

(٣) اقرأ ايات النحل ٩٨-١١٠ وكتابنا سيرة الرسول ج ص ٢٤١-٢٤٤.

(٤) الآيات كثيرة جدا ومثبتة فى سور القرآن عامة والمكي منها خاصة ومع ذلك فإننا نشير إلى بعضها للرجوع إليه والتمعن فيه : البقرة ٢١-٢٥ و ٤٠-٤٦ و/ ٨٩-٩١ والنساء ١٦٣-١٧٠ والأنعام ٦٨-٦٩ و ١٢٤ والأنفال ٣١-٣٢ ويونس ١٥-١٧ و٣٦-٤٠ وهود ١٣-١٤ والحجر ٦-١٥ والإسراء ٤٥-٤٨ و ٨٩-٩٣ والكهف ١-٦

http://kotob.has.it

أدب واتهام ومكابرة، ورد عليهم ردوداً قاطعة قوية عنيفة كانت تتلى عليهم على ملأ الناس، وتقذف في وجوه الجاحدين والمعاندين والمكذبين والصادين والمحاجين مسفهة تارة ومنددة تارة ومتحدية تارة ومبينة للأسباب الحقيقية التي تمنعهم من الإيمان والتصديق تارة، كالاستكبار والتعاظم والاعتداد بالمال والجاه والعصبية، وخشية فقدان المنافع والمصالح وعدوان الخارج وقطيعة الناس وانفضاض الجمهور عنهم الخ، ثم ظل النبي بتأييد الله ووحيه وقوته وتثبيته لا يزداد إلا استغراقاً في مهمته وفناء في ربه، واستمراراً في الدعوة إليه وإشفاقاً على قومه لينقذهم، ثم لينقذ البشر جميعاً من الضلال ويخرجهم من الظلمات إلى النور، إلى أن يسر الله أمر الهجرة إلى المدينة المنورة، وأيد نبيه بنصره وحقق له وعده فنصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب، وأهلك أكثر الزعماء الأقوياء المستكبرين الصادين الذين قادوا حملة المعارضة وتولوا كبرها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً وصارت كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى. فالقرآن يمثل فيما يمثل هذه القوة الروحانية العظمى التي كانت وما زالت الحاسمة في الموقف والمثيرة للإعجاب والإعظام والإجلال.

ومن الجدير بالذكر أن كل ما يمكن أن يقوله كافر جاحد عنيد شديد العداء عن القرآن والنبي قد قاله كفار العرب في حضرته مباشرة، وبكل عناد وقوة ولجاجة، وإن النبي قد رد عليه بلسان القرآن بكل قوة وعنف وقطعية وإفحام، وصمد له صموداً رائعاً عظيماً. وكان ذلك على مرأى ومسمع من مختلف الفئات، ثم استمر في تبليغ الدعوة إلى الله ومكارم الأخلاق وأسباب سعادة الدارين. وفي كل هذا دليل قوي أخاذ على ما كان من عمق شعوره عليه السلام بصدق رسالته وصدق صلته بالوحي الرباني وإدراكه التام لمدى مهمته العظمى واستغراقه فيها. وأن المرء ليشعر بهذا شعوراً يملك عليه نفسه إذا كان حسن النية متجرداً عن الهوى إذ يقرأ في القرآن آيات النساء ١٦٧ والأنعام ٩٣ والشورى ٦٤ والأحقاف ٨ والحاقة ٣٨-٥٢ التي نقلناها قبل، ويقرأ منها آيات يونس هذه :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾

والأنبياء ٢-١٠ والمؤمنون ٦٦-٦٧ والفرقان ١-٦ و ٣٠-٣٤ والشعراء ١٩٢-٢٢٧ والنمل ١-٦ والعنكبوت ٤٥-٥٢ والسجدة ١-٣ وسبأ ١-٩ و ٣١-٣٥ و٤٣-٤٨ والحج ٧٢-٧٨ وفاطر ٢٩-٤٣ ويس ١-١٢ و ٦٩-٧٠ وفصلت ٢٦-٤٤ إلى ٤٦.

http://kotob.has.it

(١٥-١٦)

ومن العجيب أن يظل المغرضون من المبشرين والمستشرقين يأخذون ويردون ويعيدون ويبدئون فيما لم يقصر به زعماء كفار العرب مع النبى ﷺ مباشرة، وبعد أن احتوى القرآن ما احتواه فى صدر ذلك من آيات رائعة وردود قوية وتحد مفحم وصميمية نافذة مستولية، وأن يتمسكوا كما تمسك أولئك بالقشور دون اللباب وبالعرض دون الجوهر، وأن لا يتورعوا عن البذاءة والغثاثة والصغار والمراء بالباطل، وأن لا يكون تقدم الأدب الإنسانى، والحضارة الإنسانية والتفكير الإنسانى ذا أثر رادع فى مكابرة المكابرين ومماراة الممترين، وخروجهم فيهما عن نطاق الأدب والحق والمنطق.

• • •

http://kotob.has.it

الفصل الثاني

جمع القرآن وتدوينه وقراءاته ورسم المصحف وتنظيماته

مجموعات من الروايات والأقوال في تدوين القرآن :

أما تدوين القرآن وجمعه وترتيبه، فإن الناظر في كتب علماء القرآن ورواة الحديث عنهما يجد أقوالاً وروايات كثيرة حول هذا الموضوع مختلفة اختلافاً غير يسير، ومتعارضة أحياناً.

فأولاً : أن هناك أقوالاً وروايات تفيد أن النبي ﷺ توفي ولم يكن القرآن قد جمع في شيء، وأن جمعه وترتيبه إنما تما بعد وفاته، وأن ما كان يدون منه في حياته كان يدون على الأكثر على الوسائل البدائية مثل أضلاع النخيل، ورقائق الحجارة وأكتاف العظام وقطع الأنيم والنسيج، وأن المدونات منه على هذه المواد لم تكن مضبوطة ولا مجموعة، وكانت على الأكثر متفرقة عند المسلمين، وأن المعول في القرآن، إنما كان على القراء وصدور الرجال :

١- فقد ورد حديث منسوب إلى زيد بن ثابت برواية الزهري جاء فيه أن النبي قبض ولم يكن القرآن قد جمع بشيء. ولقد علق الخطابي على ما جاء في إتقان السيوطي على هذا الحديث بقوله إنما لم يجمع النبي القرآن لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه وآياته. فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك بوفاء وعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة، فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر. ثم قال: وأما ما أخرجه مسلم من حديث أبي مسلم " لا تكتبوا عني غير القرآن" فلا ينافي ذلك لأن الكلام في كتابة مخصوصة على صفة مخصوصة. وقد كان القرآن كله كتب في عهد رسول الله لكن غير مجموع في موضع واحد ولا مرتب السور.

٢- وقد روى البخاري حديثاً عن زيد بن ثابت عن جمع القرآن بعد وفاة النبي هذا نصه : قال زيد: أرسل إليّ أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده فقال أبو بكر إن عمر أتاني فقال إن القتل استحر يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن. وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن فقلت لعمر: كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ قال عمر: هو والله خير. فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري بذلك ورأيت الذي رأى عمر. قال أبو بكر إنك شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلفوني في نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على ما أمراني به من جمع القرآن. قلت: فكيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله. قال: هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح صدر أبي بكر وعمر. فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور

http://kotob.has.it

الرجال. ووجدت سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع غيره. فكانت الصحف عند أبى بكر ثم عند عمر ثم عند حفصة.

٣- وقد روى ابن شهاب حديثاً فيه أن أبا بكر قال بعد أن تم جمع القرآن التمسوا لـــه اسـماً فقـال بعضهم السفر وقال بعضهم المصحف فإن الحبشة يسمونه المصحف. فسماه أبو بكر المصحف. وقـد أورد المظفري رواية أخرى جاء فيها أن أبا بكر لما قال سموه قال بعضهم سموه إنجيلاً فكرهوه فقال ابن مسعود رأيت بالحبشة كتاباً يدعونه المصحف[1] فسموه به. هذا فى حين أن هناك حديثاً بخاريـاً آخر فى نفس السياق يذكر أن المجموعة كانت تسمى "الصحف". وعلى كل حـال فحديـث تسـمية المجموعة بالمصحف يفيد أن هذه التسمية التى استفاضت حتى صارت العلم على مجموعة القـرآن استعملت لأول مرة فى جمع عهد أبى بكر.

٤- وأخراج أبو داود حديثاً آخر جاء فيه أن عمر أعلن الناس من كان تلقى من رسول الله شيئاً من القرآن فليأت به وكانوا يكتبون ذلك فى الصحف والألواح والعسب. وكان لا يقبل من أحد شيء حتى يشهد شاهدان.

٥- وروى ابن شهاب حديثاً آخر جاء فيه : إنه لما أصيب المسلمون باليمامة فزع أبو بكر وخاف أن يذهب من القرآن طائفة فأقبل الناس بما معهم حتى جمع على عهد أبى بكر فى الورق. فكان أبو بكر أول من جمع القرآن.

٦- وروى الليث ابن سعد حديثاً جاء فيه أن عمر أتى بآية الرجم فلم يكتبها زيد لأنه كان وحده.

٧- وروى عمارة بن غزبة حديثاً جاء فيه أن زيداً بن ثابت قال أمرنى أبو بكر فكتبته فى قطع الأديم والعسب. فلما هلك أبو بكر وكان عمر، كتبت ذلك فى صحيفة واحدة.

٨- وروى عكرمة أن عليا بن أبى طالب قعد فى بيته بعد بيعة أبى بكر فقيل لأبى بكر كره بيعتـك. فأرسل إليه فقال: أكرهت بيعتى قال لا والله قال: ما أقعدك عني. قال رأيت كتاب الله يزاد فيه فحدثت نفسى، أن لا ألبس ردائى إلا لصلاة حتى أجمعه. قال له أبو بكر: نعم ما رأيت.

---

[1] القول بأنه اقترح أن تسمى المجموعة إنجيلا محل نظر فى ذاته لأن أصحاب رسول الله يعرفون أن هـذه التسمية خاصة بكتاب عيسى والنصارى ولقد قيل إن كلمة "المصحف" دخيلة ونحن نرى ذلك غريبـاً لأن معنى هذا أنها لم تكن معروفة الأصل والاشتقاق والمعنى عند العرب فى حين أن الكلمة على مـا هـو الأرجح إن لم نقل على الجزم متصلة بكلمة مصحف وصحيفة. وكلمة صحف وردت أكثر من مرة فـى القرآن حيث وردت فى سور الأعلى والنجم وعبس والقيامة.

http://kotob.has.it

٩- وأخرج ابن سيرين حديثاً جاء فيه أن عليا لما مات النبى قال: آليت أن لا آخذ على ردائى حتى أجمع القرآن. فجمعه وإنه كتب فى مصحفه الناسخ والمنسوخ.

١٠- وأخرج أبو داود حديثاً عن على جاء فيه أعظم الناس فى المصاحف أجرا أبو بكر رحمة الله على أبى بكر.. هو أول من جمع كتاب الله.

١١- وأورد ابن اشته فى كتاب المصاحف حديثاً جاء فيه أن أول من جمع مصحفاً بعد وفاة النبى هو سالم مولى حذيفة.

١٢ وأورد السيوطي فى الإتقان أن ابن فارس وهو من علماء القرآن قال إن تأليف السور كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين قد تولته الصحابة.

١٣- وقال الحاكم إن جمع القرآن الثالث هو ترتيب السور وقد تم ذلك فى زمن عثمان.

ثانياً : إن هناك روايات كثيرة عن وجود اختلاف فى ترتيب مصاحف بعض الصحابة، وعن كلمات زائدة كتبت فى بعض المصاحف ولم تكتب فى المصحف المتداول وعن آيات كانت تقرأ ولم تكتب كذلك هى هذا المصحف مما يفيد أن النبى توفى ولم يكن القرآن قد جمع ورتب أيضاً.

١- فمن الروايات التى أوردها السيوطى نقلاً عن كتب علماء القرآن والمصاحف أنه كان لكل من أبى بن كعب وعبد الله بن مسعود وهما صحابيان وعالمان فى القرآن[1] مصحف وأن ترتيب سور كل منهما مغاير لترتيب الآخر من جهة ومغاير لترتيب سور المصحف العثمانى المتداول من جهة أخرى، وأن فى أحدهما زيادة وفى أحدهما نقصاً وأن المصحفين ظلا موجودين يقرآن إلى ما بعد عثمان بمدة طويلة. وقد نقل السيوطي كلاً من الترتيبين عن كتاب المصاحف لابن اشته وفى مصحف أبىّ سورتان صغيرتان زائدتان عن سور المصحف واحدة اسمها سورة الحفد وهذا نصها : "اللهم إياك نعبد. ولك نصلى ونسجد. وإليك نسعى ونحفد نخشى عذابك. ونرجو رحمتك. إن عذابك بالكفار ملحق" والثانية اسمها سورة الخلع وهذا نصها : "اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثنى عليك الخير ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك" وقد أخرج الطبرانى بسند صحيح عن أبى إسحاق على ما ذكره السيوطى أن أمية بن خالد أم الناس فى خراسان فقرأ بسورتى الحفد والخلع. وهذا كان بعد عثمان بمدة طويلة. ومما أورده السيوطى أن سورتى الفيل وقريش فى مصحف أبىّ سورة واحدة، وأن سورتى الضحى والانشراح فى مصاحف بعض الصحابة سورة واحدة كذلك. أما مصحف ابن

---

[1] فى حديث عن عبد الله بن جابر أورده السيوطى أنه سمع النبى يقول خذوا القرآن عن أربعة عبد الله بن مسعود ومعاذ وسالم وأبى وهناك أحاديث أخرى فى هذا المعنى فيها بعض الخلاف ولكن اسمى عبد الله وأبى موجودان فيها.

http://kotob.has.it

مسعود فليس فيه على ما رواه أولئك الرواة سور الفاتحة والمعوذتين، ومن المروى كذلك أنه كـان يذكر المعوذتين ويقول إنهما ليستا من كتاب الله.

٢- وروى عبد الله بن زبير الغافقى أن عبد الملك بن مروان قال له لقد علمت ما حملك على حب أبى تراب[١] إلا إنك أعرابى جاف. فقال له والله لقد جمعت القرآن[٢] من قبل أن يجتمع أبواك. ولقد علمنى منه على ابن أبى طالب سورتين علمهما إياهما رسول الله ﷺ ما علمتهما أنت ولا أبوك وهما سورتا الخلع والحفد.

٣- وروى البيهقى أن عمر بن الخطاب قنت بعد الركوع فقال بسم الله الرحمن الرحيم ثم سرد سورتى الحفد والخلع واستدل على أنهما سورتان من تقديم البسملة عليهما.

٤- وأورد السيوطى حديثاً عن عائشة برواية عروة بن الزبير جاء فيه أن سورة الأحزاب كانت تقرأ فى زمن النبى ﷺ مائتى آية. فلما كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها إلا ما هو الآن.

٥- وأورد كذلك حديثاً عن أبى بن كعب أنه سأل رزاً بن حبيش كم تعد سورة الأحزاب قال اثنين وسبعين أو ثلاثاً وسبعين. قال إن كانت لتعدل سورة البقرة وإن كنا لنقرأ فيها آية الرجم قال ما آية الرجم قال : "إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم".

٦- وأورد عن أمامة بن سهل قال: لقد أقر أنا رسول الله أية الرجم الشيخ والشيخة فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة.

٧- وأورد حديثاً رواه مسلم عن ابن عباس جاء فيه أن عمر بن الخطاب خطب الناس قائلاً: لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل لا نجد الرجم فى كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله. إن الله بعث محمداً بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها وعقلناها ورجم رسول الله فرجمنا معه ألا وإن الرجم حق على من زنى وقد أحصن إذا قامت البينة أو كان الحمل أو الاعتراف.

٨- وروى عن الليث بن سعد أن عمر أتى بآية الرجم فلم يكتبها زيد لأنه كان وحده.

٩- وروى عن حميدة بنت أبى أويس قالت: قرأ على أبى وهو ابن ثمانين فى مصحف عائشة (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما وعلى الذين يصلون فى الصفوف الأولى.) وذلك قبل أن يغير عثمان المصاحف.

---

[١] كان النبى ﷺ قال لعلى مرة أبا تراب من قبيل الداعبة على ما روى فصار خصومه ينعتونه بهذا اللقب على سبيل التنقص.

[٢] كانوا يعنون بجمع القرآن حفظه غيباً أحياناً.

http://kotob.has.it

١٠- وروى عن أبى بن كعب بإخراج الحاكم أن رسول الله ﷺ قال لى إن الله أمرنى أن أقرأ عليك القرآن فقرأ " لم يكن الذين كفروا.... إلى آخر السورة ومن جملة ما قرأ " **لو أن ابن آدم سأل واديا من مال فأعطيه سأله ثانياً وإن سأل ثانياً فأعطيه سأله ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب. وإن ذات الدين عند الله الحنيفية غير اليهودية ولا النصرانية. ومن يعمل خيراً فلن يكفره".**

١١- وروى عن أبى واقد الليثى أن رسول الله كان إذا أوحى إليه بشيء أتيناه فعلمنا ما أوحى إليه قال فجئت ذات يوم فقال: إن الله **يقول " إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة. ولو أن لابن آدم وادياً لأحب أن يكون إليه الثانى ولو كان إليه الثانى لأحب أن يكون الثالث. ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب. ويتوب الله على من تاب".**

١٢- وروى عن عدى بن عدى عن عمر قال : كنا نقرأ " **ولا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم" ثم قال لزيد بن ثابت: أكذلك قال: نعم.**

١٣- وروى عن أبى سفيان الكلاعى أن مسلمة بن مخلد الأنصارى قال لهم ذات يوم أخبرونى بآيتين فى القرآن لم يكتبا فى المصحف فلم يخبروه وعندهم أبو الكنود سعد بن مالك فقال ابن مسلمة هما " **إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ألا أبشروا أنتم المفلحون والذين آووهم ونصروهم وجادلوا عنهم القوم الذين غضب الله عليهم أولئك لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون".**

١٤- وروى المسور بن مجزمة أن عبد الرحمن بن عوف قال ألم نجد فى ما أنزل علينا " **جاهدوا كما جاهدتم أول مرة" فإنا لا نجدها. قال أسقطت فيما أسقط من القرآن.**

١٥- وروى عن ابن عمر : لا يقولن أحدكم أخذت القرآن كله وما يدريه ما كله. قد ذهب منه قرآن كثير. ولكن ليقل قد أخذت منه ما ظهر.

١٦- وروى عن أبى موسى الأشعرى : كنا نقرأ سورة نشبهها بإحدى المسبحات مما نسيناها غير أنى حفظت منها، **يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا ما لاتفعلون. فتكتب لكم شهادة فى أعناقكم فتسئلون عنها يوم القيامة.**

١٧- وأورد محمد صبيح فى كتاب القرآن (ص١٦٤) رواية لم يورد مصدرها عن سورة اسمها النورين يزعم بعض المستشرقين أن عثمان أسقطها من مصحفه وأنها مثبتة فى مصحف على بن أبى طالب وهذا نصها:

http://kotob.has.it

" يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالنورين. أنزلهما يتلوان عليكم آياتى ويحذرانكم عذاب يوم عظيم. نوران بعضهما من بعض وأنا السميع العليم إن الذين يوفون بعهد الله ورسوله فى آيات لهم جنات النعيم. والذين كفروا من بعد ما آمنوا ينقضهم ميثاقهم وما عاهدوا الرسول عليه يقذفون فى الجحيم ظلموا أنفسهم وعصوا ولى الرسول أولئك يسقون من حميم. إن الله الذى نور السماوات والأرض بما شاء واصطفى من الملائكة والرسل وجعل من المؤمنين أولئك من خلقه يفعل الله ما يشاء. لا إله إلا هو الرحمن الرحيم. قد مكر الذين من قبلهم برسلهم فأخذتهم بمكرى إن أخذى شديد أليم. يا أيها الرسول بلغ إنذارى فسوف يعلمون مثل الذين يوفون بعهدك إنى جزيتهم جنات النعيم. وإن علياً لمن المتقين. ولقد أرسلنا موسى وهرون بما استخلف فبغوا هرون فصبر جميل فاصبر فسوف يبلون. ولقد آتيناك الحكم كالذين من قبلك من المرسلين وجعلنا لك منهم وصيا لعلهم يرجعون. إن عليا قانتا بالليل ساجداً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين ظلموا وهم بعذابى يعلمون"

١٨- وقد ورد فى موطأ الإمام مالك عن أبى يونس مولى عائشة قال أمرتنى عائشة أن أكتب لها مصحفاً ثم قالت: إذا بلغت هذه الآية فآذنى حافظوا على الصلوات والصلاة والوسطى. فلما بلغتها أذنتها فأملت على " **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر.** ثم قالت: سمعتها من رسول الله. وفى الموطأ حديث عن عمر بن رافع عن حفصة أمرته أن يكتب لها مصحفاً ثم يتم الحديث بنفس الصيغة السابقة حرفياً.

١٩-وروى عن ابن عباس أنه كان يقرأ آية الكهف هكذا " **وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً" وآية البقرة هكذا " لا جناح عليكم أن تبتغوا فضلاً من ربكم فى المواسم"** وروى عن ابن الزبير أنه كان يقرأ آية آل عمران هكذا " **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ما أصابهم"** وروى عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقرأ آية آل عمران هكذا " **وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله من أجل ما جئتكم به"** ويقرأ آية النساء هكذا " **فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن"** ويقرأ آية الأحزاب هكذا " **النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم" ويقرأ آية المجادلة هكذا " ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم إذا أخذوا بالتناجى".**

٢٠- إن هناك روايات عديدة تفيد أن بعض الصحابة كانوا يقرأون كلمات بدل كلمات مثل " **إيمانهما"** بدلاً من " **إيديهما"** فى آية السرقة فى سورة المائدة و " **لا تجزى نسمة عن نسمة"** بدلاً من " **لا تجزى نفس عن نفس"** فى آية سورة البقرة و **"صفراء لذة للشاربين"** بدلاً من " **بيضاء لذة للشاربين"**

http://kotob.has.it

فى آية سورة الصافات و "إدراس وإدراسين" بدلاً من إلياس وإلياسين" فى آية سورة الصافات و "جاءت سكرة الحق بالموت بدلاً من " جاءت سكرة الموت بالحق" فى آية سورة ق و "صراط من أنعمت عليهم " بدلاً من صراط الذين أنعمت عليهم" فى سورة الفاتحة "الحى القيام" بدلاً من " الحى القيوم" فى آية سورة آل عمران و "للذين يقسمون" بدلاً من "للذين يؤلون" فى سورة البقرة و " مثقال نملة" بدلاً من " مثقال ذرة" فى سورة النساء و "اركعى واسجدى فى الساجدين" بدلاً من "واسجدى واركعى مع الراكعين" فى سورة آل عمران و " تزودوا وخير الزاد التقوى" بدلاً من و " تزودوا فإن خير الزاد التقوى" فى سورة البقرة و " أتموا الحج والعمرة إلى البيت" بدلاً من " وأتموا الحج والعمرة لله" فى سورة البقرة و "شاورهم فى بعض الأمر" بدلاً من "وشاورهم فى الأمر" فى سورة آل عمران إلخ.

٢١- ويصح أن تورد أحاديث نسخ المصاحف فى عهد عثمان فى هذا الباب. لأن فيها ما يفيد أن المسلمين كانوا يختلفون فى قراءة القرآن حتى أفزع اختلافهم عثمان وغيره من كبار الصحابة وبالتالى يفيد أن القرآن لم يكن فى كتابته ومصاحفه وصحفه المتداولة وفى قراءته محرراً بحيث يؤمن معه ذلك الخلاف :

١-فقد أورد البخارى حديثاً عن أنس بن مالك أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازل أهل الشام فى فتح أرمينية وأزربيجان فأفزع حذيفة اختلاقهم فى القراءة فقال لعثمان أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل إلى حفصة أن أرسلى إلينا الصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام فنسخوها فى المصاحف. وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم. ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وبعث إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق. قال ابن هشام وأخبرنى خارجة بن زيد سمع زيداً بن ثابت قال ففقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصارى ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه......﴾ فألحقناها فى سورتها فى المصحف.

٢- وقد روى حديث آخر عن أنس بن مالك أيضاً جاء فيه أن الناس اختلفوا فى القرآن على عهد عثمان حتى اقتتل الغلمان والمعلمون فبلغ ذلك عثمان فقال عندى تكذبون وتلحنون به فمن نأى عنى كان أشد تكذيباً ولحناً. يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً فاجتمعوا فكتبوا فكانوا إذا

http://kotob.has.it

اختلفوا وتدارأوا فى آية قالوا هذه اقرأها رسول الله فلانا فيرسل إليه وهو على رأس ثلاث من المدينة فيقال له كيف أقرأ لرسول الله آية كذا فيقول كذا وقد تركوا لها مكاناً.

٣- وقد أخرج أبو داود حديثاً وصف بأنه بسند صحيح عن سويد بن غفلة قال: قال لى على لا تقولوا فى عثمان إلا خيراً فوالله ما فعل الذى فعل فى المصاحف إلا على ملأ منا. قال: ما تقولون فى هذه القراءة فقد يلغنى أن بعضهم يقول إن قراءتى خير من قراءتك وهذا يكاد يكون كفراً. قلنا: ما ترى. قال: أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف. قلنا فنعم ما رأيت.

٤- وأخرج أبو داود حديثاً جاء فيه لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثنى عشر رجلاً من قريش والأنصار فبعثوا إلى الربعة التى فى بيت عمر فجىء بها.

ثالثاً : إلى جانب تلك الأحاديث والأقوال والروايات يوجد أحاديث وروايات وأقوال يستفاد منها أن القرآن كان يدون وترتب آياته وسوره فى حياة النبى ﷺ وبأمره، وأن ترتيب المصحف العثمانى متصل بعهد النبى وتوقيفه :

١- فقد أخرج الحاكم عن زيد بن ثابت حديثاً وصف بأنه بسند صحيح على شرط الشيخين جاء فيه " كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من القاع". وقد علق البيهقى على ذلك كما جاء في الإتقان بقوله يشبه أن يكون المراد به تأليف ما نزل من الآيات المفرقة فى سورها وجمعها فيها بإشارة النبى ﷺ. ويصح أن يستفاد من الحديث أنه كان يكتب ما ينزل به الوحى فى رقاع منفردة ثم تنقل هذه الرقاع إلى صحف معدة كالسجل فتلحق فصولها ببعضها وفق ما كان يشير به النبى ﷺ.

٢- وقد أخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائى وابن حيان والحاكم حديثاً عن ابن عباس جاء فيه قلت لعثمان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى وإلى براءة وهى من المئين[١] فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها فى السبع الطوال؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السور ذات العدد[٢] فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب له فيقول ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا[٣]. وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً كانت قضيتها شبيهة بقضيتها فظننت أنها منها وقبض رسول الله ولم يبين لنا أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله

---

[١] المثانى هى السور المتوسطة التى تكون آياتها أقل من مائة والمئين هى السور التى كانت آياتها مائة آية أو أكثر قليلاً.

[٢] السورة الطويلة والمتوسطة التى كانت تنزل فصولاً متفرقة.

[٣] هذا تعبير كان يستعمل فى عهد النبى للدلالة عن شخصية السورة أو اسمها.

http://kotob.has.it

ووضعتهما في السبع الطوال. وهذا يفيد أن الأنفال في زمن النبي كانت تدون قبل براءة مباشرة، ولم يكن بينهما فاصل أو بسملة. فتركنا على ذلك وهو الترتيب المتداول.

٣- وأخرج الإمام مسلم حديثاً عن عمر قال: ما سألت النبي عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن في صدري بأصبعه وقال تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء. وهذا يفيد أن سورة النساء كانت مرتبة على ما هو عليه في المصحف المتداول في حياة النبي. ولو لم يكن ترتيبها بتوقيف النبي وإشارته لوضعت الآية المذكورة في مكان أكثر مناسبة من السورة.

٤- وأخرج الإمام البخاري حديثاً عن عبد الله بن الزبير جاء فيه قلت لعثمان ": والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً" قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها. قال: يا ابن أخي لا أغير شيئاً من مكانه. الآية الناسخة في سورة البقرة وهي الآية (٢٣٤) متقدمة في الترتيب على الآية المنسوخة في نفس السورة وهي (٢٤٠). وجواب عثمان يفيد أن الترتيب إنما كان بإشارة النبي فلم ير تغيير شيء من مكانه.

٥- وأخرج الإمام أحمد حديثاً بإسناد وصف أنه حسن عن عثمان ابن أبي العاص قال: كنت جالساً عند رسول الله إذ شخص ببصره ثم صوبه. ثم قال أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية في هذا الموضع من هذه السورة ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ..﴾ إلى آخرها. وهذا يفيد أن النبي كان يأمر بوحي الله بترتيب آيات السور وأن الترتيب المتداول هو مستند إلى ذلك.

٦- وروى البخاري حديثاً عن زيد بن ثابت أن رسول الله أملى عليه " لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله" فجاء ابن أم مكتوم وهو يمليها عليه فقال يا رسول الله والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان أعمى فأنزل الله على رسوله وفخذه على فخذه فثقلت عليه حتى خاف أن ترض فخذه ثم سري عنه فأملى عليه ﴿غير أولي الضرر﴾ وهذا يفيد أن النبي ﷺ كان يستدعي أحد كتاب الوحي حين نزول القرآن عليه فيملي عليه ما ينزل عليه فوراً.

٧- وروى البخاري أيضاً حديثاً قريباً من هذا عن البراء لما نزلت آية " لا يستوي القاعدون" قال النبي ادعوا زيداً فجاء ومعه الدواة واللوح أو الكتف فقال اكتب ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله﴾ وخلف النبي ﷺ ابن ام مكتوم الأعمى فقال: يا رسول الله أنا ضرير فنزلت ﴿غير أولي الضرر ﴾.

٨- وحديث زيد بن ثابت الذي رواه عن جمع القرآن في عهد أبي بكر والذي نقلناه في المجموعة الأولى يفيد أن آيات السورة كانت معروفة الترتيب في حياة النبي، حيث ذكر افتقاد آخر آيتين في سورة براءة ووضعها في مكانهما حين وجودهما. وترتيبهما هو وفاق ترتيب المصحف المتداول.

http://kotob.has.it

وحديث البخارى عن نسخ المصاحف فى عهد عثمان والذى نقلناه فى المجموعة الثانية يفيد نفس الشيء، حيث يذكر افتقاد آية الأحزاب ووضعها فى مكانها المعروف فى حياة النبى، والذى هو وفاق المصحف المتداول أيضاً.

٩- وروى البخارى عن ابن عباس أن آخر آية نزلت الربا. وروى النسائى عن ابن عباس أيضاً أن آخر آية نزلت ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ وأخرج ابن شهاب عن سعيد بن المسيب أن أحدث القرآن عهداً بالعرض آية الدين. وقد لا يكون تناقض بين الروايات لأن هذه الآيات فى سلسلة واحدة. وجميعها موضوعة فى سورة البقرة بأمر النبى ﷺ وترتيبه. وجاء فى مجمع التبيان للطوسى أن أبى بن كعب وسعيد بن جبير والحسن بن قتادة رووا أن الآيتين الأخريين من سورة التوبة هما آخر ما نزل من القرآن. وهذا يفيد أن آيات السور كانت معروفة الترتيب فى حياة النبى وبأمره كذلك.

١٠- وروى على بن إبراهيم عن أبى بكر الحضرمى عن أبى عبد الله جعفر بن محمد " الإمام جعفر الصادق" أن رسول الله قال لعلى: يا على إن القرآن خلف فراشى فى المصحف والحرير والقراطيس فاجمعوه ولا تضيعوه كما ضيعت اليهود التوراة، فانطلق على فجمعه فى ثوب أصفر ثم ختم عليه. وهذا يفيد أن القرآن كان يدون على وسائل الكتابة المعروفة وكان مدوناً كذلك فى حياة النبى، وكان النبى يعني بحفظه فى بيته.

١١- وقد روى علماء الحديث حديثاً ورد فى أكثر من كتاب من كتب الحديث المشهورة جاء فيه: " لا تكتبوا عنى غير القرآن"، حيث يفيد أن الصحابة كانوا يدونون فى حياة النبى ما يسمعونه من النبى من القرآن.

١٢- وقد أخرج أبو داود حديثاً جاء فيه أن عمر أعلن الناس: من كان تلقى عن رسول الله شيئاً من القرآن فليأت به. وكانوا يكتبون ذلك فى الصحف والألواح والعسب. وهذا يفيد ما أفاده الحديث السابق.

١٣- وروى واثلة عن النبى ﷺ قال: أعطيت مكان التوراة السبع الطوال ومكان الزبور المئين ومكان الإنجيل المثانى وفضلت بالمفصل[1]، وهذا يفيد أن ترتيب سور القرآن حسب المصحف المتداول الطوال أولاً، فالمئون ثانياً فالمثانى ثالثاً، فالمفصل رابعاً من ترتيب النبى وعهده.

---

[1] المفصل هى السور القصيرة وسميت كذلك لكثرتها وكثرة الفصل بينها. وهناك أحاديث فيها بعض الخلاف فى تعيين سور كل مجموعة من مجموعات السور الأربع فهناك حديث عن ابن عباس أن السبع الطوال هى البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف قال الراوى وذكر السابعة فنسيتها وعن

http://kotob.has.it

١٤- وروى البخارى حديثاً عن ابن مسعود أن النبى قال إن بنى إسرائيل[٢] والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادى. وهذه السور متسلسلة الترتيب فى المصحف المتداول وفاق الترتيب الوارد فى الحديث.

١٥- وأخرج الإمام أحمد وأبو داود حديثاً عن أبى أوس وكان قدم على النبى فى وفد جاء فيه : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على حزب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا نحزبه ثلاث سور وخمس سور وسبع سور وتسع سور وإحدى عشر سورة وثلاث عشرة سورة وحزب المفصل من سورة ق حتى نختتم، وعدد السور من البقرة إلى الحجرات تسع وأربعون، ومجموع عدد السور المحزبة هو تسعة وأربعون. والحديث يفيد أن سور القرآن كانت مرتبة وفاق ترتيب سور المصحف المتداول منذ حياة النبى.

١٦- وروى حذيفة عن النبى حديثاً جاء فيه أنه قرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء واحدة بعد أخرى وهذا يفيد أن السور الثلاث كانت مرتبة فى حياة النبى وفاق ترتيبها فى المصحف المتداول.

١٧- وروى البخارى حديثاً عن فاطمة أن النبى أسر إليها بأن جبريل يعارضه بالقرآن كل سنة وأنه عارضه فى العام الذى توفى فيه مرتين وقال لها: ولا أراه إلا حضر أجلى. وروى البخارى حديثاً آخر عن أبى هريرة جاء فيه كان القرآن يعرض على النبى كل عام مرة فعرض عليه مرتين فى العام الذى قبض فيه. وقال البغوى فى شرح السنة[١] أن زيداً ابن ثابت شهد العرض الأخير الذى بين فيه ما نسخ وما بقى وكتبها لرسول الله وقرأها عليه وكان يقرئ الناس بها حتى مات. ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر فى جمعه وولاه عثمان كتب المصاحف. وهذا يفيد أن النبى كان يستعرض القرآن جميعه فى رمضان وأنه استعرضه مرتين فى رمضان الأخير، وأن المصحف الذى كتبه زيد فى عهد أبى بكر إنما كان وفاقاً لذلك نصاً وترتيباً.

١٨- وروى النسائى عن عبد الله بن عمر حديثاً جاء فيه : جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة فبلغ النبى ﷺ فقال: اقرأه فى شهر. وقد روى عن ابن عمر أنه قال : قال لى رسول الله ﷺ: اقرأ القرآن فى شهر قلت إنى أجد قوة قال اقرأه فى عشر قلت إن أجد قوة. قال اقرأه فى سبع ولا تزد. وقد روى

مجاهد وسعيد أنها يوسف وعن الحاكم أنها الكهف والمفصل يبدأ فى رواية البخارى بالجاثية وهناك قول إنه يبدأ بالصافات وقول أنه يبدأ بسورة ق وقول أنه يبدأ بالحجرات وقول أنه يبدأ بتبارك وقول أنه يبدأ بالفتح وقول أنه يبدأ بالضحى...

[٢] اسم آخر لسورة الإسراء

[١] رسالة الكلمات الحسان للشيخ بخيت.

http://kotob.has.it

عن ابن مسعود حديث جاء فيه : لا تقرأوا القرآن فى أقل من ثلاث" وروى عن سعيد بن المنذر حديث جاء فيه قلت يا رسول الله أأقرأ القرآن فى ثلاث قال نعم إن استطعت وروى عن قيس بن صعصعة حديث جاء فيه : قلت يا رسول الله فى كم أقرأ القرآن قال فى خمسة عشر قلت إنى أجدنى أقوى من ذلك قال اقرأه فى جمعة وهناك روايات تذكر أسماء صحابه عديدين كانوا يحفظون القرآن جميعه مثل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وعبد الله بن مسعود ومعاذ وسالم وأبيّ وأبى الدرداء وزيد بن ثابت وطلحة وسعد وحذيفة وأبى هريرة وعائشة وحفصة وأم سلمة وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وسعيد بن المنذر وقيس بن صعصعة. ولا شك فى أن هذه الأسماء ليست كل الأسماء وإنما هى التى نقلتها الروايات. وقد جاء فى البخارى فى حديث شهداء بئر معونة أن بعض العرب جاءوا يطلبون مدداً من النبى ﷺ فأرسل معهم سبعين من الأنصار ممن كانوا يسمون القراء فى زمنهم. وفى حديث جمع القرآن فى عهد أبى بكر إشارة إلى القتل الذى استحر بالقراء والخشية من موتهم فى المواطن الأخرى فهذه الأحاديث والروايات تفيد أولاً أن القرآن كان محفوظاً فى الصدور ومدوناً فى الصحف فى ترتيب ثابت آيات فى سور وسور فى تسلسل لأن حفظ القرآن لا يمكن أن يتيسر إلا بذلك، وتفيد ثانياً أنه كان من الصحابة من يواظب على تلاوته تعبداً وتفقها، وتفيد ثالثاً أن طبقة القراء والحفاظ كانت كثيرة العدد فى حياة النبى ﷺ.

١٩- وأخرج الحاكم عن عبد الله بن قسطنطين أنه قرأ ختمة على عبد الله بن كثير وهذا إمام من أئمة القراء وهو تابعى فلما بلغ الضحى قال كبّر حتى تختم وأخبره أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك وأن مجاهداً أخبره أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك وأن ابن عباس أخبره أنه قرأ على أبى فأمره بذلك، وأن أبيا أخبر ابن عباس أنه قرأ على النبى ﷺ فأمره بذلك. وقد روى عن الإمام الشافعى أنه قال إذا تركت التكبير فقد تركت سنة من سنن نبيك. وهذا وذاك يفيد أن القرآن كان مرتب السور فى حياة النبى وفاق ترتيب المصحف المتداول.

٢٠- وروى أبو منصور الأرجانى فى كتاب فضائل القرآن أن النبى كان يقول عند ختم القرآن الله ارحمنى بالقرآن واجعله لى إماماً ونوراً وهدى ورحمة. اللهم ذكرنى منه ما نسيت وعلمنى منه ما جهلت وارزقنى تلاوته آناء الليل والنهار واجعله حجة لى يا رب العالمين. وهذا يفيد ما تفيده الأحاديث السابقة آنفاً.

http://kotob.has.it

٢٢-وفي حديث البخارى أن ابن عباس قال إنه جمع المحكم فى عهد رسول الله ﷺ فسأله الراوى عن المحكم فقال المفصل. وكان ابن عباس صبياً فى حياة النبى كما هو معروف وهذا يفيد أن السور كانت مرتبة وفاق ترتيبها المتداول الطوال فالمؤون فالمثانى فالمفصل، وأن القرآن كان يحفظ على ما اعتيد حفظه إلى اليوم الأقصر أولاً.

٢٣-وأخرج الحاكم حديثاً عن ابن عباس وصف بأنه صحيح أنه قال كان النبى ﷺ إذا جاءه جبريل فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم علم أنها سورة، وورد حديث آخر عن عباس جاء فيه كان المسلمون لا يعلمون انقضاء السورة حتى تنزل بسم الله الرحمن الرحيم وأخرج البيهقى عن ابن مسعود أنه قال كنا لا نعلم فصلاً بين سورتين جتى تنزل بسم الله الرحمن الرحيم. وهذا يفيد أن شخصيات السور أو بالأحرى ترتب الآيات سوراً تامة كان معروفاً فى حياة النبى ﷺ.

٢٤-وقد ذكر السيوطى أقوالاً لبعض علماء القرآن تفيد أنهم كانوا يعتقدون بصحة ما احتوته الأحاديث والروايات فى هذه المجموعة من تقريرات بوجه الإجمال، فقد أثر عن الحارث المحاسبي فى كتاب فهم السنن قوله أن كتابة القرآن ليست محدثة فإن النبى كان يأمر بكتابته وقال أبو بكر الأنبارى إن اتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبى فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن. وقال الإمام مالك برواية ابن وهب إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبي، وقال البيهقى كان القرآن على عهد رسول الله ﷺ مرتباً سوره وآياته على هذا الترتيب وقال البغوى فى شرح السنة أن الصحابة قد جمعوا بين الدفتين القرآن الذى أنزله الله على رسوله من غير أن زادوا ونقصوا منه شيئاً خوف ذهاب بعضه بذهاب حفاظه فكتبوه كما سمعوه من رسول الله من غير أن قدموا شيئاً أو أخروه أو وضعوا ترتيباً لم يأخذوه عن رسول الله وكان رسول الله يلقن أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه على الترتيب الذى هو الآن فى مصاحفنا بتوقيف جبريل اياه على ذلك. وقال ابن الحصار إن ترتيب السور فى وضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحى فكان رسول الله يقول ضعوا آية كذا فى موضع كذا. وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا فى المصحف.

٢٥- وقال أبو بكر الباقلانى[1] والذى نذهب إليه أن جميع القرآن الذى أنزل الله وأمر بإثباته ورسمه ولم ينسخه ولم يرفع تلاوته بعد نزوله هو هذا الذى بين الدفتين الذى حواه مصحف عثمان، وأن ترتيبه ونظمه كلاهما ثابت على ما نظمه الله سبحانه ورتبه عليه رسوله من آي وسور لم يقدم من

---

[1] الكلمات الحسان.

http://kotob.has.it

٢٥- وقال أبو بكر الباقلانى[1] والذى نذهب إليه أن جميع القرآن الذى أنزل الله وأمر بإثباته ورسمه ولم ينسخه ولم يرفع تلاوته بعد نزوله هو هذا الذى بين الدفتين الذى حواه مصحف عثمان، وأن ترتيبه ونظمه كلاهما ثابت على ما نظمه الله سبحانه ورتبه عليه رسوله من آي وسور لم يقدم من ذلك مؤخر ولا أخر منه مقدم وأن الأمم ضبطت عن النبى ترتيب آى كل سورة ومواضعها كما ضبطت عنه نفس القراءة وذات التلاوة.

٢٦- وقال العالم المذكور فى كتابه الانتصار : لم يقصد عثمان قصد أبى بكر فى جمع نفس القرآن بين لوحين وإنما قصد جمعه على القراءات الثابتة المعروفة عن النبى وإلغاء ما ليس كذلك وأخذهم بمصحف واحد مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتى بعده.

٢٧- وقال ابن الجوزى وإنما لم يجمع رسول الله لأنه كان بمعرض أن ينسخ منه أو يزاد عليه فلو جمعه كان الذى عنده نقص ينكر على من عنده زيادة فلما أمن هذا الأمر بموته جمعه أبو بكر ولم يصنع عثمان فى القرآن شيئاً وإنما أخذ الصحف التى وضعت عند حفصة وأمر زيداً بن ثابت وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن الحارث بن هشام وسعيد بن العاص، وأبى ابن كعب فى اثنى عشر رجلاً من قريش والأنصار فكتب منها مصاحف وسيرها للأمصار.

تعليقات على الروايات والأقوال وترجيح تدوين وترتيب القرآن فى عهد النبى ﷺ وموجبات ذلك

ومن الحق أن نقول إن فى المجموعات الثلاث التى أوردناها ما ليس موثقاً بالإسناد القوى، وما يتحمل النظر والتوقف، ومنها ما يتعارض بعض ما جاء فى مجموعة منه مع بعض ما جاء فى نفس المجموعة، ومنها ما يصطبغ بصبغة الأهواء الحزبية الأولى أو فيه رائحتها، ومنها ما يبدو عليه قرائن قصد التوفيق أو التلفيق، غير أن من الحق أن يقال إن المجموعة الثالثة أكثر توثقاً فى الإجمال من جهة وأكثر اتساقاً مع طبائع الأمور والظروف من جهة أخرى.

فالقرآن أعظم مظاهر النبوة ومعجزتها الخالدة، وكان مدار الاحتجاج والدعوة مع العرب والكتابيين الذين كانت لهم كتبهم المتداولة فى أيديهم وقد تكرر فى القرآن كثيراً الإشارة إلى كتب الكتابيين من جهة وذكر الكتاب بمعنى القرآن كثيراً من جهة أخرى، فلا يعقل فى حال أن يهمل النبى ﷺ تدوين ما كان ينزل عليه من الوحى القرآنى، والعناية بهذا التدوين عناية فائقة، والحرص

[1] الكلمات الحسان.

http://kotob.has.it

على حفظ المدونات حرصاً شديداً بل والمعقول أن يكون ذلك من أمهات مشاغل النبى المستمرة أيضاً، وهذا يجعلنا نعتقد أن ما روى من أن القرآن كان يدون على قطع عظيمة الحجم ثقيلة الوزن صعبة الحمل والحفظ والترتيب كأضلاع النخيل وأكتاف العظام ورقاق الحجارة والخشب لا يمكن أن يكون هو الواقع على إطلاقه، كما أن هذا القول يطرد فيما يمكن أن يستتبع ذلك من فقدان أو نقص وسائل الكتابة اللينة المعروفة فى ذلك العصر فى البلاد المجاورة كالقرطاس والورق والحرير والقماش والرقوق الناعمة المسواة وقد قيل فيما قيل إن نطاق القراءة والكتابة كان ضيقاً جداً فى مكة والمدينة مما يمكن أن يظن أن هذا متصل بالنقطة الأولى أو من أسبابها وهذا أيضاً لا يمكن التسليم بصحته على إطلاقه كذلك.

ونحن لا نرسل هذا النفى جزافاً فالثابت علمياً وبصورة لا تقبل المراء أن الخط العربى الذى كان مستعملاً فى بيئة النبى وعصره يمتد وجوده إلى عشرات السنين قبل بعثته كما أنه متطور عن أشكال لخطوات أخرى كان يستعملها عرب الشام واليمن، وكذلك فإن من الثابت علمياً أن ذلك الخط كان منتشراً بمقياس غير ضيق فى بلاد الشام واليمن والحجاز والعراق حتى كان يشمل بدو هذه البلاد ولو بمقياس ضيق. وما جاء فى بعض الكتب العربية عن نشأة الخط العربى ووصوله إلى الحجاز وضيق انتشاره فيه ضيقاً شديداً هو تخليط لا يتحمل نقداً[١].

والبيئة الحجازية إلى هذا وخاصة مكة والمدينة كانت بيئة تجارية متصلة بالبلاد المجاورة التى كانت تتمتع بحظ غير يسير من الحضارة والثقافة وكان فيها جاليات كتابية نصرانية ويهودية نازحة من تلك البلاد وكانت تتداول الكتب الدينية وغير الدينية قراءة وكتابة فلا يعقل أن يظل العرب أهل هذه البيئة غافلين عن اقتباس وسيلة من أشد الوسائل ضرورة إلى الأشغال التجارية ومن أعظم مظاهر الحضارة التى اقتبسوا منها من البلاد المجاورة الشيء الكثير[٢]

وهناك رواية مشهورة وهى أن أسرى قريش الفقراء فى وقعة بدر الذين لم يستطيعوا أن يدفعوا فدية نقدية كلفوا بتعليم بعض أطفال المسلمين فى المدينة القراءة والكتابة، فإذا كان فقراء أهل مكة يقرأون ويكتبون وأولى أن يكون كذلك أغنياؤها وتجارها ونبهاؤها وأن تكون القراءة والكتابة مما هو مألوف ومنتشر بنطاق غير ضيق.

---

[١] اقرأ مثلاً العقد الفريد ج ٣ ص٢٠٢، وتنبه على أن المستشرق الطليانى كايتانى فى كتابه تاريخ الإسلام فصلاً قيماً فى نشأة الخط العربى وانتشاره مستنداً إلى دراسات ومكتشفات وآثار حاسمة.

[٢] اقرأ فصل الحياة العقلية فى كتابنا عصر النبى وبيئته قبل البعثة ففيه بحث مسيب موثق فى هذا الأمر.

http://kotob.has.it

ويضاف إلى هذا ما هو أقوى دلالة وهو محتويات القرآن ففيه آيات كثيرة جداً احتوت تنويهها بالعلم والقراءة والكتابة وحضت عليهما وحضت خاصة على تدوين المعاملات التجارية نقداً وديناً وصغيرة وكبيرة كما أن فيه آيات عديدة حكت أقوال المشركين المكيين تدل على اتساع نطاق القراءة والكتابة والمعرفة بوجه عام عندهم.

وبيئة هذه صلاتها بالبيئات المجاورة المتمدنة التى تتيسر فيها وسائل الكتابة والقراءة المألوفة على تنوعها، وفيها كثيرون من أهل هذه البيئات يقرأون ويكتبون ويتداولون الكتب، وحركتها التجارية قوية واسعة، وقد احتوى القرآن من أوصاف حياتها ومعايشها وحضارتها ووسائلها ما فيه الدلالة الوافية على أنها هى أيضاً كانت على درجة غير يسيرة من الحضارة ووسائلها، والكتابة والقراءة فيها منتشرتان بمقياس غير ضيق لا يعقل فى حال أن لا يكون فيها وسائل مدنية للكتابة وأن لا يوجد ما يدون عليه القرآن إلا ألواح العظام ورقائق الحجارة وأضلاع النخيل وقطع الخشب. هذا بالإضافة إلى أن القرآن قد احتوى كلمة القرطاس أكثر من مرة مما يصح أن يكون دليلاً على أنه كان معروفاً ومألوفاً كوسيلة للتدوين والكتابة بل إن هذه الكلمة مفردة وجمعها قد جاءت فى سورة الأنعام فى سياق الكلام عن كتب الله كما ترى:

١- ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم...﴾ (الأنعام : ٧)

٢- ﴿قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً.. ﴾ (الأنعام : ٩١)

فهذا النص القرآنى يلهم أن الكتابة على القرطاس وكون الكتب مؤلفة من قراطيس هو الشىء المألوف الذى لم يكن ليتصور غيره.

كذلك فإن القرآن احتوى كلمة " الصحف" أكثر من مرة فى معرض الإشارة إلى القرآن والكتب السماوية كما ترى :

١- ﴿فى صحف مكرمة. مرفوعة مطهرة... ﴾ (عبس : ١٣- ١٤)

٢- ﴿إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى..﴾

(الأعلى : ١٨-١٩)

٣- ﴿بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة﴾ (القيامة : ٥٢)

ولم ينكر أحد أن كلمة الصحيفة كانت تطلق على تلك الوسائل البدائية وإنما كانت تطلق على ما كان معروفاً من وسائل الكتابة التى تحمل بسهولة وتطوى بسهولة ويجمع بعضها إلى بعض بسهولة ولعل فى آية القيامة قرينة على أن الصحف كانت تنشر وتطوى، وهو ما لا يمكن أن يتصف به إلا

http://kotob.has.it

وسائل الكتابة اللينة كالقماش وورق القماش وورق الحرير والرقوق الناعمة المسواة ... إلخ. ولعل في آية سورة الأنبياء هذه

﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾ ١٠٤ قرينة أو بالأحرى دليلاً على أن طي الورق أو ما كان يقوم مقامه من وسائل الكتابة اللينة ليكون سجلاً للكتابة والتدوين، كان مألوفاً شائعاً وهذا لن يكون إلا حيث تكون الكتب والقراطيس والوسائل الكتابية اللينة الأخرى ومما يمكن إيراده لتقوية هذه الملهمات والقرائن هذه الآيات :

١- ﴿إن هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾.

(الجاثية : ٢٩)

٢- ﴿أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه﴾

(الإسراء : ٩٣)

حيث تخاطب الأولى الناس – ومشركو مكة من أول من خوطبوا – بما لا يعقل إلا أن يكون من مألوفاتهم من الكتابة واستنساخ الكتب وحيث تحكى الثانية قول مشركى مكة مما يعبر عن مفهوم الكتاب المكتوب المقروء المألوف والمنتشر بينهم.

ولقد كثرت كما قلنا الإشارات القرآنية إلى كتب الكتابيين وكتابتها وتعليمها ودراستها، وجل الكتابيين الذين كانوا فى الحجاز جاليات نازحة من البلاد المجاورة التى كانت وسائل الكتابة اللينة فيها معروفة ميسورة فلا يعقل أن تكون كتبهم هذه مكتوبة على تلك الوسائل البدائية الثقيلة الضخمة، ولا يعقل إلا أن يكون النبى ﷺ قد اهتم لتدوين القرآن معجزته الكبرى على نسق ما دونت عليه كتب الكتابيين. ولقد احتوت المجموعات الثلاث روايات عديدة تفيد أن الورق والقرطاس مما استعمل فى كتابة القرآن فى عهد النبى ﷺ، وفى عهد أبى بكر مما هو متسق مع الظروف ولا يكاد يتحمل شكاً فى صحته بقطع النظر عن وثوق الروايات من الجهة التعديلية والتجريحية، ونشير بنوع خاص إلى ما كان فى أيدى المسلمين من صحف ومصاحف ورقاع خاصة أمر عثمان بإحراقها بعد ما فرغ من نسخ المصاحف الموحدة ليزول أهم سبب من أسباب الخلاف فى القراءة مما ذكره حديث البخارى والإحراق خاصة لا يتوارد معه إلا الورق والقرطاس والرقوق مما يدل على أن التدوين على هذه الوسائل كان هو المألوف السائغ.

على أننا لا نريد أن ننفى بالمرة ما ورد فى الأحاديث العديدة عن كتابة القرآن على الألواح والأكتاف والرقائق والأديم فإن من الممكن أن يكون لها أصل صحيح أيضاً، ولكن على غير الصورة أو المقصد الذى عبرت عنه الروايات أو تركته غامضاً.

http://kotob.has.it

فمن المحتمل أن يكون النبى إذ يستدعى أحد كتابه لإملاء ما يكون نزل عليه من وحى فوراً أن لا يكون متيسراً إلا شيء من هذه الوسائل البدائية فيكتب الكاتب عليها ما يمليه النبى مؤقتاً ريثما ينقله إلى مكانه من سجلات القرآن بينما عبر عنه زيد بن ثابت فى الحديث الذى نقلناه فى المجموعة الثالثة فى قوله كنا نؤلف القرآن من الرقاع فى عهد رسول الله ﷺ. ومن المحتمل كذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ من أهل المدن أو البادية قد كانوا يكتبون بعض الفصول القرآنية التى يتلقونها عن النبى ﷺ على قطعة من تلك القطع للتبرك والحفظ والنقل على اعتبار أنها أبقى على الزمن وأقل تعرضاً للفناء والتمزيق على نحو ما اعتاد المسلمون أن يفعلوا من قديم الأجيال فى كتابة الألواح مع بعض التعديل. فلما دعا المسلمون إلى الإتيان بما عندهم من قرآن بقصد زيادة الاستيثاق والضبط والتحرير والمعارضة أتوا فيما أتوا به بهذه القطع فحفظت الروايات هذه الصورة ونقلتها.

هذا من جهة التدوين : وما نقلنا يصح إيراده بتمامه على ترتيب القرآن آيات فى سور وسوراً فى تسلسل أيضاً، فالنبى ﷺ الذى لا شك فى أن القرآن كان من أهم مشاغله لا يمكن أن يكون قد أهمل ترتيب وترك مدوناته مشوشة فوضى لا يعرف لها أول من آخر سواء فى التدوين أو فى القراءة والتعليم : ولا بد من أن يكون قد عنى بترتيبه نفس العناية الفائقة التى كانت منه بتدوينه وحفظ مدوناته.

ولقد قال بعض علماء القرآن كما جاء فى كلام الخطابى الذى أوردناه فى المجموعة الأولى أن استمرار الوحى فى حياة النبى كان سبباً فى عدم ترتيبه، والذى يتبادر لنا أن هذا لا يوجب عدم ترتيب القرآن آيات فى سور، وسوراً فى تسلسل : فإن من السائغ جداً أن يكون الترتيب بفتح الله ونصره ودخول الناس فى دينه أفواجاً، وبالتالى أذنت بانتهاء مهمة النبى. وقد احتوت أحاديث معارضة النبى للقرآن فى رمضان الأخير مرتين وكتابته من قبل زيد ما يستأنس به على ذلك : كما أن من السائغ جداً ان يصح احتمال إضافة ما يمكن أن يكون نزل بعد هذا الترتيب من آيات إلى مواضع مناسبة لها فى السور.

وفى الأحاديث التى نقلناها فى المجموعة الثالثة ما يستأنس به على وقوع شيء من هذا فعلاً : فلما التحق النبى ﷺ بالرفيق الأعلى صار ما كان ثابتاً من القرآن هو القرآن التام، وصار من واجب خليفة النبى الأول وكبار أصحابه الاهتمام لضبطه وجمعه كاملاً، وتحرير نسخة تكون إماماً كاملاً محفوظاً عند إمام المسلمين وخليفة نبيهم وتكون مرجعاً عند الخلاف وضماناً من الطوارئ والضياع : وانتقال النسخة التى كتبت فى عهد أبى بكر إلى عهدة عمر بن الخطاب الخليفة الثانى وحفظها عند حفصة حينما اغتيل والدها عمر من القرائن القوية على ذلك.

http://kotob.has.it

ولسنا نرى أن ما نقرره يمكن أن ينقض أيضاً بما جاء في حديث زيد ابن ثابت من أنه تتبع القرآن فجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال ولا يفنده افتقاد آخر آيتي سورة التوبة وعدم وجودهما إلا عند أبي حذيفة ولا بما جاء في حديث مصاحف عثمان من افتقاد زيد آية الأحزاب وعدم وجودها إلا عند حذيفة أو بما جاء في حديث آخر أن الناس دعوا إلى الإتيان بما عندهم ولم يكن يقبل من أحد شيء إلا بشهادتين، فهذا كله لا يقتضى أن لا يكون للقرآن مدونات مرتبة محفوظة في بيت النبي ﷺ مما ألفي من الرقاع ومدونات مرتبة محفوظة كذلك عند كبار أصحاب رسول الله ﷺ وقرائهم، بل يصح ونحن نجزم بذلك أن يكون هذا كله من قبيل الاحتياط والحرص الشديد على الضبط والتحرير ولقد كان من المحتمل أن يختلط الأمر على بعض الصحابة في بعض الآيات، وأن يكون بعضهم ما يزال يحفظ آيات قد نسخت أو يحتفظ برقاعها مما هو طبيعي كما أن من المحتمل أن يكون مما استهدف معارضة مدونات القرآن المختلفة عند مختلف الفئات مع بعضها لإتقان الضبط والتحرير، فكان هذا التشدد والحرص العظيمان المتناسبان مع موضوع تفوق خطورته أي موضوع آخر، واللذان يصحان أن يكونا مثلاً رائعا للتدقيق والفحص والتحرى العلمي.

ومن النقاط المهمة الجديرة بالتنبيه في هذا المقام أنه لم يرد أى حديث منسوب إلى النبي ﷺ أو أصحابه المعروفين يمكن أن يفيد أن القرآن لم يكن مرتب الآيات والسور ومعروف الترتيب في حياة النبي ﷺ، وكل ما جاء في هذا الباب تعليقات وتخمينات متأخرة وحديثاً البخاري في كتابة المصحف في عهد أبي بكر ونسخة في عهد عثمان - وهما المعول الأقوى والأشهر - قد خليا من أي إشارة إلى ذلك، بل فيهما على ما أوردناه في المجموعة الثالثة ما يؤيد كون آيات القرآن معروفة الترتيب منذ حياة النبي، وننبه بنوع خاص على أن حديث نسخ المصحف في عهد عثمان صريح جداً بأن ما كان ليس جمعاً أو تدويناً جديداً كما توهم الحاكم على ما أوردناه في المجموعة الأولى وإنما هو نسخ طبق الأصل عن مصحف أبي بكر، وبأن القصد منه ضبط كتابة ألفاظ القرآن من حيث الإملاء وتوحيدها حتى لا يكون محل للاختلاف في قراءتها حيث كانت المصاحف والصحف التي في أيدى الناس مكتوبة بخطوط متنوعة من المعقول جداً أن تكون متخالفة الإملاء والهجاء، وهو ما أدى إلى الخلاف والفزع منه فعلاً.

وما دام القرآن قد جمع وضبط وحرر في عهد أبي بكر على ملأ من الصحابة وخاصة كبارهم، وفي وقت يكاد يكون فورياً بعد وفاة النبي ﷺ، وعلى هذا الوجه من الحرص والتحري الشديدين دون أن يكون أي إشارة إلى قصد ترتيب الآيات أو السور فإنه يصح أن يقال يجزم إن دفتي المصحف الذي حرر قد احتوتا كل ما ثبت عند كبار الصحابة وقرائهم وحفاظهم بل وكل من شهد العمل منهم

http://kotob.has.it

أنه القرآن الذى مات النبى عنه وهو ثابت لم ينسخ بترتيبه المعروف فى حياته وما دام النسخ الذى جرى فى عهد عثمان إنما كان عن هذا المصحف وكان هذا أيضاً على ملأ من الصحابة والقراء والحفاظ وبمعرفة علماء القرآن منهم، ولم يكن الباعث عليه إلا إيجاد إمام يضبط فيه الإملاء والقراءة ويجمع به الناس على رسم واحد، وما دامت المصاحف المتداولة فى أيدى المسلمين هى طبق هذا المصحف الإمام كما هو ثابت بالتواتر الفعلى الذى لم ينقطع والذى هو يقينى - باستثناء بعض التنظيمات الشكلية على ما سوف نذكره بعد - فهى بطبيعة الحال طبق مصحف أبى بكر من حيث الألفاظ والآيات والسور وترتيبها، وبالتالى طبق ما مات النبى عنه من قرآن ثابت بترتيبه وتسلسله

وإذا كان من المحتمل أن لا تكون إحدى نسخ مصاحف عثمان الأصلية موجودة اليوم - مع ما يقال عن وجود بعضها قولاً غير مؤيد بشاهد ووصف عيانى موثوقين - فإن هذا لا ينقض ما نقوله من التواتر الفعلى. ولقد ذكر علماء قديمون أنهم شاهدوا بعض هذه النسخ، وقرروا أن المصاحف المتداولة هى صورة تامة عنها رسماً وترتيباً، ومن أقدم من ذكر ذلك أبو القاسم عبيد الله بن سلام من علماء القرن الهجرى الثانى الموثوقين ومحدثيهم. وتقرير هذا العالم يهدم كل قول حول التشكيك فى مصحف عثمان وكون المصحف المتداول هو صورة تامة صحيحة عنه، وحول رواية أن المصحف المتداول إنما هو مصحف الحجاج وجمعه وترتيبه إذا كان يراد بذلك جمعاً وترتيباً جديدين وإن الحجاج قد جمع المصاحف المتداولة ومصاحف عثمان وأبادها. ولعل الرواية محرفة عن حادثة عناية الحجاج بأعجام القرآن أو نقطه مما صار نساخ المصاحف بعدها يأخذون به. فقد انتشر المسلمون فى عهد الحجاج أكثر من ذى قبل فى أنحاء الأرض، وانتشرت نسخ القرآن العثمانية كذلك، فلم يكن فى إمكان الحجاج جمع المصاحف المتداولة وإبادتها البتة، ولم يقل أحد إنه رأى مصحفاً للحجاج فيه تغاير ما مع المصحف العثمانى فى نصه وترتيبه، ولو كان وقع شيء من هذا لاهتم له أعداء الأمويين والحجاج الذين بذلوا كل جهد فى تشويه سيرتهم وتشويه سمعتهم بالحق وبالباطل وتعقب كل عمل أو بادرة منهم، ولرأيناه فى رأس المطاعن التى يطعنونهم بها. وقد قال أحد أعلام علماء الشيعة ومشهوريهم وكبار مفسريهم الإمام الشيخ محمد بن الحسن الطوسى صاحب تفسير التبيان ومن رجال القرنين الرابع والخامس الهجريين فى مقدمة تفسيره بصدد الكلام فى زيادة القرآن المتداول ونقصه " وأما الكلام فى زيادته ونقصانه فمما لا يليق به أيضاً لأن الزيادة فيه مجمع على بطلانه والنقصان منه فالظاهر أيضاً من مذهب المسلمين خلافه وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا، وهو الذى نصره المرتضى رحمة الله عليه، والظاهر فى الروايات.

http://kotob.has.it

والروايات التى رويت من جهة الخاصة والعامة بنقصان آيات منه أو نقلها من موضع إلى موضع فطريقها الآحاد التى لا توجب علماً ولا عملاً والأولى الأعراض عنها وترك التشاغل بها.

ولو صحت لما كان ذلك طعناً على ما هو موجود بين الدفتين إذ كان ذلك معلوما صحته لا يعترضه أحد من الأمة ولا يدفعه.

ومع كل هذا فما روى أن الحجاج إنما صحح اثنتى عشرة كلمة فى مصحف عثمان هى هذه : "لم يتسن" حيث جعلها " لم يتسنه"[١] و"شريعة" حيث جعلها " شرعة"[٢] و "ينشركم" حيث جعلها " يسيركم"[٣] "وآتيكم" حيث جعلها " أنبئكم"[١] و"معايشهم" حيث جعلها " معيشتهم"[٢] و"غير ياسن" حيث جعلها " غير آسن"[٣] و"اتقوا" حيث جعلها " وأنفقوا"[٤] " سيقولون لله" حيث جعلها " سيقولون الله"[٥] و"بظنين" حيث جعلها " بضنين"[٦] ونقل كلمتى " المرجومين" و"المخرجين" فى آيتى الشعراء ١١٦-١٦٧ كلاً منهما مكان الأخرى فصارت المرجومين فى قصة نوح والمخرجين فى قصة لوط وأنه لم يصنع ما صنعه إلا بعد اجتهاد وبحث مع القراء والفقهاء المعاصرين له وبعد إجماعهم على أن جميع ذلك من تحريف الكتاب والناسخين الذين لم يريدوا تغييراً و تبديلاً وإنما حدث بعض ما حدث لجهلهم بأصول الكتابة وقواعد الإملاء والبعض الآخر لخطأ الكاتب فى سماع ما يملى عليه أو التباسه فيما يتلى عليه[٧].

هذا وفى حين أن هناك رواية[٨] تفيد أن بعض ما صححه الحجاج إنما صححه عثمان نفسه مثل لم يتسن حيث جعلها لم يتسنه.

---

(١) البقرة ٢٥٩

(٢) المائدة ٤٨

(٣) يونس ٢٢

(٤) يوسف ٤٥

(٥) الزخرف ٢٢

(٦) محمد ١٥

(٧) الحديد ٧

(٨) المؤمنون ٨٧ و٨٩

(٩) التكوير ٢٤

(١٠) الفرقن لابن الخطيب ٥٠-٥٢

(١١) الفرقان أيضاً ٤٠

http://kotob.has.it

وبكلمة أخرى أن الحجاج لم يكتب مصحفاً جديداً ولم يضع ترتيباً جديداً، وأن تسمية "مصحف الحجاج" ليست فى محلها حتى لو صحت رواية تصحيحه لبعض كلمات وحروف رأى فيها مع القراء والعلماء تحريفاً من النساخ : هذا بقطع النظر عن ضعف رواية مصحف الحجاج وعدم تناقلها وعدم تعليق الشيعيين عليها تعليقاً جالباً للنظر على طريقتهم فى التعليقات وخاصة إذا ما كان الأمر متصلاً بالأمويين ورجالهم وفيه مجال لقول أو غمز أو تعليق.

وعلى هذا كله فكل ما يتعارض مع النتائج التى قررناها من الروايات هو موضع نظر وتوقف أو محل تخريج، وفى الحق إننا إذا نظرنا فى الروايات المناقضة لهذه النتائج تجدها كلها أو جلها غير وارد فى كتب الحديث الصحيحة، وكثير منها لم يذكر له إسناد متسلسلة معدلة، وفيها من التناقض والتغاير ما يحمل على الشك فى صحة روايتها أو متونها.

فحديث زيد عن تأليف القرآن من الرقاع أقوى سنداً وأكثر اتساقاً مع المنطق من حديثه الذى جاء فيه أن النبى قبض ولم يكن القرآن قد جمع فى شىء، حتى إذا صح فيجب حمله على جمع القرآن فى مصحف واحد كما علق على ذلك الخطابى على ما ذكرناه سابقاً. وهذا المعنى هو ما يجب تخريج ما جاء فى حديث جمع القرآن فى عهد أبى بكر به من المراجعة بين أبى بكر وعمر ثم بين أبى بكر وزيد.

وأبى بن كعب وعبد الله بن مسعود من كبار الصحابة وعلماء القرآن الأعلام، فلا يعقل أن يكون جمع القرآن وتحريره وضبطه فى عهد أبى بكر ثم نسخه فى عهد عثمان قد تم دون اشتراكهما أو علمهما، ولا يعقل أن يرمى بأقوالهما عرض الحائط فى زيادة أو نقص فى الآيات والكلمات والسور لو كان لهم فى ذلك رأى وقول حقاً، ولا يعقل أن يكوناً قد انفردا دون سائر الصحابة فى العلم بزيادة أو نقص فى القرآن أو أن تكون شهادتهما قد وردت أو أن يكون قد عجزا عن إثبات قولهما، وإذا سلمنا بهذا جدلاً مع ذلك فالمعقول أن ما يكونان قد ذكراه لم يثبت عند ملأ الصحابة فلم يؤخذ به. وما دام الأمر قد تم على ما ثبت عند ملأ الصحابة وأجمعوا عليه فلا يعقل أن يكونا قد أصرا على مخالفة إجماع الصحابة وكبارهم وخلفاء رسول الله ﷺ، فاحتفظا بمصحفيهما وزوائدهما ونواقصهما وتغايرهما للترتيب الثابت، وأن لا يكونا قد أطاعا خليفة رسول الله فأحرقا ما عندهما كما أحرق الناس ما عندهم. وهذا ما يجعلنا نشك فى بقاء مصحفين لهما مخالفين لمصحف عثمان رسماً وترتيباً وعدد سور وكلمات حتى وصل علم ذلك أو عيانه إلى وقت متأخر. ونرجح إن لم نقل نعتقد أن كل هذا مخترع فيما بعد بقصد التشويش والتشكيك من أعداء الإسلام وأن فى بعضه أثراً للحزبية السياسية، وقد قال بعض علماء أعلام أقوالا وجيهة فى هذا الباب: فقال النووى إن المسلمين أجمعوا

http://kotob.has.it

على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن وأن من جحد منها شيئاً كفر، وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح، وقال الرازى الأغلب أن نقل هذا عن ابن مسعود باطل لأن النقل المتواتر حاصل فى عصر الصحابة أنها من القرآن، فإنكار ذلك يوجب الكفر. وإن قلنا ليس التواتر حاصلاً فى ذلك الزمن فلزم أن القرآن ليس بمتواتر فى الأصل وهذا خلاف الإجماع وقال ابن حزم هذا كذب على ابن مسعود وموضوع، وإنما صح عنه قراءة عاصم عن ذر عنه وفيها المعوذتان والفاتحة.

والسورتان المسماتان بالحفد والخلع هما دعاءا قنوت ورواية عمر لهما صريحة بأنه إنما قنت بهما بعد قيامه من الركوع. فمن المحتمل حتى فى حالة صحة القول بهما من أبى- وهو ما نشك فيه - أن يكون أبى قد وهم ثم رجع عن ذلك حينما ثبت عند الملأ أنهما ليستا قرآناً فظل أثر القول قائماً متداولاً.

وعمر القوى الشديد فى إيمانه ومركزه بين الصحابة والذى دعا إلى ضبط القرآن وتحريره وحفظه أجل من أن ترد له شهادة بشأن آية الرجم وأقوى من أن يسكت على عدم إثبات آية يعتقد أن النبى مات وهى قرآن لم تنسخ. ولذلك فإن رواية رد آية الرجم منه لأنه أتى بها وحده مما يتحمل كل الشك ولاسيما أن هناك رواية تقول إنه قبل من أبى خزيمة آيتا سورة التوبة الأخيرتين بشهادته وحده. ومثل هذا غرابة وموضع شك شديد رواية أنه ظل يعتقد أنها قرآن بعد أن صارت الخلافة إليه، يضاف إلى هذا أن تعدد روايات آية الرجم وتباين صيغتها مما يثير الشك فيها، وأنه ليس من المعقول أن ينفرد عمر أو صحابى أو صحابيان فى علم قرآنية هذه الآية التى تحتوى تشريعاً خطيراً دون ملأ الناس أو أن يتواطأ هذا الملأ على عدم إثباتها. وكل ما يمكن فرضه أنها كانت آية فنسخت فى حياة النبى ﷺ.

ومثل هذا القول يصح فيما ورد عن عائشة سواء فى صدد كلمة "صلاة العصر" أو فى صدد آيات سورة الأحزاب. فإنها أجل من أن ترفض شهادتها أو تسكت عن عدم إثبات آية أو كلمة أو آيات تعتقد أنها قرآن باقى بعد النبى ﷺ. وإذا كان ورود حديثها عن صلاة العصر فى الموطأ مما يقويه فينبغى أن يلاحظ أن فى الموطأ حديثاً مثله حرفياً عن حفصة. وأن هذا التشابه مما يبعث على الحيرة والتوقف. وهذا بالإضافة إلى احتمال أن تكون الجملة تفسيرية أو أن تكون نسخت ولم يثبت بقاؤها عند ملأ الصحابة. ومن غير المعقول أن تخالف عائشة الإجماع فتبقى أو تكتب فى مصحفها ما لم يثبت فى المصحف الإمام.

http://kotob.has.it

وهذا القول يصح بتمامه كذلك بالنسبة للروايات المروية عن الكلمات الزائدة فى بعض الآيات أو الكلمات المبدلة المعزوة إلى بعض الصحابة بقطع النظر عن احتمال الغلط والدس وقصد التشويه والتشويش وعن عدم استناد الروايات إلى إسناد موثق.

ورواية مصحف على ومخالفته لترتيب المصحف المتداول موضع شك كبير أيضاً فإنه لم يرد أى رواية صحيحة تفيد أن أحدا اطلع على هذا المصحف أو رآه متداولاً وقد روى عن ابن سيرين وهو تابعى أنه تحرى هذا المصحف فى كل طرف فى المدينة فلم يقع عليه، ولو كان صحيحاً لعض عليه الشيعة بالنواجذ كما عضوا على أوهى ما ورد فى صدد مخالفة أبى بكر وعمر وعثمان، ولم يرو عنهم شيء من هذا وفى المجموعتين الأولى والثانية روايات عن ثناء على على أبى بكر وعثمان على ما قاما به من عمل عظيم فى صدد جمع القرآن وتحريره ونسخ مصاحفه.

فليس والحالة هذه أى مسوغ للشك فى كون المصحف المتداول قد احتوى جميع القرآن الذى مات النبى ﷺ عنه وهو قرآن ثابت نصاً وترتيباً بسبب أى رواية من الروايات المماثلة مما قد لا نكون اطلعنا عليها، ونعتقد أن أى رواية من مثل ذلك لن تكون إلا مخترعة أو مدسوسة بقصد سيئ أو ناتجة عن لبس وخطأ على أقل تقدير. فإنه مما لا يصح أن يشك فيه أن أصحاب رسول الله قد حرصوا كل الحرص واهتموا أشد الاهتمام للقيام على أمر تحريره وضبطه على أحسن وجه وأقومه، وأنهم تضامنوا فى ذلك كل التضامن حتى كان مصحف أبى بكر الإمام المتطابق لما مات النبى ﷺ عنه نصاً وترتيباً، وأنهم كانوا مسوقين فى حرصهم واهتمامهم بسائق دينى ملك عليهم مشاعرهم رهبة وهيبة وتقديساً وتعظيماً يبدو واضحاً لكل من دقق فيما ورد عن أصحاب رسول الله ﷺ وأولى الشأن فيهم من ثناء وتنويه فى القرآن ومن ثناء وتنويه من النبى ومن وصف شدة فنائهم واستغراقهم فى النبى، وعمق إيمانهم بنبوته وبصلة القرآن، بالوحى القرآنى فالعمل لم يكن عملاً شخصياً أو سياسياً بل عملاً متصلاً بأقوى عمد الدين وأعظم مظاهر النبوة وأكبر تراث خلفه النبى فيهم، فمن المعقول الحق أن يكون حرصهم على استقصائه وتحريره وضبطه أشد حرص وأقومه وأتمه.

وننبه على أننا استعملنا تعبير " جميع ما مات النبى عنه وهو قرآن" ولم نستعمل تعبير " جميع القرآن الذى نزل على النبى" قصدا لأن فى القرآن نصوص صريحة مكية ومدنية مثل :

١- ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾. (البقرة : ١٠٦)

٢- ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل...... ﴾ (النحل : ١٠١)

تفيد أنه وقع بعض التبديل والنسخ فى بعض آيات القرآن فى عهدى النبى المكى والمدنى بوحى الله مما هو مؤيد بأحاديث عديدة مثل حديث مروى عن أبى موسى الأشعرى جاء فيه " نزلت سورة

http://kotob.has.it

نحو براءة ثم رفعت" ومثل حديث أخرجه الطبراني عن ابن عمر جاء فيه أن النبي ﷺ أقرأ رجلين سورة فكانا يقرآن بها فقاما ذات ليلة يصليان فلم يقدرا منها على حرف فأصبحا غاديين على رسول الله ﷺ فذكرا له ذلك فقال إنها مما نسخ فالهوا عنها، ومثل حديث رواه البخاري عن أنس أنه نزل في قصة أصحاب بئر معونة قرآن قرأناه ثم رفع إلخ.

ولقد أدرنا الكلام في الفقرة السابقة في نطاق الروايات المروية المتعارضة والتعليقات الواردة عليها، وما يتسق مع طبائع الأمور والظروف وما لا يتسق ونقول الآن إن في القرآن ملهمات تؤيد النتائج التي قررناها، وتوثق الروايات التي تستند إليها، وتدل أو تقوم قرينة على أن القرآن كان يدون بانتظام ويحفظ بانتظام وأن آياته قد رتبت في السور وسوره قد رتبت في تسلسل في حياة النبي عليه السلام مما يعد جديداً في هذا الباب لم نطلع على مثله.؟

فأولاً إن في بعض السور آيات احتوت قرائن قوية على أن ما كان ينزل من القرآن كان يدون حال نزوله وأن مدوناته كانت تحفظ وتتلى على ملأ الناس :

١- ففي سورة القيامة الآيات التالية :

﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأته فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه﴾ (١٦-١٩) فهذه الآيات جاءت معترضة بين آيات متصل قبلها بما بعدها اتصال موضوع وخطاب ونظم، في حين أنها غير متصلة بهذه الآيات موضوعاً ولا خطاباً ولا نظما كما يبدو حين قراءة السياق بطوله[1].

وقد روى بمناسبتها حديث يستفاد منه أنها نزلت على النبي لأنه كان حينما يتلقى وحي القرآن يحرك شفتيه بما ينزل على قلبه خشية نسيانه ووجود هذه الآيات في موضعها يلهم بقوة أنها أوحيت إلى النبي في أثناء نزول الآيات التي قبلها والتي بعدها. ولا يصح فرض غير هذا فيما نعتقد لفهم حكمة وجودها في السياق، ولا مناص من فرض ثان مع الفرض الأول وهو أن النبي ﷺ أمر بتدوين آيات السور فور وحيها، وأملى على الكاتب هذه الآيات في سياق آيات السورة لأنها أوحيت إليه مع

---

[1] لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوى بنانه بل يريد الإنسان أن يفجر أمامه يسأل أيان يوم القيامة فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الإنسان يومئذ أين المفر كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ... ﴾ إلخ

http://kotob.has.it

آيات السورة، مع أنها كانت خطاباً خاصاً له وبقصد تعليمه كيفية تلقى الوحى فدونت كما جاءت.
وفى هذه الآيات فى موضعها ملهمات أخرى عظيمة الخطورة أيضاً فى صدد القرآن، فهى تقف أمام أى شك حتى من أشد الناس تشككاً بأن ما كان يبلغه النبى من آيات القرآن إنما كان وحياً يشعر به فى أعماق نفسه ويدركه ويستمع إليه بأذن بصيرته ويعيه بقلبه، وهى تبين مقدار عظيم حرصه على أن لا يفلت منه أى كلمة أو حرف أو معنى مما كان يوحى إليه به قرآناً، فكان يسارع إلى ترديده وإملائه حتى يبلغه تاماً كاملاً لا تبديل فيه ولا زيادة ولا نقصاً ولا تقديماً ولا تأخيراً وهى تقرر معنى من معانى العصمة النبوية فى صدد ما يبلغه النبى من وحى القرآن الربانى فى توكيدها بأن الله سيثبت فى قلبه ما يلقى عليه ويجعله يحيط به ويلهمه فهمه وبيانه، فالنبى بهذا قد عصم من الغلط والنسيان والخطأ والتقديم والتأخير والزيادة والنقص فى القرآن، فكل ما بلغه من آيات القرآن هو وحى ربانى، وقد بلغ كل ما أوحى إليه به بتمامه وحرفيته، ولعلها تقوم قرينة على أن لا محل ولا معنى للقول بأن القرآن نزل على النبى ﷺ بالمعنى لا باللفظ أيضاً. وإذا لاحظنا أن ضمير الآيات هو ضمير المتكلم وأن القرآن كلام الله وأوامره أمكننا أن نقول إن فى الآيات دلالة على أن القرآن كان وحياً ربانياً مباشراً ينقذف فى قلب النبى ﷺ فيعيه ويبلغه، أو على الأقل إن هذه الطريقة من الطرق التى كان يوحى الله على النبى بما يشاء أن يوحى إليه به وهذا القول يتسق مع طرائق اتصال الله بأنبيائه على ما جاء فى آيات سورة الشورى (٥١-٥٢) التى شرحناها فى بحث سابق. كذلك فإن هذه الآيات تفيد أن ما كان يوحى به إلى النبى عليه السلام كان النبى يبادر إلى الأمر بتدوينه وتسجيله حتى ولو كان موضوعه خاصاً به وبصدد تعليمه تلقى الوحى واستيعابه، وأن النبى قد جرى على هذا منذ أوائل نبوته لأن هذه السورة من أوائل القرآن نزولاً. وهذا المعنى عظيم من وجهة عصمة النبى فى تبليغ كل ما كان ينزل على قلبه من وحى الله بما فى ذلك من خطرات النفس وأسلوب تلقى القرآن والتصرف الشخصى أو الحركة الشخصية اللاشعورية، وهو مؤيد بآيات عديدة علقنا عليها فى مناسباتها من التفسير الكامل الذى كتبناه.

٢- فى سورة طه آية فيها مشهد مماثل لهذا المشهد فى معناه وظروفه وهى هذه :

﴿ فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل ربى زدنى علما....﴾
(طه : ١٥)

وكل ما قلناه بشأن الآيات السابقة يصح بشأن هذه الآية

http://kotob.has.it

٣- فى سورة الشعراء سلسلة طويلة من قصص الأنبياء، وكل من هود وصالح ولوط وصفوا بصفة أخيهم إلا شعيباً فإن هذه الصفة لم تلحق به فى حين أنها ألحقت به فى فصول سور أخرى[1] فهذا يلهم بقوة أن الفصول القرآنية دونت كما أنزلت على قلب النبى ولم يكن فيها وصف الأخ لحكمة يعلمها منزل الوحى. ومع أن بعض العلماء قالوا إن مدين التى وصف شعيب فى سياق قصتها بأخيهم فى سور الأعراف وهود والعنكبوت هى غير أصحاب الأيكة الذين ذكرت قصتهم سورة الشعراء فإن بعضهم قال إنهم واحد. ويلاحظ أولاً بأن الكلام عن أصحاب الأيكة مماثل للكلام عن أصحاب مدين وثانياً أنه لم يجمع فى آية واحدة بين الفريقين[2] وهاتان الملاحظتان تسوغان الترجيح إن لم نقل الجزم بأنهما واحد وتجعلان ما استدللنا عليه فى هذه النبذة فى محله.

٤- ومن هذا الباب الآية التى ذكر فيها إسماعيل واليسع وذو الكفل فى سورة ص (٤٨) فكل الأنبياء الذين ذكروا فى الآيات المتقدمة أى داود وسليمان وأيوب وإبراهيم وإسحق ويعقوب وصفوا بعبد الله وبعباد الله إلا الأنبياء الثلاثة الذين ذكروا فى الآية (٤٨) فهذا يلهم بقوة أيضاً أن الفصول دونت فوراً كما أنزلت على قلب النبى ولم يكن فيها وصف عبادنا للأنبياء الثلاثة لحكمة يعلمها منزل الوحى كذلك.

٥- ويسلك فى هذا الباب أيضاً آيات متشابهة الألفاظ فيها تقديم أو تأخير كلمة فحسب مثل آية المؤمنون(٨٣) " لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل" فى حين أن آية مماثلة فى سورة النمل (٨٦) قد تقدمت فيها كلمة " هذا" كما ترى فيها لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل" حيث يصح ما قيل فى الفقرتين السابقتين فيها ويستدل منها على الإملاء والتدوين الفوريين.

٦- وفى سورة النحل موضوع طريف فى صدد ما نحن بسبيل تقريره. فقد اقتضت الحكمة الربانية تبديل آية مكان آية فاستغل المشركون الحادث استغلالاً عظيماً حتى كان من نتيجة ذلك أن ارتد بعض ضعفاء الإيمان فى مكة كما يستلهم من آيات السورة هذه :

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ إِنَّ الَّذِينَ لاَ

---

[1] اقرأ آيات الأعراف ٨٥-٩٣ وهود ٨٤-٩٥ والعنكبوت ٣٦-٣٧ مثلاً.

[2] اقرأ مثلاً آيات سورة ق ١٣-١٤ و١٢-١٣ والتوبة ٧٠ والحج ٤٣-٤٤.

http://kotob.has.it

يُؤْمِنُون بِآيَاتِ اللّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُون بِآيَاتِ اللّهِ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْكَاذِبُون مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

فهذا الحادث يلهم أن آيات القرآن كانت مدونة فأمر النبى بوضع آية مكان آية وفقاً لما أوحى إليه فكان ما كان من موقف الكفار، ويسوغ القول أن القرآن لا بد من أنه كان مدوناً يتلى حتى يكون مجالاً لهذا الموقف.

فهذه عدة أمثلة متصلة بعدة سور مكية متفاوته فى فترات نزولها حتى ليصح أن يقال إن منها ما نزل أوائل عهد مكة ومنها ما نزل بعدها بقليل ومنها ما نزل فى أوسطه تحتوى دلائل على أن القرآن كان يدون حال نزوله ويتلى وينشر بين الناس ويسمعه المشركون كما يتداوله المسلمون أيضاً.

٧- إن القرآن المكى احتوى آيات كثيرة تصف القرآن بالكتاب – وهذه الكلمة تأتى بمعنى المكتوب أيضاً – ومنها ما يجمع بين الكلمتين معاً "الكتاب والقرآن"[١] أى الكتاب المقروء المكتوب[٢] وتنوه بخطورته وتشير إليه كأعظم مظهر وآية للنبى والنبوة وتذكر أنه أنزل ليتلى على الناس، وأن فيه متنوع الأمثال ليتدبروا آياته ويعقلوها، وأنه أنزل على النبى ليبين لهم ما أنزل إليهم من ربهم ويوضح لهم ما اختلفوا فيه كما يستفاد منها أن القرآن نفسه كان موضوع جدل رئيسى بل أهم موضوع جدل بين النبى والمشركين فى مكة[١] فكل هذا يلهم أنه كان يدون وتتلى مدوناته على الناس مسلمين ومشركين كما يلهم أن المسلمين أيضاً كانوا يدونون ليتدبروا ويتذكروا ويتعلموا ويتفقهوا فيه.

---

[١] مثل ﴿الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين.. ﴾ الحجر و ﴿طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين﴾ (النمل : ١)

[٢] يرجع بعض علماء اللغة العربية أن كلمة القرآن مصدر من مصادر "قرأ" ونحن نعتقد أنها متصلة بجذر "قرأ" على كل حال وقد قال بعض المستشرقين إنها دخيلة عبرانية ولا نرى لهذا مبرراً لأن جذر قرأ أصلى فى اللغة العربية : على أن ما لا شك فيه وأن الكلمة بصيغتها كانت مستعملة قبل نزول القرآن وليس من الضرورى أن تكون دخيلة عبرانية معربة إذا لا حظنا خاصة أن اللغة العربية والعبرانية تمتان إلى أصل واحد وأن كثيرا من الجذور فيها متحد.

[١] هذه الآيات كثيرة جدا ومنبثة فى مختلف السور المكية مما يجعلنا فى غنى عن التمثيل لها.

http://kotob.has.it

٨- فى سورة الفرقان آية تلفت النظر وهى : ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها[٢] فهى تملى عليه بكرة وأصيلا.﴾ فهذه الآية تلهم أن القول ليس مما يرمى جزافاً وإنما هو مستند إلى مشاهدة بأن آيات القرآن وسوره كانت تدون وتتلى على الناس فى صحف فكان المشركون يصفونها بهذه الصفة، ويريدون بذلك أن النبى كان يستكتبها عن كتب الأولين وأساطيرهم.

٩- فى سورة الواقعة الآيات التالية : ﴿إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون..﴾ (٧٧-٧٩) وفى سورة عبس الآيات التالية : ﴿فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدى سفرة كرام بررة﴾ ١٣-١٦ فهذه الآيات وتلك وإن كانت تشير إلى صلة القرآن بالملائكة وطهارة أصله ومصدره وكرامته فإن روح عباراتها تلهم أيضاً بقوة أن القرآن صار مكتوباً فى صحف وصار لهذه الصحف واجب التكريم فلا يمسها إلا المطهرون. وهذا ما كان يجرى فعلاً كما جاء فى الروايات الوثيقة وخاصة فى رواية إسلام عمر وصحيفة القرآن التى كانت فى يد أخته ورفضها تسليمها إليه إلا بعد أن يتطهر[١] وأصل التقليد الإسلامى الفقهى بعدم جواز مس المصحف إلا على طهارة هو من هذا الباب.

١٠- فى سورة الحجر هذه الآية ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر[٢] وإناله لحافظون﴾ (٩) فهذه الآية إن احتوت وعد الله بحفظ القرآن فإنها احتوت تلقينا توجيهاً للنبى بتدوينه وحفظه أيضاً.

١١- لقد كثر فى القرآن المكى ترديد ذكر أهل الكتاب وكتبهم، وتقرير معنى التطابق بين القرآن وبين هذه الكتب، والاستشهاد بأهل الكتاب على صحته ووصف مواقفهم حينما كانت تتلى عليهم آيات القرآن وطبيعى أن النبى ﷺ كان يعرف أن الكتب السماوية متداولة فى أيدى اليهود والنصارى ومكتوبة فى صحف وقراطيس، ومجموعة فى أسفار أو سجلات، فمهما لا ريب فيه أن الآيات التى احتوت ذلك قد احتوت تلقيناً توجيهياً للنبى والمسلمين بأن يدونوا الفصول القرآنية ويجمعوها فى أسفار وسجلات أسوة بتلك الكتب التى نزل القرآن مصدقاً لها ومتطابقاً فى أسسه وروحه ومصدره معها، ولا يعقل إلا أن يكون النبى والمسلمون قد اعتنوا كل العناية بهذه النقطة.

وثانياً : إن فى القرآن المكى ملهمات عديدة لترتيب الآيات فى السور وتأليف السور فى حياة النبى ﷺ.

---

[٢] تأتى بمعنى استكتبها كما ذكر الزمخشرى فى الكشاف.

[١] ابن هشام ج٢.

[٢] يعنى القرآن.

http://kotob.has.it

١- فقد تكرر فيه كلمة " سورة" وخاصة فى معرض تحدى المشركين وجاءت مرة بتحديهم بالإتيان بسورة ومرة بعشر سور كما ترى فى آيتى يونس وهود هاتين.

أ- ﴿أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله﴾ (يونس : ٣٨)

ب- ﴿ أم يقولون افتراه قل فاتو بعشر سور مثله مفتريات﴾ (هود : ١٣)

وعبارة الآيات لا تدع مجالاً للشك فى أن مدلول السورة هو مجموعة مستقلة من الآيات أو الفصول القرآنية، ولا تدع مجالاً للشك كذلك فى أن مجموعات القرآن حينما نزلت هذه الآيات – وترتيب السورتين يلهم أنهما مما نزل فى أواسط العهد المكى – كانت سوراً مستقلة تامة حتى يصح التحدى والتمثيل وطبيعى أن هذا الأسلوب قد ظل العمل به مستمراً.

٢- إن السور المكية المسجعة أو الموزونة أو المقفاة[1] خمس وستون سورة بما فيها الرحمن والإنسان والزلزلة التى نرجح مكيتها والتى ذكرت مكيتها روايات عديدة فى حين أن بعض الروايات قال إنها مدنية منها أربع وخمسون قصيرة هى الفاتحة والناس والفلق والإخلاص وأبى لهب والكافرون والكوثر والماعون وقريش والفيل والهمزة والعصر والتكاثر والقارعة والزلزلة والعاديات والقدر والعلق والتين والانشراح والضحى والليل والشمس والبلد والفجر والغاشية والأعلى والطارق والبروج والانشقاق والمطففون والانفطار والتكوير وعبس والنازعات والنبأ والمرسلات والإنسان والقيامة والمدثر والمزمل والجن ونوح والمعارج والحاقة والقلم والملك والواقعة والرحمن والقمر والنجم والطور والذاريات وق، ووحدة الموضوع فى هذه السور بارزة بروزاً تاماً فالغرض الصحيح الذى نعتقد أنه لا يصح غيره هو أنها نزل كل منها دفعة واحدة وكسبت شخصيتها كسور مستقلة. وإذا كان من الممكن أن يكون استثناء فهو قليل بالنسبة إلى هذا العدد الكبير من جهة، وهو فى الوقت نفسه ليس استثناء ينقض هذا الغرض فى جوهره من جهة أخرى وقد احتطنا بهذا الاستدراك من أجل ما روى من أن آيات العلق الأولى هى أول ما نزل وأنها نزلت منفردة مما يبرره مضمون آيات السورة ومن أجل ما روى من مثل ذلك بالنسبة إلى آيات سور المزمل والمدثر والقلم الأولى مما

---

[1] الفرق فيما نعتقد هو أن الأصل فى المسجوع ووحدة القافية دون التزام التوازن وأن الأصل فى الموزون هو التوازن دون التزام وحدة القافية. ومن الممكن أن يكون المسجوع موزوناً أيضاً وفى القرآن نماذج لكل ذلك وهناك سورة احتوت فصولا متنوعة فى الوزن والقافية أيضاً وفى كتابنا عصر النبى وسننه قبل البعثة عرض وبحث فى هذا الباب فى فصل اللغة العربية.

http://kotob.has.it

يبرره كذلك مضمون آيات السورة[١] ثم من أجل ما روى من أن الآية الأخيرة من سورة المزمل مدنية وليست مكية مما يبرره مضمونها أيضاً.

٣- إن التدقيق فى فصول بقية السور المسجعة أو الموزونة المتوسطة إلى سور ص والصافات ويس وفاطر والشعراء والفرقان وطه ومريم والكهف والإسراء والحجر يظهر تلاحق فصولها وانسجامها بالإضافة إلى تسجيعها وتوازنها، وهذا وذاك يلهمان أو يحملان على الترجيح بأنها هى الأخرى نزلت دفعة واحدة أو فصولاً متتابعة بدون اعتراض بفصول من سور أخرى إلى أن تم كل منها واكتسب شخصيته كسور مستقلة.

٤- إن السور المكية غير المسجعة وغير الموزونة ست وعشرون وهى الأحقاف والجاثية والدخان والزخرف والشورى وفصلت وغافر والزمر وسبأ والسجدة ولقمان والروم والعنكبوت والقصص والنمل والمؤمنون الحج[١] والأنبياء والنحل وإبراهيم والرعد[٢] ويوسف وهود ويونس والأعراف والأنعام ووصفنا إياها بغير المسجوعة وغير الموزونة هو من وجه عام، وقد احتوى بعضها فصولاً مسجوعة أو موزونة أيضاً، ومن هذه السور تسع ضاربة إلى القصر أكثر منها إلى التوسط وهى الأحقاف والجاثية والدخان والزخرف والشورى وفصلت وسبأ والسجدة ولقمان وباقيها متوسط وقريب من الطويل وطويل. ومع أنها غير مسجعة وغير موزونة الآيات كما قلنا فإن خواتم آياتها مركزة والذي يمعن فيها يجد تلاحقاً فى السياق وترابطاً فى الفصول، ويجد أكثرها ذا وحدة موضوعية أيضاً وكل هذا يلهم أن الضاربات إلى القصر منها قد نزلت دفعة واحدة وأن ما يحتمل أن لا يكون نزل دفعة واحدة من باقى السور قد نزل فصولاً متتابعة من دون اعتراض بفصول من سور أخرى. إلى أن تم كل منها واكتسب شخصيته المستقلة. وما جاء فى الرقمين ٣و ٤ يمكن توثيقه بميزات القرآن المكى والعهد المكى. فإن هذا العهد كان عهد دعوة، وأحداثه متشابهة من حيث كونها مواقف دعوة وحض وإنذار وتبشير وتنديد وتذكير ووعظ من جانب النبى، ومواقف إنكار وعناد ومكابرة وجدل وتحد وأذى من جانب الكفار، والقرآن المكى قد دار جميعه على هذه المواقف المتشابهة فطبيعة هذا العهد لا تقتضى كما يبدو مستقيماً نزول فصل من سورة ثم تعقيبه بفصل من

---

[١] فى مبحث أوليات الوحى فى الجزء الأول من كتابنا سيرة الرسول بيان واف لذلك.

[١] أدخلنا الحج لترجيحنا أن جل آياتها مكى وبعض الروايات تذكرها فى عداد السور المدنية.

[٢] بعض الروايات تذكر سورة الرعد فى عداد المدنيات وبعضها تذكرها فى عداد المكيات وأسلوبها ومضمونها يحملان على ترجيح مكيتها.

http://kotob.has.it

سورة أخرى وقبل أن تتم فصول السورة السابقة. وتلاحق فصول السور المكية المتوسطة والطويلة وانسجامها بل ووحدة الموضوع فيها بوجه الإجمال مما يقوم دليلاً قوياً على ذلك.

٥- إن سبعا وعشرين سورة من السور المكية المتنوعة تبتدىء بحروف متقطعة وهي القلم ون والأحقاف والجاثية والدخان والزخرف والشورى وفصلت وغافر وص ويس والسجدة ولقمان والروم والعنكبوت والقصص والنمل والشعراء وطه ومريم والحجر وإبراهيم والرعد ويوسف وهود ويونس والأعراف، وسبع عشرة منها وجلها من القصار تبتدىء بالأقسام وهي والعصر والعاديات والتين والضحى والليل والشمس والفجر والبلد والطارق والبروج والنازعات والمرسلات والقيامة والنجم والطور والذاريات والصافات وتسعا وهي متنوعة أيضاً تبتدئ بالثناء والحمد والتسبيح وهي الفاتحة والأعلى والملك وفاطر وسبأ والفرقان والكهف والإسراء والأنعام، وتسعاً أخرى كلها من القصار تبتدئ بالاستفهام وهي الماعون والفيل والانشراح والقارعة والغاشية والنبأ والإنسان والمعارج والحاقة وتسعا أخرى من القصار كذلك تبتدئ بخطاب النبي نداء أو أمراً وهي الناس والفلق والإخلاص والكافرون والكوثر والعلق والمدثر والمزمل والجن، وأربعة منها تبتدئ بالدعاء والإنذار وهي المسد والهمزة والتكاثر والمطففون وخمساً منها تبتدئ بحرف إذا التنبيهي أو التذكيري وهي الزلزلة والانشقاق والانفطار والتكوير والواقعة، أي أن ثمانين سورة مكية من مجموع إحدى وتسعين ذوات مطلع خاص فيه دلالة ما على شخصية السورة واستقلالها. أما بقية السور المكية فمنها سبع قصار مسجوعة هي قريش والقدر وعبس ونوح والرحمن والقمر والزمر يجرى عليها ما قلناه من طابعها البارز الذي يدل على نزولها دفعة واحدة واكتسابها شخصيتها، والأربع الأخرى وهي المؤمنون والحج والأنبياء والنحل فإن مطالعها تلهم بدء سورة خاصة مستقلة إذا ما أمعن النظر فيها.

وثالثاً : إذا صح ما قلناه واستلهمناه من آيات القرآن المكي وأساليب نظمه من أن القرآن المكي كان يدون فوراً ويحفظ بانتظام وهو ما نعتقد بصحته فإن هذا ما ينبغي أن يكون صحيحاً من باب أولى بالنسبة للقرآن المدني بطبيعة الحال لأن الحالة بعد الهجرة أصبحت أعظم خطورة من ناحية الدعوة وتطورها إلى تشريع وتركيز، وأصبح المسلمون أكثر طمأنينة واستقراراً، وهذا يتسع للتدوين، والحفظ ويقتضيهما من باب أولى. ثم إنه كان في المدينة جالية كبيرة من اليهود، وكان لها أحبارها وربانيوها وقضاتها ومدارسها وكتبها، وقد نشب بينها وبين النبي عليه السلام منذ حلوله في المدينة تشاد وخلاف وجدل حول الدعوة والقرآن والتوراة والأنبياء، وهذا كله سائق لتدوين القرآن وحفظه بانتظام كذلك.

http://kotob.has.it

فليس من مبرر للشك قط فى أن ما جرى عليه النبى والمسلمون فى مكة من تدوين القرآن فوراً وفى الصحف والقراطيس لم يظل مستمراً فى العهد المدنى.

بالإضافة إلى هذا فإن في القرآن المدنى أمثلة مشابهة لما ذكرناه فى صدد تدوين القرآن المكى، ففى سورة البقرة آيتان متشابهتان مع فرق قليل فى النظم وهما هاتان:

١- ﴿واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولاهم ينصرون﴾ (٤٨)

٢- ﴿واتقوا يوماً لا تجزى نفسن عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولاهم ينصرون﴾ (١٢٣)

وفى سورتى البقرة وآل عمران الآيتان التاليتان :

١- ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون... ﴾

(البقرة : ١٣٦)

٢- ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ... ﴾

(آل عمران : ٨٤)

وفى سورة التوبة آيتان متشابهتان مع فرق قليل فى النظم كذلك وهما هاتان:

١- ﴿فلا تجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون.. ﴾ (٥٥)

٢- ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون... ﴾ (٨٥)

والسياق قد يلهم أن كلاً من آيتى البقرة قد نزل فى سياق طويل فى مجلس واحد، والفرق فى النص يلهم أن كلاً منهما قد دون فوراً بعد نزولهما كما أملاهما النبى عليه السلام، وكذلك الأمر فى آيتى التوبة أيضاً والبقرة من أوائل ما نزل والتوبة من أواخر ما نزل من القرآن. وهذا يعنى أن التدوين بدأ منذ أول العهد المدنى واستمر إلى آخره.....

والفرق فى آيتى البقرة وآل عمران المتشابهتين يلهم ما تلهمه الآيات الأخرى من فورية التدوين بطبيعة الحال.

أما من حيث ترتيب آيات القرآن المدنى فى السور ومن حيث شخصيات سوره فالناظر يجد :

http://kotob.has.it

١- أن سورتين منها تبتدئان بحروف متقطعة هما البقرة وآل عمران، وثماني منها تبتدئ بنداء النبي وتوجيه الخطاب إليه وهي النصر والتحريم والطلاق والمنافقون والمجادلة والفتح والأحزاب والأنفال، وخمساً منها تبتدئ بالتسبيح وهي التغابن والجمعة والصف والحشر والحديد وثلاثاً تبتدئ بخطاب المؤمنين وهي الممتحنة والحجرات والمائدة، أي أن ثماني عشرة سورة من مجموع ثلاث وعشرين ذوات مطالع تلهم أنها مبادئ سور وتلهم أن سورها ذوات استقلال وشخصية أما باقي السور المدنية وهي البينة ومحمد والنور والتوبة والنساء فمطالعها هي الأخرى تلهم استقلالها وشخصية سورها إذا ما أمعن فيها ولو لم تكن ذات طابع مطلعي خاص.

٢- إن من السور المدنية اثنتين قصيرتين جداً وهما النصر والبينة وثلاث عشرة قصاراً وهي التحريم والطلاق والتغابن والمنافقون والجمعة والصف والممتحنة والحشر والمجادلة والحديد والحجرات والفتح ومحمد وباستثناء اثنتين منهما وهما الجمعة والمجادلة فإن جميعها أي ثلاث عشرة من خمس عشرة ذوات موضوع واحد وهذا يلهم أنها نزلت وكسبت شخصيتها دفعة واحدة. كذلك فإن إحدى السور المتوسطة وهي الأنفال ذات موضوع واحد وفصولها تلهم أنها نزلت دفعة واحدة هي الأخرى.

٣- إن السور التي احتوت مواضيع عديدة وفصولاً متنوعة وغير مترابطة أحياناً تسع منها اثنان قصيرتان هما الجمعة والمجادلة، واثنتان متوسطتان هما الأحزاب والنور، وخمس طوال هي التوبة والمائدة والنساء وآل عمران والبقرة وفي الحق إن مواضيع هذه السور وفصولها تلهم أنها لم تنزل دفعة واحدة ولا فصولا متتابعة بدون اعتراض، وتلهم أنها ألفت تأليفا على ما هي عليه في المصحف بعد تكامل فصولها من دون سائر السور القرآنية المكية، والمدنية ونرجح أن الكلام والتخمين في أمر ترتيب آيات القرآن في سورها قد كان بسبب هذه السور وحولها في الدرجة الأولى، لأن وحدة موضوع سائر السور ونظمها وتلاحق سياقها وتناسب فصولها المتتابعة يلهم وحدة النزول أو التتابع فيه والذي نعتقد أن ترتيب آيات فصول هذه السور على الوجه الذي هو عليه في المصحف المتداول قد كان في حياة النبي وبأمره وأن ما ورد عن زيد بن ثابت وهو أنصاري – في حديث تأليف القرآن من الرقاع على عهد النبي ﷺ [1] وما جاء من أحاديث تتضمن أن النبي كان يوحى إليه بفصل قرآني من السور ذوات العدد كما جاء في حديث عثمان[1] أو بكلمة ثانية ذوات

---

[1] المجموعة الثالثة.

[1] المجموعة الثالثة.

http://kotob.has.it

الفصول المتعددة ويمليه على كتاب وحيه يأمرهم بوضعه في مكان من سورة بعينها لهم هو الصورة الصحيحة الصادقة لما كان يقع خاصة فى صدد هذه السور المدنية السبع.

ولعل من ملهمات القرآن على صحة ذلك التناسب البارز بين كثير من الفصول فى هذه السور وخاصة فى السور الطويلة موضوعاً أو مدى أو مفهوماً أو مناسبة حينما يمعن النظر فيها مما نبهنا عليه في التفسير من مثل تسلسل الأمثلة وأجوبتها التشريعية فى سورة البقرة، وتسلسل فصول أحكام الأسرة في سورة النساء وتسلسل فصول أهل الكتاب في سورة المائدة، وتسلسل فصول الجهاد ومواقف المشركين والمنافقين في سورتي آل عمران والتوبة، وتسلسل الفصول التأديبية والتعليمية والإرشادية وما يتصل بمشاكل الأسر في سورة النور، وتناسب فصول سورة الأحزاب في الحملة على المنافقين والكفار والتنديد بمواقفهم المختلفة من جهة وتناسب فصولها الأخرى في صدد التأديب والأنكحة في حين أن من هذه الفصول والآيات ما نزل متأخراً أو ما نزل متقدماً أو ما نزل بعد فصول سور أخرى إلخ مما نبهنا عليه في التفسير وما يمكن أن نتمثل عليه بفقرة من آية النساء (٢٥) التي تذكر أن على الإماء المحصنات نصف ما على الحرائر من الحد، حيث وضعت هذه الفقرة في الآية لمناسبة السياق في حين أنها نزلت حتماً بعد آية سورة النور (٢) التي تذكر الحد على الزناة.

ولعل من ملهمات القرآن كذلك على ترتيب آيات وفصول هذه السور المتنوعة الفصول في حياة النبي الآية الأخيرة من سورة النساء في وارث الكلالة، حيث يلهم وضعها أنها نزلت متأخرة وبعد أن تم تأليف السورة فألحقت بأمر النبي بالسورة ولو بآخرها لأن الموضوع الذى تتصل به قد جاء في سورة النساء. ولو كانت فصول سورة النساء وآياتها لم ترتب على عهد النبي وبأمره أو لو كانت هذه السورة غير مرتبة الآيات والفصول حينما نزلت الآية لكانت وضعت على ما يبدو مستقيماً في سياق فصل التوارث مثل عقوبة الإماء المحصنات التي وضعت في مناسبتها، وهذه ظاهرة خطيرة أو بالأحرى دليل قرآني حاسم على أن ترتيب السور إنما تم في حياة النبي وأمره.

ومن هذه الملهمات آية الأحزاب(٤٩) بشأن عدة المطلقة بدون مس ودخول. وقد احتوت البقرة سلسلة آيات بهذا الشأن (٢٣٥-٢٤١) وقد انصبت كلها على مهورهن. أما آية الأحزاب فذكرت عدم وجوب العدة عليهن. فلو كانت سورة البقرة لم يتم ترتيبها في عهد النبي عندما نزلت آية الأحزاب لكان المتبادر أن تلحق بسلسلة البقرة للتناسب الوثيق ولما وضعت في سورة الأحزاب كفصل خاص لا صلة له بسابق ولا لاحق. ومن باب أولى أن يكون ذلك لو كان الترتيب تم في عهد أبي بكر.

http://kotob.has.it

ولقد يرد أن هناك آيات مدنية فى سورة مكية، وآيات مكية فى سور مدنية، وأن هذا قد يقوم قرينة على أن السور المكية لم تكن تامة الترتيب فى العهد المكى ونقول من حيث الأساس إن الآيات المدنية المروية فى السور المكية ليست كبيرة العدد حتى مع التسليم بصحة رواية مدنيتها جميعها. ففى مصحف مصطفى نظيف قدورى أو على المطبوع من قبل عبد الحميد أحمد حنفى والمصدق عليه من قبل اللجنة المعينة بأمر الملك فؤاد(١٤٧) آية قيل إنها مدنية فى(٣٤) سورة من مجموع الآيات البالغ عددها أربعة آلاف ونيفا، فليس مما ينقض ما قررناه وجود هذه الآيات فى هذه السور بحيث يمكن أن يفرض أن النبى أمر بإضافة هذه الآيات إلى المكان المناسب لها فى السور المكية لتناسب السياق أو الموضوع أو لتدعيمه، ولا يترتب على هذا أن تكون السور المكية مرتبة قبل ذلك. هذا مع أن دمج هذه الآيات فى سياق مناسب لها فى سور مكية يدل دلالة قوية على العكس، أى على أن الآيات المكية كانت مرتبة فى سورها من جهة وعلى أن ترتيب الآيات فى السور قد كان فى حياة النبى وأمره بل وعلى أن عملية التأليف والترتيب والتركيز كانت مستمرة بأمر النبى وتناسب الموضوع وتلازمه بين الآيات المدنية التى لا تحتمل مدنيتها شكاً فى السور المكية وهى آخر آية فى سورة المزمل وآخر آية فى سورة الشعراء والآيات ١٦٤-١٧١ فى سورة الأعراف تعد دليلاً قرآنيا على أن وضعها كان بأمر النبى، ومؤيداً لما نحن فى صدد تقريره، فآية المزمل الأخيرة تخفف التكليف الذى كلف به النبى فى أولها من قيام الليل وتعذر المسلمين بسبب كثرة مشاغلهم وواجباتهم التى منها القتال الذى لم يكن إلا فى العهد المدنى، وآية الشعراء تستثنى الشعراء المسلمين الذين كانوا يقاتلون شعراء المشركين على هجومهم النبى والمسلمين من النعت الذميم الذى نعت به الشعراء وآيات الأعراف فى صدد حادثة عدوان اليهود فى يوم السبت وما كان من غضب الله عليهم بسببه وقد وضعت فى سلسلة قصة بنى إسرائيل وبدئت بأمر النبى بتذكير يهود المدينة بأمرهم. فالتناسب قائم بين الآيات المدنية والفصول المكية كما هو ظاهر.

أما الروايات عن الآيات المكية فى السور المدنية فإنها قليلة جداً فهى فى المصحف الذى ذكرناه سبع آيات فى الأنفال (٣٠-٣٦) وآخر آيتى التوبة والآية (١٣) من سورة محمد وقد شككنا فى الروايات لأن مضامين الآيات وسياقها يحمل على التوقف بالإضافة إلى روايات أخرى تخالفها. ومع ذلك فعلى فرض صحتها فإنها ليس من شأنها أن تخل بما نقرره وأن تمنع أن يكون النبى قد أمر بإخراج بعض الآيات من سور مكية وإضافتها إلى سياق مناسب لها أكثر فى سور مدنية بل إن فى هذا نفس الدلالات التى ذكرناها آنفاً.

http://kotob.has.it

وعلى كل حال فليس من المعقول أن يتصرف الصحابة بعد النبى فينقلوا آيات من سور مكية إلى سور مدنية وآيات من سور مدنية إلى سور مكية البتة، وأنه لا يكاد يتحمل شكاً فى أن نقل آيات نزلت فى عهد إلى سور أو مجموعة آيات نزلت فى عهد آخر إنما يكون وقع فى حياة النبى ﷺ وبأمره.

وقد يرد ما ذكرته الروايات عن آخر الآيات نزولاً مثل آيات الدين أو الربا فى سورة البقرة، فعلى صحة هذه الروايات فإن ليس فيها ما ينقض ما قررناه من ترتيب آيات القرآن فى السور فى حياة النبى ﷺ وبأمره، إذ من الممكن والمعقول أن يفرض أن النبى ﷺ هو الذى أمر بوضعها فى مكانها التى هى فيه الآن كما كان شأن آخر آيات سورة النساء، بل وأن وجود هذه الآيات فى مواضعها ليقوم دليلاً على صحة هذا الفرض بل وعلى أن لا يكون إمكان لغرض غيره ففى سورتى البقرة وآل عمران مثلاً آيات مقاربة لموضوع الآيات المذكورة، فى سورة البقرة، فلو لم تكن الآيات موضوعة فى مكانها بأمر النبى لكانت وضعت هذه الآيات المتقارنة فى سلسلة واحدة. ويقاس على هذا غيره.

ورابعاً أما ترتيب السور فى تسلسلها على ما هو فى المصحف المتداول فليس فى القرآن ما يمكن أن يستلهم منه على أن ذلك قد تم فى حياة النبى ﷺ وبأمره، إلا قرائن قليلة قد لا تكون شافية منها عدم فصل سورة التوبة عن سورة الأنفال فى البسملة وتقديم الأنفال عليها مع أنها ليست من الطوال ولا من المئين. والسورتان إذا اجتمعتا تكونان سورة طويلة وتنسجمان مع السور الطوال الست السابقة. والثابت المؤيد بمضامين السورتين أن الأنفال من أوائل ما نزل فى المدينة فى حين أن التوبة من أواخر ما نزل فيها فورودهما واحدة وراء الأخرى وفى سلك الطوال ودون فاصل ببسملة يلهم أنه بأمر النبى إذ لو كان هذا الترتيب بعده لوضعت الأنفال فى سلسلة المثانى كما هو شأن سورتى النور والأحزاب المدنيتين اللتين جاءت كل منهما منفردة بين سور مكية ومنها ما يلاحظ من الشذوذ فى ترتيب السور الأطول وما يليها فسورة المائدة أقصر وأقل عدد آيات وحيزاً من سورتى الأنعام والأعراف بل ومن سورة التوبة بمفردها ولكنها جاءت قبلها. وسورة الشعراء من حيث عدد آياتها تأتى بعد سورة البقرة فهى أكثر عدد آيات من سائر السور الطويلة وسور المئين وقد جاءت مع ذلك بعد ثلاث وعشرين سورة كلها أقل عدد آيات منها، ومنها ما هو أقل حيزاً أيضاً وآيات سورة الصافات التى جاء ترتيبها متأخراً جداً أكثر عدداً من آيات سور النساء والمائدة والأنعام وهى أكثر آيات من جميع السور باستثناء البقرة والشعراء والأعراف والنساء وسورة إبراهيم والرعد والحجر أقل حيزاً وعدد آيات من سور النحل والإسراء والكهف ومريم وطه ومع ذلك فقد جاءت

http://kotob.has.it

قبلها، وسورة الأحزاب أكبر حيزاً وأكثر عدد آيات من سور الروم ولقمان والسجدة التي سبقتها، وسورة الأعراف أكثر عدد آيات وأكبر حيزاً من سورتي الأنعام والمائدة اللتين تقدمتاها وسورة القصص أكبر حيزا وأكثر عدد آيات من سورة الفرقان والنور والحج وأكبر حيزاً من سورة النمل التي تقدمتها. وسورة غافر أكبر حيزاً وأكثر عدد آيات من سور الزمر ويس وفاطر وسبأ وأكبر حيزاً من سورة ص التي تقدمتها ومثل هذا يقال في سورة الزمر وما تقدمها من بعض السور وما ذكرناه هو الشذوذ البارز وهناك غيره غير قليل مما يدخل في هذا النطاق من حيث الحيز وعدد الآيات أو الأمرين معاً بين السور المتوسطة والقصيرة ففي هذا على ما يتبادر لنا ملهمات بأن الترتيب قد كان بأمر النبي للحكمة التي رآها اجتهاداً أو بناء على وحي رباني، فلم يكن من شأن أصحابه من بعده أن يبدلوا أو يغيروا فيه ولو لم يكن الأمر كذلك لاجتهدوا في إتمام النسق وفقاً للترتيب الذي رأوه وجيهاً من تقديم الأطوال ثم الذي يليه دون ما شذوذ بارز على الأقل. وليست السور مرتبة بحسب مكيتها ومدنيتها أو بحسب نزولها حتى يعلل هذا الشذوذ بذلك وليس هذا بعسير التعيين والعمل كما يبدو للمدقق في السور.

وننبه على أننا هنا بسبيل الاستلهام من القرآن. ونعتقد أن ما قررناه تعليقاً على الروايات والأحاديث والأقوال بأن ترتيب الآيات في السور وترتيب السور في تسلسلها المتداول في حياة النبي وبأمره هو قوي بذاته فضلاً عن ما تلهمه القرائن القرآنية، وقوته مستمدة بنوع خاص من اتساقه مع طبائع الأمور والظروف، ومن سكوت جميع الروايات والأحاديث المتصلة بأصحاب رسول الله عن القول بأن تحرير المصحف في زمن أبي بكر ونسخ المصاحف في زمن عثمان قد استهدفا ترتيب آيات في سور أو سور في تسلسل أو تناولاه ولهذا دلالته الخطيرة، ومن أن مصحف عثمان هو نسخة طبق الأصل لمصحف أبي بكر وهو أصل المصحف المتداول في ترتيب آياته وسوره.

هذا وأخيراً نريد أن ننبه على أمر مهم في صدد هذه المباحث ومداها فإن ما تناولته إنما هو بسبيل البحث العلمي والتاريخي، وليس من شأنه أن يمس لب الموضوع، وهو كون القرآن المتداول بين المسلمين والذي هو في متناول الجميع سوره وفصوله ومجموعاته وآياته وكلماته ونظمه متصلاً بالنبي وصادراً عنه مباشرة بوحي رباني نزل على قلبه، وكون هذا لم يكن في وقت من الأوقات موضع أخذ ورد ومحل شك وتوقف من قبل المسلمين على اختلاف نحلهم وفرقهم وأهوائهم ومن لدن مشاهدي العيان في حياة النبي إلى الآن، كما أن صدوره مباشرة عنه لم يكن محل ريب من قبل غير المسلمين أيضا، وكون ما جاء ذكره في الروايات جميعها وعلى ما فيها من علل كثيرة من الآيات

http://kotob.has.it

والكلمات والحروف ولا يزيد على أكبر تقدير عن واحد في المئة من آيات القرآن التي تزيد على ستة آلاف ومئتين، وكلماته التي تزيد على سبعة وسبعين ألفاً وحروفه التي تزيد على ثلاثمئة ألف، وكون هذه النسبة التافهة جداً مع العلل الكثيرة التي تجعلها غير صحيحة ليس من شأنها أن تخل بتلك الحقيقة المسلم بها، وأن القرآن كان وظل ولن يزال معجزة النبي العظمى الخالدة أصفى منبع للأحكام والعقائد والتشريع الإلهام والتوجيه والتلقين، فيه الحق والهدى والصدق والرشد، وفيه المبادئ السامية والشفاء للصدور والعلاج للنفوس والحلول لمتنوع المشاكل الإيمانية والروحية والسلوكية للناس كافة، أنزله الله على قلب نبيه الكريم وخلفه النبي عليه السلام في المسلمين فلا يضلون أبداً إذا ما اتبعوه وتمسكوا به، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم.

وأنه ليصح أن يقرر جزماً أنه قد ظل سليماً في حفظ الله محفوظا كل الحفظ من كل تبديل وتغيير وتحريف وزيادة ونقص مجمعاً عليه في رسم واحد ونص واحد ومصحف واحد وترتيب واحد في مشارق الأرض ومغاربها، وظل يحتفظ بإشراقه وسنائه وروحانيته، ونفس ألفاظه وحروفه وأسلوب ترتيله وتلاوته التي تلاها رسول الله وبترتيبه الذي وضعه، وبكل ما فيه من معاتبات ومؤاخذات وبهت وتكذيب وهزء وزراية ونسبة افتراء وسحر وشعر وكهانة وتعلم واقتباس وجدل مع مختلف طبقات الناس، ومن تقريرات لحقيقة شخصية الرسول البشرية، وتطور في التشريع والمواقف المتنوعة مما لم يتيسر لأي كاتب سماوي ولا لأي نبي، وظل بعد هذا مرجع كل خلاف، والحكم في كل نزاع بين المسلمين على اختلاف فرقهم وأهوائهم والقول الفصل في كل مذهب وعند كل نحلة من مذاهبهم ونحلهم على كثرتها، فتحققت بذلك معجزة الآية الكريمة ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ وإنها لمعجزة كبرى تستحق التنويه في هذا المقام، ويكفي لتبيين خطورتها أن نذكر ما كان من فتن وخلاف وشقاق وحروب منذ صدر الإسلام الأول وما كان من اجتراء الناس في ذلك العهد وبعده على رسول الله ﷺ والكذب عليه في وضع الأحاديث المتضمنة تأييد فئة على فئة ورأي على رأي ودعوة على دعوة ولإضعاف ذلك بالمقابلة، وما كان من وضع الروايات والأحاديث لصرف آيات من القرآن إلى غير وجهها بسبيل ذلك، وما كان من استعلاء قوم على قوم وشيعة على شيعة استعلاء القوة والسلطان مع اشتداد العداء والتجريح واشتداد تيار الأحاديث المفتراة، وأن نذكر أن هذا كان في حين لم يكن القرآن مطبوعاً أو مصوراً، وفي حين لم يكن من المستحيل أن يجرؤ الذين اجترؤوا على رسول الله ﷺ على كتاب الله فيغيروا ويبدلوا ويزيدوا وينقصوا شيئاً جوهرياً سائغا على المسلمين وينشروا به مصاحف جديدة وخاصة في الآيات التي حاولوا صرفها لتأييد

http://kotob.has.it

الآراء والأهواء أو إضعافها لتكون أكثر مطابقة مع الوجوه التى أريد صرفها إليها سلباً وإيجاباً ونفياً وإثباتاً وفى حين كانت الكتابة العربية سقيمة محرجة ولم يكن قد اخترع الشكل والإعجام، وكان التشابه بين الحروف كثيراً واحتمال اللبس قوياً، وحفظت ببركته اللغة العربية القرشية التى نزل بها قوية مشرقة بكل ما وصلت إليه من سعة وبلاغة ودقة وقوة ونفوذ وعمق لتظل لغة الأمة العربية الفصحى فى كل واد، وفى كل دور وزمان وهو ما لم يتيسر لأمة من أمم الأرض ولتكون إلى ذلك لغة عبادة الله لجميع الملل الإسلامية المنتشرة فى أنحاء الأرض خلال ثلاثة عشر قرناً ثم خلال القرون الآتية إلى آخر الدهر بل ولتترشح لتكون لغة العالم الإسلامى، وحفظت ببركته الأمة العربية قوية الحيوية دون أن يبيدها ما نزل بها من صروف الدهر الجسام التى أباد أخف منها من هو أقوى منها تكمن فيها مواهبها العظيمة وخصائصها القومية التى جعلتها خير أمة أخرجت للناس إن هى قامت بما حملها إياه القرآن من عبء الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وإتماماً لموضوع تدوين القرآن نرى أن نورد بعض البحوث الموجزة فى أمور تتصل به.

فأولاً أسماء السور :

١- أن الضابط أو الأصل العام فى تسمية السور القرآنية على ما يبدو من أسمائها هو تسمية السور بكلمة أو باشتقاق كلمة واردة فيها وإذا كانت الأسماء المشهورة لبعض السور لا تستمد من هذا الأصل مثل سورة الفاتحة والأنبياء والإخلاص فإن هناك روايات بأسماء أخرى لهذه السور تستمد منه مثل الحمد للأولى واقتربت للثانية والصمد للثالثة.

٢- على أن بعض المصاحف يختلف عن بعض فى الأسماء مع المحافظة على ذلك الأصل فسورة التوبة مثلاً تذكر فى بعض المصاحف باسم " براءة" والإسراء باسم "إسرائيل" وغافر باسم "المؤمن" وفصلت باسم "السجدة" والملك باسم "تبارك" والنبأ باسم "عم" والبينة باسم "لم يكن" والمسد باسم " أبو لهب" و "تبت" والإخلاص باسم "الصمد".

٣- وهذا الاختلاف ناشيء عن روايات مختلفة معزوة إلى بعض الصحابة كما أن هناك روايات مثلها بتسمية سور أخرى بأسماء أخرى وإن لم نطلع على مصاحف تذكر ذلك مثل سورة التوبة التى يروى أن من أسمائها : "العذاب والمشردة والمنكلة والمدمدمة والمتشقشقة" والفاتحة التى يروى من أسمائها " السبع المثانى والوافية والشافية والصلاة والدعاء وأم القرآن والقرآن العظيم" والأنفال

http://kotob.has.it

والشعراء والنمل والسجدة والزمر وفصلت والجاثية وق والمجادلة والحشر والطلاق والصف والنصر التي لها أسماء أخرى هي بالتوالي بدر والجامعة وسليمان والمضاجع والغرف والمصابيح والشريعة والباسقات والظهار والنضير والنساء الصغرى والحواريين والتوديع. وهناك كذلك روايات سميت فيها بعض السور بأكثر من كلمة واحدة مثل سورة المؤمنون التي ذكرت بتعبير " قد أفلح المؤمنون" والإنسان بتعبير " هل أتى على الإنسان" والأعلى بتعبير " سبح اسم ربك الأعلى" والليل بتعبير " والليل إذا يغشى".

٤-هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن هناك أحاديث وروايات مختلفة في طريقة تسمية السور. فقد روى عن أنس بن مالك حديث جاء فيه " لا تقولوا سورة البقرةولا سورة آل عمران ولكن قولوا السورة التي يذكر فيها البقرة والسورة التي فيها آل عمران. وقد ذكرت جل السور في تفسير ابن عباس رواية أبي صالح بالطريقة الثانية، في حين أن البخاري روى عن ابن مسعود في معرض تجويز القول سورة كذا أنه قال هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة، وأن هناك أحاديث نبوية وصحابية نقلناها في المجموعة الثالثة في مبحث تدوين وترتيب القرآن احتوت أسماء بعض السور بالطريقة المختصرة المتداولة أي سورة البقرة وسورة آل عمران وسورة النساء وسورة الكهف إلخ، بل هناك حديث طويل منسوب للنبي ﷺ ورد فيه جميع أسماء السور وفضائلها ذكره الزمخشري والخازن والبيضاوي في تفسيرهم بالطريقة المتداولة المختصرة وأوردوا وراء تفسير كل سورة فضيلة السورة المذكورة في الحديث.

٥- ومن جهة ثالثة فإن أسماء السور لم تكتب في جميع المصاحف المخطوطة التي هي الأصل في المصاحف المطبوعة والتي كانت هي المتداولة قبل الطباعة على رؤوس الصحف حيث منها ما كتب فيه الأسماء على رؤوس الصحف وفي فواصل السور ومنها ما كتبت فيه الأسماء في فواصل السور فقط فكل ما تقدم يمكن أن يسوغ القول أن كتابة أسماء السور في فواصلها وعلى رؤوس صحف المصاحف حسب المتداول ليس واردة في مصحف عثمان لأنها لو كانت كذلك لما كان محل لهذا الخلاف في التسمية والكتابة، وإنما هو عمل تنظيمي متأخر عن نسخ هذا المصحف. وقد يكون - بل هذا هو الأرجح - مستندا إلى روايات توقلت فكتبت في المصاحف وكتب القرآن والتفاسير على الوجه الشهير المتداول أو المختلف أحيانا، ونرجح بناء على ذلك أيضا أن للأحاديث والروايات أصلا صحيحا ما، وأنه كان للسور كلها أو كثير منها منذ عهد النبي ﷺ أسماء تذكر وتعرف بها.

http://kotob.has.it

فصل السور بالبسملة

وثانياً : فصل السور بالتسمية

إن المصحف العثمانى ومصحف أبى بكر الذى نسخ ذلك عنه قد فصل بين السور فيه بالبسملة كما يستفاد من أحاديث ابن عباس وابن مسعود التى أوردناها فى المجموعة الثالثة من بحث التدوين. وليس من خلاف فى ذلك بين المصاحف المتداولة ولذلك يصح أن يقال بشيء من الجزم أن هذا متصل بأول ترتيب للمصحف من عهد أبى بكر وبالتالى بترتيب السور فى حياة النبى، وهناك اختلاف فى ما إذا كانت البسلمة آية أصيلة فى كل سورة أم لا. ومنشأ هذا الخلاف على الأرجح أحاديث ابن عباس وابن مسعود من أن الوحى كان ينزل بالبسملة فى أول كل سورة، وأنهم كانوا يعرفون أنها سورة جديدة بذلك فمن أخذ بهذه الأحاديث اعتبر البسملة آية أصيلة ومن لم يأخذ بها لم يعتبرها كذلك، هذا مع التنبيه على أن الجمهور على أن البسملة فى الفاتحة آية أصيلة. ومهما يكن من أمر فإن هذا الخلاف لا ينقض ما جزمنا به من اتصال فصل السور بالبسملة منذ ترتيب المصحف الأول.

السجدات

وثالثاً – السجدات ومواضعها :

إن هناك أحاديث عديدة متصلة بأصحاب رسول الله ﷺ ومستندة إلى مشاهدة النبى ﷺ على اختلاف وتفاوت فى إسنادها ومتونها تعين أربع عشرة سجدة فى القرآن. وللفقهاء بحوث مستندة إلى هذه الأحاديث فى وجوب السجود عند تلاوتها أو استحسانه أو عدم وجوبه فى بعضها دون بعض حيث أوجبه بعضهم فى بعضها واستحبه فى بعضها ولم يوجبه فى بعضها على اختلاف فى ذلك مرجعه اختلاف متون الأحاديث وإسنادها ورتبها مما لا نرى ضرورة للتوسع فيه هنا، ونكتفى بالقول إن هذا الاختلاف يدل على أن مواضع السجدات لم تكن معينة كتابة أو إشارة فى مصحفى أبى بكر وعثمان، وأن رواياتها ظلت تتناقل فأخذ بعض نساخ المصاحف يشير إلى مواضيعها فيها متأخراً عن ذيلك المصحفين كعمل تنظيمى وفى وقت ليس من السهل تعيينه، وإن كان اختلاف أئمة المذاهب يمكن أن يساعد على القول إن ذلك كان فى القرنين الثانى والثالث الهجريين.

ورابعاً – مبادئ الأجزاء والأحزاب :

إن هناك كذلك بعض الخلاف فى مبادئ الأجزاء والأحزاب وأواخرها، وليس هناك فيما اطلعنا عليه أحاديث متصلة بالنبى أو أصحابه عن هذه التقسيمات الموجودة فى المصاحف المتداولة عدا الحديث المطلق الذى أوردناه فى المجموعة الثالثة عن تحزيب القرآن والذى لا يفيد شيئاً فيما نحن بصدده، وإن كان يستأنس به إن قراء القرآن منذ خياة النبى ﷺ كانوا يقرأونه أقساماً أقساماً، ويقفون عند مواقف خاصة حينما يتوقفون عن القراءة، وهذا يسوغ القول بأن هذه التقسيمات فى المصاحف

http://kotob.has.it

عمل تنظيمى متأخر عن المصحف العثمانى، مع التنبيه على أن ذلك الحديث يمكن أن يكون الباعث عليه ولعله مستند إلى قراءة القراء التى كان القراء يتلقونها شفهياً خلفا عن سلف إلى أن تتصل باصحاب رسول الله ﷺ.

كتابة ترتيب نزول السورة القرآنية وعدد آياتها :

خامساً – كتابة ترتيب نزول السور وصفتها وعدد آياتها وأرقامها وفواصلها :

إن بعض المصاحف تذكر فى فواصل السور : (١) ترتيب نزول كل سورة أى أن السورة قد نزلت بعد السورة الفلانية (٢) وصفة كل سورة أى مكية أو مدنية(٣) وعدد آيات كل سورة(٤) ورقم الآيات المدنية فى السورة المكية ورقم الآيات المكية فى السورة المدنية إذا كانت السورة احتوت آيات مكية ومدنية معا، (٥) ورقم كل آية بعد كتابتها فى السورة، فى حين أن بعض المصاحف لا تذكر شيئاً من هذا وتكتفى بذكر اسم السورة، وأن بعضها تذكر بعض هذه الأمور دون بعض وأن بين المصاحف التى تذكر هذه الأمور جميعها أو بعضها اختلافا فيما تذكره حيث يذكر بعضها سورة ما مكية بينما يذكرها بعضها مدنية. وحيث يكون عدد آيات السورة فى مصحف أقل أو أكثر منه فى مصحف آخر، وحيث يكون عدد الآيات المكية والآيات المدنية فى السورة المدنية والمكية وأرقامها فى مصحف مغايرة لعددها وأرقامها فى مصحف آخر، وحيث توضع فاصلة وراء آية ما فى بعضها بينما لا تكون مفصولة فى بعضها، وحيث تكون الفواصل بين الآيات فى بعضها صماء بينما تكون فى بعضها تحمل رقم الآية المتسلسل.

فالواضح من كل ذلك أن هذه الأمور– عدا فصل الآيات بفاصلة ما – هو عمل تنظيمى متأخر وليس له أصل فى المصحف العثمانى.

وقد استثنينا فصل الآيات بفاصلة ما لأننا نعتقد أن المصحف العثمانى لم يسرد الآيات سردا دون فصل بينها، ولأن الآية هى الوحدة القرآنية الصغرى المستقلة، وقد أشير إليها فى القرآن نصا كذلك كما جاء مثلاً فى آية النحل (١٠١) هذه ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل﴾ فلا يعقل إلا أن توضع فواصل بين الآيات. ولعل الفاصلة التى كانت تفصل بين الآيات فى المصحف العثمانى هى نقطة صماء.

وهناك اختلاف فى عدد آيات كثير من السور، وقد ذكر السيوطى فى الاتقان أن المتفق على عدد آياته أربعون سورة فقط. ومع أن هناك حديثا أورده ابن العربى عن النبى عليه السلام ونقله السيوطى يفيد أن الفاتحة سبع آيات والملك ثلاثون آية فإن هذا لم يمنع الخلاف على عدد آيات هاتين السورتين أيضا. وقد – قال بعض العلماء إن سبب اختلاف السلف فى عدد الآيات أن النبى ﷺ كان

http://kotob.has.it

يقف على بعض كلمات من الآيات فيحسب السامع أنه يقف على آخر الآية. على أن مما يرد أن يكون ليس فى تمييز بعض الفواصل فى المصحف العثمانى فكان هذا الخلاف فى المصاحف التى نسخت عنه وتداولت وننبه على أن الخلاف فى عدد الآيات ليس كبيراً، وكل ما تناوله دار فى نطاق ضيق من نقص آية أو آيتين فى بعض السور أو زيادة آية أو آيتين فى بعض آخر مثل وصل بعضهم كلمات "طسم وطس" فى سورة الشعراء والنمل والقصص و "ألم" فى سورة العنكبوت وغيرها و"ألر" فى سورة يونس وغيرهم و "حم" فى سورة فصلت وغيرها وعدها موصولة مع ما بعدها أو مفصولة عنه فتكون آية عند من عدها مفصولة ولا تكون كذلك عند من عدها موصولة، ومثل عد البسملة آية فى سورة الفاتحة وعدم عدها، وعد ﴿صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ فى سورة الفاتحة آية عند بعضهم أو آيتين عند بعض آخر.

ونقول فى صدد ترتيب نزول السور إننا اطلعنا على عدة ترتيبات منها ترتيب المصحف الذى اعتمدناه ونعنى مصحف قدور أو غلى، ومنها ترتيب للسيوطى استند فيه إلى ما اعتمده من الروايات، ومنها ترتيب فى تفسير الخازن وآخر فى تفسير الطبرسى، وثلاثة أخرى أوردها السيوطى فى الإتقان منسوبة إلى الحسين وعكرمة وابن عباس وجابر وبين هذه الترتيبات تخالف يسير أو كبير، مع التنبيه على أن مضامين بعض السور المكية والمدنية تسوغ التوقف فى ترتيبها الوارد فى هذه الترتيبات، وتحمل على القول إنها لا تمثل الحقيقة تمثيلاً صادقاً، وأنه ليس هناك ترتيب يثبت على النقد والتمحيص بكامله أو يستند إلى إسناد وثيقة متصلة بالعهد النبوى. فهناك روايات عديدة مختلفة فى صفات بعض السور وبينما يسلك بعضهم سوراً فى سلك السور المكية أو بالعكس مثل سور الرعد والحج والرحمن والإنسان والزلزلة والفلق والناس والإخلاص والكوثر وقريش والعصر والعاديات والقدر والمطففون والفاتحة التى تسلكها بعض الروايات فى السلك المدنى بينما تسلكها روايات أخرى فى السلك المكى، ومثل سورة الحديد والصف والتغابن والبينة التى سلكتها بعض الروايات فى السلك المكى بينما تسلكها روايات أخرى فى السلك المدنى. وفضلاً عن ذلك فإن فى القول بترتيب نزول سور القرآن تجوزاً خاصة بالنسبة لبعض السور المدنية حيث تلهم مضامينها أن بعض فصول سور متقدمة فى روايات الترتيب قد نزلت بعد بعض فصول سور متأخرة فيه، وأن فصول هذه السور قد ألفت تأليفا متأخراً عن نزولها وقتا ما مما ذكرنا بعض نماذجه ونبهنا عليه فى بحث سابق، وكل ما يمكن أن يقال فى مثل هذه السور أن وضعها فى ترتيب النزول كسور تامة بعد سورة تامة حقيقة أو رواية إنما جاء من أن فصلها الأول أو فصولها الأولى قد نزلت بعد الفصل الأول أو الفصول الأولى من السورة التى قبلها.

http://kotob.has.it

ولقد أجمعت الروايات مثلاً على أن سور العلق والقلم والمزمل والمدثر هي أوائل السور نزولاً على اختلاف في الأولية بينها، وعند التدقيق تراءى لنا أن هذه الروايات محل نظر، فالآيات الأولى من سورة القلم احتوت آية ﴿وإذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ والآيات الأولى من سورة المزمل احتوت آية ﴿ورتل القرآن ترتيلا﴾ والآيات الأولى من سورة المدثر احتوت آية ﴿إن هذا إلا قول البشر﴾ والآيات التي أعقبت الآيات الخمس الأول من سورة العلق احتوت آيات فيها وصف الموقف بعض الطغاة من دعوة النبي وصلاته، بالإضافة إلى حكاية السور الثلاث الأولى مواقف بعض الكافرين والمكذبين وجدلهم ومكابرتهم وإلى حملات عليهم فيها بسبب ذلك. فهذا كله يلهم بقوة أنه ينبغي أن يكون قد نزل قبل هذه السور وبعد آيات سورة العلق الخمس الأولى على الأقل قرآن يصح أن يرتل، وأن يقال عنه أساطير الأولين، وقول البشر، وفيه دعوة وإنذار عامان وقد تلي على الناس ودعوا إلى الله به فوقف الكافر منه موقف الجاحد المعاند فنزلت بقية سورة العلق والسور الثلاث الأخرى تحكي مواقفهم وترد عليهم ومن أجل هذا يجب أن تكون سورة الفاتحة والأعلى والشمس والعصر والليل وأمثالها مما لا يحتوي إلا الدعوة والإنذار والأهداف بصورة عامة هي السابقة بالنزول بعد آيات العلق الخمس الأولى إن لم يكن هناك قرآن نزل ثم رفع يحتوي ذلك، ويمكن إيراد أمثل متعددة أخرى كثيرة أيضاً.

تميز الأسلوب المكي والأسلوب المدني :

ونستطرد فنقول إن أسلوب القرآن يساعد بنطاق غير ضيق على التمييز بين السور المكية والسور المدنية بل الآيات المكية والآيات المدنية أيضاً فالسور المكية أولاً تنحو في الأغلب نحو التسجيع والتوازن، وثانياً تتكثف فيها الدعوة إلى الله وإثبات استحقاقه وحده للخضوع والعبادة ومحاربة الشرك وكل ما يتصل به وتعنيف الكفار وتقريعهم بسببه، وثالثاً أن أسلوبها المتصل بالدعوة إلى المكارم والاجتماعية والروحية والإنسانية وبالتحذير من الآثام والفواحش أسلوب دعوة وحض وتشريق وتنديد وتنويه ، ورابعاً أن القصص ومشاهد الآخرة والحديث عن الملائكة والجن وحكاية أقوال الكفار وجدلهم وافتراءاتهم ونسبهم المختلفة للنبي قد كثرت وتكررت، وخامساً ان وحدة الموضوع في السور الطويلة والمتوسطة فضلاً عن القصيرة ملموحة في كل سورة منها تقريباً، وسادسا أن تلاحق الفصول والسياق جدلا وحكاية وإنذاراً وتبشيراً ووعيداً وتدعيماً وتمثيلاً وتذكيراً وقصصاً وتطميناً وتوجيهاً وتلقيناً وبرهنة ملموح كذلك في كل سورة منها تقريباً وفي السور المكية تبرز مبادئ الدعوة القرآنية قوية واضحة، وتبرز خصوصيات القرآن ومميزاته الأسلوبية والموضوعية بالنسبة إلى الكتب السماوية الأخرى قوية واضحة كذلك ومن مميزات الأسلوب المكي

http://kotob.has.it

اللهجة الخطابية القوية النافذة إلى الأعماق والقارعة للأسماع والقلوب واللهجة التى يذكر بها اليهود خاصة حيث خلت من التقريع والتعنيف والجدل والأخذ والرد، وتلك الصور الجحودية والإزعاجية والتشكيكية الواردة عنهم فى القرآن المدنى واللهجة المحببة الاستشهادية التى يذكر بها الكتابيون وأولو العلم كأنما تم حزب المسلمين والدعوة النبوية والأسلوب المكى يغلب فيه وصايا الصبر والتطمين والتسكين وعدم المبالاة بمواقف الكفار كما أنه خلا من الحض على الجهاد ووقائع الجهاد وخلا كذلك من ذكر المنافقين ومواقفهم ودسائسهم والحملات القاصمة عليهم، وواضح أن هذا كله متصل بظروف العهد المكى من السيرة النبوية مما نبهنا عليه فى سياق التفسير.

أما القرآن المدنى فالسجع فيه قليل بل نادر، وطول نفس الآيات غالب، وقل فيه فصول القصص ووصف مشاهد الآخرة والجنة والملائكة والجدل ووصف مشاهد الكون أو تقصر ويكتفى من ذلك بالتذكير والإشارات الخاطفة، وتصطبغ فيه المبادئ والتكاليف التعبدية والأخلاقية والاجتماعية والقضائية والسلوكية بصيغة التقنين، وفيه تشريع الجهاد ووقائعه وظروفها، وفيه إبطال عادات وتقاليد قديمة وإقرار عادات وتقاليد قديمة أخرى مع الإصلاح والتهذيب، وإنشاء عادات وتقاليد جديدة فى سبيل الإصلاح الأخلاقى والاجتماعي، وفيه صور النفاق والمنافقين ومواقفهم، ولهجته عن اليهود لهجة شديدة فى الدعوة والتعنيف والتنديد وفيه صورة عن مواقفهم وأحوالهم، وفيه الاستفتاءات والأسئلة القضائية والاجتماعية والأخلاقية والأسروية وأجوبتها التشريعية وواضح أن هذا كله متسق أيضاً مع ظروف العهد المدنى من السيرة النبوية مما نبهنا عليه فى سياق التفسير كذلك.

وعلى ضوء هذه المميزات ومع استلهام المضمون والسياق أمكننا ترجيح مكية سور الرعد والحج والرحمن والإنسان والزلزلة التى يذكر مصحف قدور أو غلي وغيره مدنيتها، وأمكننا كذلك ترجيح مكية ومدنية السور القصيرة الأخرى التى اختلفت الروايات فيها، وترجيح احتمال تقدم بعض السور المتأخرة وتأخر بعض السور المتقدمة، وترجيح مكية آيات ذكرت الروايات أنها مدنية فى سور مكية ومدنية آيات ذكر الروايات أنها مكية فى سور مدنية مما نبهنا عليه فى سياق التفسير الكامل.

الشكل والنقط:

سادساً : شكل المصاحف ونقطها :

من الثابت المسلم به أن النقط والشكل على الوجه المستعمل فى المصاحف المتداولة قد اخترعا بعد النبى وفى أخريات دور الخلفاء الراشدين أو أواسط دور الأمويين على اختلاف فى البدء

http://kotob.has.it

والتطور، ولذلك فإنهما محدثان وليس لهما أصل فى المصحف العثمانى وما قبله جزما وقد مست الحاجة إلى إدخالهما على المصحف لضبط القرآن وتيسير قراءة صحيحة وعدم ترك المجال للالتباس، ولا سيما أن المسلمين قد انتشروا فى بقاع الأرض أكثر من ذى قبل ودخل الإسلام أمماً وطوائف غير عربية، وصارت اللغة العربية تعلم تعليماً ولم تبق سليقية، وقد كان من شأن بقاء القرآن بدون إعجام (تنقيط) خاصة أن يلتبس على قارئه فى المصحف قراءة الحروف المتشابهة الشكل التى لا يميزها عن بعضها إلا النقط مثل ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ، كما كان من شأن بقائه بدون شكل أن يلتبس على القارئ غير العربى سليقة تمييز الكلمات المتشابهة الشكل التى لا يميزها عن بعضها الآن إلا الشكل أو كثرة الممارسة وحسب فهم المعنى وتمييز أواخر الكلمات ولاسيما حينما يتأخر الفاعل ويتقدم المفعول مثلاً ومما لا ريب فيه أن إدخالهما على الخط العربى عامة وعلى المصحف خاصة خطوة خطيرة جداً فى سبيل الإتقان والإحسان والفهم والتميز، والمرجح أنهما لم يخترعا كاملين، وأنهما سارا سيراً تطورياً حتى بلغا مبلغهما التام فى القرنين الثانى والثالث الهجريين.

علامات الوقف والوصل

سابعاً : علامات الوقف والوصل والأداء :

إن ما قررناه فى الفقرة السابقة يصح على علامات الوقف والوصل والمد والقصر والسكون فوق الكلمات والحروف القرآنية فى المصحف العثمانى، من حيث كونها محدثة وليست أصيلة فى المصحف العثمانى ومن حيث قصد ضبط قراءة القرآن وإتقان أداء كلماته وحروفه مع التنبيه على أنها دون خطورة الشكل والنقط خطورة أولاً وأنها قد أحدثت بعدهما على الأرجح ثانياً. وننبه كذلك على أن ما نقصده هو وضع العلامات، وهذا لا يقتضى طبعاً أن لا يكون النبى ﷺ وأصحابه قد عنوا بالوقوف على ما ينبغى الوقوف عليه ووصل ما ينبغى وصله والسكوت عندما يجب السكوت ومد ما يقتضى مده وقصر ما يحسن قصره إلخ. فلا يصح أن يشك فى أن كل هذا قد كان، وأنه متصل بطبيعة النطق الخطابى والتقريرى التى هى من طبيعة التلاوة القرآنية ومقتضيات أداء معانى القرآن مما لا يمكن ألا يكون، سواء أفى تلاوته من النبى ﷺ على الناس أم تلاوته من قبل الصحابة، وسواء أكان ذلك فى الصلاة أم فى مجال التلاوة والوعظ والبيان، فضلاً عن أن طبيعة الخطاب والتلاوة بوجه عام تقتضى ذلك، والراجح أن الأمر القرآنى ﴿ورتل القرآن ترتيلا﴾ (المزمل: ٤) وهو من أوليات القرآن نزولاً هو وفى صدر ذلك أو مما استهدفه. وتلاوة القرآن على الأداء المعروف متصلة فيما نعتقد بالسماع خلفاً عن سلف حتى تتصل بالعهد النبوى، وقد جرى الأمر على

http://kotob.has.it

هذا بالتواتر الفعلى السماعى الذى لم ينقطع من لدن النبى ﷺ ومما لا ريب فيه أن العلامات وحدها لو لم يكن هذا النقل السماعى المتواتر لا تجزئ وحدها ولا تجعل قارئ القرآن يؤدى دلالاتها على وجهها دون تعليم وسماع، والمعقول أن وضع العلامات كان من قبل أعلام القراء والرواة أو عن راو وقارئ عن قارئ، على أن المعقول أيضاً أن وضعها هو من قبيل التذكير بدلالاتها التى كانت تتلقى سماعاً والراجح أن هذا قد كان كذلك فى القرنين الثانى والثالث الهجريين.

رسم المصحف العثمانى :

إن أكثر العلماء وأئمة القراء قرروا وجوب الاحتفاظ فى كتابة القرآن بالرسم العثمانى، ومنهم من كره كتابته برسم آخر ومنهم من حرمها. ولم نطلع على أقوال وأحاديث موثوقة متصلة بأصحاب رسول الله فى هذا الشأن. ولذلك يصح أن نقول إنها أقوال اجتهادية.

ويبدو أن هذا التشديد متصل بروايات القراءات السبع أو العشر، وخاصة بما يتصل بالصرف والنحو وأجسام الكلمات مثل " ملك ومالك" و "مسجد ومساجد" و " يفعلون وتفعلون" و "فتحت وفتحت" و " أرجلكم وارجلكم" و " تبينوا وتثبتوا" إلخ مما يقع فى وحدة الرسم، ومتصل كذلك بالقول إن هذه القراءات صحيحة كلها لأنها تقع فى نطاق وحدة الرسم من ناحية ومتصلة بالسماع المتسلسل الواصل إلى قراء الصحابة الذين تلقوا القرآن عن النبى من ناحية أخرى بحيث يوردان شأن كتابة القرآن بغير الرسم العثمانى وبالخطوط الدارجة فى الأدوار التالية أن تحول دون قراءة الكلمات القرآنية بقراءات مختلفة يحتملها الرسم العثمانى ومتصلة بقراء الصحابة، فيكون فى ذلك تحكم فى تصويب قراءة دون قراءة وإبطال قراءة دون قراءة و وسيلة مؤدية إليهما، وأن هذا هو ما تحرز منه العلماء والقراء فى مختلف العصور تورعا وتديناً وزيادة فى التحري فى تلاوة القرآن تلاوة قويمة صحيحة متصلة بالنبى والذين سمعوا منه وتلقوا عنه.

ومهما يبدو من وجاهة هذا القول ونتائجه، وخاصة فوائده التى من أهمها أن احتفظت المصاحف خلال ثلاثة عشر قرنا برسم واحد قد كتب وفاقا لما كان يكتب فى عهد النبى وبإملائه، وحفظ القرآن بذلك من التحريف والتشويه، ومن الخلافات التى لا بد من أن تنشأ بسبب تطور الخطوط من وقت لآخر وتبدلها فى أدوار لم يكن فيها مطابع ولا تصوير شمسى، ومنعت تكرر المأساة التى أفزعت عثمان وحملته على توحيد هجاء القرآن وجعل المصاحف بهجاء واحد تنسخ عن الأصل الذى أمر بنسخه وتنتشر فى مشارق الأرض ومغاربها موحدة فإننا نعتقد أنه ليس من شأنه أن يمنع جواز كتابة المصحف اليوم بالخط الدارج على شرط مراعاة قراءة من القراءات المشهورة المتصلة بأحد أئمة قراء الصحابة والنص على ذلك فى مقدمة المصحف، لأنه لا يوجد نص ثابت متصل بالنبى ﷺ

http://kotob.has.it

وأصحابه يمنع ذلك فيما اطلعنا عليه، ولأننا نعتقد أن فى هذا تيسيراً واجباً لتعليم القرآن وتعلمه وحسن ضبطه وإتقانه فبين الرسم العثمانى والرسم الدارج فروق غير يسيرة فضلاً عما بين رسوم القرآن نفسها من تناقض مما سوف نشير إليه بعد قليل مؤد فى نفس الوقت إلى زيادة التعقيد والتعسير، ومن العسير أن يتعلم القارئ هذا الرسم بالإضافة إلى الرسم الدارج الذى ألفه فى كتابته وكتبه وقراءاته الأخرى، وبالإضافة إلى هذا فإن هناك مسلمين وغير مسلمين لا يتيسر لهم تلقى القرآن من قراء مجازين أو قراء تلقوا أو قرأوا أو سمعوا من قراء مجازين مما يصعب إتقان تلاوة القرآن برسمه العثمانى بدونه، والمصاحف فى متناول جميع الناس على اختلاف الملل والأجناس، ففى كتابته بالرسم الدارج منع لمغبة الغلط فى القراءة والتشويه وسوء الفهم والتفسير، وتيسير واجب لنشر القرآن الذى هو من أهم واجبات المسلمين أيضا، ولا سيما أن الرسم العثمانى محفوظ لن يبيد بما يوجد منه من ملايين النسخ المطبوعة وغير المطبوعة والرسوم الشمسية ما فيه الضمانة على بقائه المرجع والإمام أبد الدهر، وقد رأينا للإمام المفسر الكبير ابن كثير فى كتابه فضائل القرآن وهو من علماء القرن السادس قولا يبيح به كتابة المصحف على غير الرسم العثمانى وفى هذا توكيد وتوثيق لوجهة النظر التى نقررها.

هذا أولاً . وثانياً أن الذى نعتقده أن رسم المصحف العثمانى لم يكن ليكون محتملاً للقراءات السبع أو العشر، وليس هو توقيفيا عن النبى ﷺ كما يظن أن يقول البعض، فليس هناك حديث وثيق بل وغير وثيق متصل بالنبى أو أصحابه المعروفين يؤيد ذلك، وإنما هو الطريقة الدارجة للكتابة فى ذلك العصر، ولم يكن النبى يقرأ ويكتب، وإنما كان يملى ما يوحى إليه به على كتابه فيكتبونه وفق ما يعرفونه من طريقة الكتابة، وليس من سبيل إلى غير ذلك، وما دامت طريقة الكتابة قد تطورت فإن تسويغ كتابة المصحف وفق الطريقة الدارجة طبيعى أيضاً وخاصة بعد أن صار الاحتفاظ بالرسم العثمانى لكون المرجع والإمام مطبوعاً ومحفوظاً ومصوراً كما قلنا ممكنا إلى ما شاء الله.

أما التناقض أو التباين فى رسم المصحف العثمانى نفسه فإنه فى الحقيقة يبعث على العجب والحيرة، حيث وردت كلمات واحدة أو متقاربة فى سورة مختلفة بل أحياناً فى سورة واحدة مختلفة الرسم فى حين أن كثيراً منها متماثل فى مواقف الصرف والنحو وإعراب الأواخر والمعنى كما ترى فى الثبت التالى مثلاً :

لا أذبحنه = لأعذبنه[١] بنبأ = بنبأي[٢] سموات = سموت[٣] بنت = بنات[٤] لشئ = لشاى[٥] ابن أم = ابنؤم[٦] احسانا= احسنا[٧] اصلاح = إصلح[٨] جزاء = جزوأ[٩] نعمت =

---

[١] النمل ٢١.

http://kotob.has.it

نعمة[١٠] رحمة = رحمت[١١] قرة = قرت[١] امرأة = امرأت[٢] سنة = سنت[٣] جنة = جنت[٤] لعنة = لعنت[٥] بقية = بقيت[٦] بسطة = بسطت[٨] الأيكة = لأيكة[٩].

فهذه المباينات[١٠] تسوغ القول إن أول ما نسخ وكتب برسم واحد من المصاحف العثمانية مصحف واحد كتبه كاتبه أملاه عليه قارئ وتعاقب عليه أكثر من كاتب وأكثر من قارئ فكتب بعضهم الكلمات في مواضع برسم وكتب بعضهم نفس الكلمات في مواضع برسم آخر ثم نسخت المصاحف الأخرى العثمانية التى أرسلت إلى الأقطار عن هذا المصحف حرفيا وأن العلم بالكتابة بين الصحابة لم يكن موحدا وأن الكتابة والإملاء لم يكن متقنا، وحتى لو فرضنا أن المصاحف العثمانية كتبت جميعها معا من عمل واحد فلا بد من أن نفرض أنه تعاقب على كتابتها آخرون، ولعله كان فى المصحف والمصاحف المتداولة فى أيدى المسلمين إذ ذاك أخطاء ومباينات أكثر وأفدح فى الكتابة والإملاء مما أفزع سيدنا عثمان وكبار الصحابة وحملهم على توحيد الرسم واجتهدوا اجتهادهم فلم

---

(٢) القصص ٣ والأنعام ٣٤.

(٣) فصلت ١٢ والملك ٣.

(٤) الصافات ١٥٣ والأنعام ١٠٠.

(٥) النحل ٤٠٠ والكهف ٢٣.

(٦) الأعراف ١٥٠ وطه ٩٤.

(٧) البقرة ٨٩ والنساء ٣٦.

(٨) البقرة ٢٢ والنساء ١١٤.

(٩) البقرة ٨٥ والمائدة ٢٩.

(١٠) البقرة ١١ و ١٣١.

(١١) الزخرف ٣١ وآل عمران ٧٤.

(١٢) القصص ٩ والفرقان ٧٤.

(١٣) آل عمران ٣٥ والنساء ١٢.

(١٤) الأحزاب ٦٣ وفاطر ٤٣.

(١٥) البقرة ٢٦٤ والواقعة ٨٩.

(١٦) آل عمران ٨٧ و ٦١.

(١٧) هود ٨٦ والبقرة ٢٦٨.

(١٨) البقرة ٢٤٧ والأعراف ٦٩.

(١٩) الحجر ٧٨ والشعراء ١١٦.

(٢٠) اكتفينا بمثال لكل مباينة مع أن هناك أكثر من آية فى أكثر من سورة فيها بعض التباين أيضا.

http://kotob.has.it

يستطيعوا أن يتخلصوا من بعض الأخطاء والمباينات أن جاءت غير ذات بال من حيث الجوهر والمعنى، وإذا كان مثل هذه الأخطاء تقع اليوم والمدارس منتشرة والناشئة تتعلم فيها بطريقة موحدة بسبب تفاوت الإتقان والعناية والمران فوقوعها فى ذلك العصر الذى لم تكن الكتابة فيه قد وصلت إلى تمامها من النضج من باب أولى، وقد فرضنا أن يكون المنسوخ فى أول الأمر من المصاحف العثمانية مصحفاً واحداً تعاقب عليه أكثر من كاتب ثم نسخت عنه المصاحف الأخرى لأن هذا الفرض هو الذى يستقيم ويتسق مع وجود تلك المباينات إذ لو نسخت المصاحف جميعها مرة واحدة من قبل عدد من الكتاب لكان تعذر فرض اتحادهم فى هذه المباينات التى لا ترجع إلى سبب إملائى فنى كما أن ما فرضناه هو المعقول الذى تطمئن به النفس ويتفق مع طبيعة الأمر على ما هو المتبادر.

ولقد علق ابن خلدون على هذه الظاهرة فقال : كان الخط العربى لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة. وانظر ما وقع لأجل ذلك فى رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير محكمة فى الإجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها، ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسمه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخير الخلق بعده كما يقتفى لهذا العهد خط ولى أو عالم تبركاً وتتبع رسمه خطأ أو صواباً.

ونحن نعرف أنه لعلماء القراءات تخريجات لهذا التباين، ولكن المدقق يجد فيها تكلفاً وتجاوزاً كبيرين لا يبعثان اطمئناناً، ولا يوجبان اقتناعاً ولا سيما أن فى هذا التباين كما قلنا أمثلة لا تختلف عن بعضها نحواً وصرفاً ونظماً وموقع جملة ومعنى.

وهناك مسألة أخرى فى صدد رسم المصحف العثمانى يثيرها حديثان أحدهما يروى عن عائشة ووصف بأنه إسناد صحيح على شرط الشيخين، وقد روى عن عروة قال سألت عائشة عن لحن[1] القرآن فى قوله تعالى﴿إن هذان لساحران﴾[2] ﴿المقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة﴾[3] و ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون﴾[4] فقالت يا ابن أختى هذا من عمل الكتاب أخطأوا فى الكتاب[5]

---

[1] يقصد بالكلمة الغلط الصرفى أو النحوى.

[2] سورة طه ٦٣.

[3] سورة النساء ١٦٢.

[4] سورة المائدة ٣٩.

[5] أى فى الكتابة والرواية من كتاب الفرقان لابن الخطيب ص٤١ والإتقان للسيوطى.

http://kotob.has.it

وثانيهما عن عكرمة وغيره جاء فيه أنه لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفاً من اللحن فقال لا تغيروها فإن العرب ستغيرها أو قال ستعربها بألسنتها، وقد أنكر بعض العلماء الحديث المنسوب إلى عثمان وقالوا إن إسناده ضعيف مضطرب منقطع، وإن عثمان جعل للناس إماماً يقتدون به فلا يصح أن يكون قد رأى فيه لحناً وتركه لتقيمه العرب بألسنتها وكان أولى الناس بتصحيحه، كما خرج علماء آخرون ما ظن أنه لحن تخريجاً نحوياً سليما، ومما قاله الزمخشري في صدد " والمقيمين الصلاة" لا تلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحنا في خط المصحف وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم في النصب على الاختصاص من الافتنان، وغبي عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كانوا أبعد همة في الغيرة على الإسلام وذب المطاعن عنه من أن يتركوا في كتاب الله شيئاً ليسده من بعدهم وخرقاً يدفوه من يلحق بهم [١].

ومع ما في كلام الزمخشري من قوة خطابية فإننا لا نرى من المستحيل ولا مما لا يتسق مع طبائع الأمور ولا مما ينتقض من قيمة وصحة بل وقدسية المصحف أن يخطئ ناسخ المصحف الأول من المصاحف العثمانية في كتابة بعض الكلمات حيث جاءت مخالفة للقواعد اللغوية القرآنية، وقد رأينا فيما اطلعنا عليه من المصاحف المخطوطة أخطاء عديدة وقع فيها الناسخ ومنهم خطاطون بارعون لا يتهمون بقصور في الإملاء منها ما ترك على حاله، ومنها ما شطب عليه وكتب صحيحه فوقه أو بعده أو على الهامش، ومن هذه الأخطاء ما هو أكثر من كلمة أو جزء من كلمة، وكثيراً ما وقع هذا معنا مع أننا كنا نحرص أن نكتب عن المصحف دون حافظتنا، ولم نطلع على إنكار لحديث عائشة سواء في سنده أو في متنه مثل ما كان بالنسبة لحديث عثمان، بل رأينا في الإتقان تعليقا يؤيد صحته ويحاول تعليل ما جاء فيه محاولة غير شافية، ونحن لا نرى في الحديث شيئاً شاذاً وغير متسق مع طبيعة الأمور على ما نبهنا عليه آنفاً.

القراءات:

تاسعاً : القراءات المشهورة:

إن القراءات المشهورة سبع تنسب إلى سبعة أئمة من القراء هم نافع ابن أبي رويم في المدينة وعبد الله بن كثير في مكة وأبو عمر بن العلاء في البصرة وعبد الله بن عامر في الشام وعاصم بن أبي النجود وحمزة بن حبيب الزيات وعلى الكسائي في الكوفة، ويضم إليهم أحياناً أبوجعفر بن يزيد

---

[١] الكشاف الجزء ١ ص٣٩٧.

http://kotob.has.it

فى المدينة ويعقوب الخضرمى فى البصرة وخلف البزاز فى الكوفة فيبلغون عشرة وتبلغ القراءات عشراً، وأربعة منهم تابعون يروى أنهم تلقوا قراءاتهم عن قراءة من الصحابة والباقون تابعو تابعين تلقوا قراءاتهم على ما يروى عن تابعين تلقوا عن قراء من الصحابة، وكل منهم يروى قراءته عن قارئ صحابى معروف كما أن لكل منهم رواة ولكل من رواتهم رواة إلى أن وصل الدور إلى عهد التدوين فدونت القراءات وخلافياتها فى تعاريف عامة من جهة وفى كل سورة لحدتها من جهة أخرى.

وتدور هذه الخلافيات على الأغلب فى النطاق التالى : (١) مخارج الحروف كالترقيق والتفخيم والميل إلى المخارج المجاورة كنطق الصراط بإمالة الصاد إلى الزاى (٢) والاداء كالمد والقصر والوقف والوصل والتسكين والإمالة والإشمام (٣) والرسم كالتشديد والتخفيف مثل " يُغشى يُغشّى" و "فتحت وفتّحت" والإدغام والإظهار مثل تذكرون وتتذكرون والهمز ومد الألف مثل " ملك ومالك" ومسجد ومساجد لتحمل الرسم النطقين (٤) والتنقيط والحركات النحوية مثل " يفعلون وتفعلونَ" وأرجلَكم وأرجلِكم " مثلاً.

وقد وضع علماء القراءة شروطاً أربعة لصحة القراءة الخلافية وهى (١) التواتر بحيث لا تصح قراءة غير القراءة المتواترة والمشهورة (٢) وموافقة العربية بوجه ما بحيث لا تصح قراءة خلافية لا تتفق مع قواعد اللغة (٣) ورسم المصحف العثمانى بحيث لا تصح قراءة خلافية مغايرة للرسم المذكور (٤) وصحة سند القراءة بحيث لا تصح قراءة خلافية لا تستند إلى سند وثيق يتصل بأحد قراء الصحابة، واجتماع الشروط الأربعة شرط لازم بحيث لا تصح قراءة خلافية لا تجتمع فيها.

على أن هناك ما يمكن ملاحظته فى صدد خلافيات القراءات المذكورة فالمقول والمشروط أن أئمة القراء قد أخذوا قراءاتهم سماعاً عن قراء من الصحابة، وأن قراء الصحابة قد أخذوا قراءتهم سماعاً عن النبى، ومعقول أن يكون قراء الصحابة مختلفين فى القراءة الناشئة عن النطق بالحروف وأدائها من ترقيق وتفخيم ومد وقصر وإمالة وإشمام ووقف ووصل وتسكين وتنوين حتى ولو قرأوا قراءاتهم على النبى ﷺ وأجازها لهم على اختلافها فى ذلك، وأن يكون سمعها منهم غيرهم من الصحابة والتابعين، ولكن مما يدعو إلى التوقف والنظر أن يكونوا مختلفين فى القراءة الناشئة عن الرسم والتنقيط من تشديد وتخفيف وإظهار وإدغام وقراءة المضارع بالغائب أو المخاطب وقراءة بعض الكلمات منصوبة حينا ومجرورة حينا مثل " أرجلكم وأرجلكم" ومفردة حينا وجمعاً حينا مثل " مسجد ومساجد" واسم فاعل حينا واسم عادى حينا مثل "ملك ومالك " ونحو ذلك إلا مع فرض أنهم كانوا يقرأون من المصاحف ولم يسمعوها من النبى، وأن هذا كان شأن أئمة القراء التابعين وتابعى

http://kotob.has.it

التابعين فالنبى لم يكن يتلو من مصحف وكان ما يبلغه وحيا، وإذا كان يجنح إلى التيسير كما يدل عليه أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف مما سوف نبحث فيه فى مناسبة أخرى[١] فإن هذا منه إنما كان على ما نعتقد بقصد التسهيل على الناس فى مخارج الحروف والأداء لأن هذا متصل بتكوين آلة النطق البشرية ومتصل كذلك بعادة إخراج الحروف وأدائها تبعاً لاختلاف اللهجات أو المنازل العالية والواطئة والحارة والباردة والتى لا معدى من التسهيل فيها وحكمتها واضحة قائمة، وليس فى هذا التسهيل تبديل وتغيير فى كلمات القرآن وحروف ونحوه وصرفه، إذ أنه ليس مما يحتمل أن يكون النبى قرأ مرة " يفعلون" وأخرى " تفعلون" ومرة " تغفر " وأخرى " يغفر" ومرة " فتبينوا" وأخرى "فتثبتوا[٢]" ومرة " ييأس" وأخرى " يتبين[٣]" فضلاً عن عدم احتمال تبديله الكلمات بغيرها ولو فى معناها مما يروى فى غير نطاق رسم المصحف العثمانى ولاسيما أن الخلافيات فى هذه هى أكثر الخلافيات حتى لقد رأينا الزمخشرى فى كشافه يروى أمثلة كثيرة جداً منها، ولعله يستقيم أن يفرض أيضاً أن القراء التابعين كانوا يقرأون على قراء الصحابة من المصحف قراءات مختلفة ناشئة عن تلك الأسباب والعلل الطبيعية وأن قراء الصحابة كانوا يحبذونها استئناساً بما كان من تساهل النبى ﷺ وأمره بالتيسير فى قراءة القرآن.

أما والحالة على ما ذكرنا فإن مما يخطر للبال سؤال عما إذا كان هناك ضرورة دينية لهذه القراءات المتعددة المختلفة بل والمتباينة حينا فى قطر واحد، والذى نراه أنه ليس هناك من ضرورة دينية لذلك، وخاصة بالنسبة لجمهور المسلمين، وأن يكفيهم ان يقرأوا القرآن بقراءة واحدة من القراءات المأثورة من مصحف كتب بالرسم الدارج بينهم، فيه بعض العلامات الضرورية للوقف والوصل والمد والسكوت ونحو ذلك مما تقتضيه هذه القراءات المأثورة بحيث يكون من الميسور للمسلمين وغيرهم ــ والمصاحف فى متناول الجميع – أن يقرأوا القرآن صحيحاً بسهولة ويسر، فلا تكون قراءتهم متوقفة دائماً علي التلقى، لأن ذلك غير ميسور دائماً، ونعتقد أنه إذا لم ييسر هذا على هذا الوجه وقع الحرج من سوء التلاوة وسوء الأداء وتحريف الألفاظ والمعانى.

وليس من بأس إلى هذا بل لعله مستحب أن يكون هناك فئة من الهواة بل فئة تنفق عليها الحكومات الإسلامية أو المؤسسات الدينية لتظل تتدارس القراءات ويتداولها القراء جيلاً بعد جيل فإن فائدة ذلك بمثابة الفائدة المستحبة التى نوهنا بها فى الاحتفاظ برسم المصحف العثمانى مطبوعاً

---

[١] النساء.

[٢] الرعد ٣١.

[٣] أوردنا هذه الأحاديث وعلقنا عليها فى الفصل الرابع من الكتاب البحث السادس.

http://kotob.has.it

ومخطوطاً ومصوراً فيستمر ذاك كما يستمر هذا قائماً أبداً بين جماعة المسلمين فى كل قطر من أقطارهم، مع ملاحظة نراها مهمة وهى وجوب عدم الغلو فى أداء هذه القراءات وخاصة الغن والمط والترديد مما يخرج القرآن عن قدسيته وبضعف نفوذه الروحى، ومما يكاد يبدو من القراء أنه بسبيل التعالم أكثر منه بسبيل الرواية قراءات غير القراءة الدارجة العامة فى قطرهم.

ولقد قال الإمام الطحاوى والقاضى الباقلانى وأبو عمر بن عبد البر وغيرهم من أئمة الكلام[1] أن القراءات جميعها كانت رخصة فى أول الأمر لتعسر القراءة بلغة قريش على كثير من الناس ثم نسخت بزوال العذر وتيسر الحفظ وكثرة الضبط وتعلم الكتابة، وفى هذا من الوجاهة ما فيه ولابن قتيبة كلام يمت إلى هذا المعنى وفيه من الوجاهة ما فيه حيث قال كان من تيسير الله أن أمر نبيه أن يقرئ كل قوم بلغتهم – يعنى بأدائهم الطبيعى فى النطق – فالهذيلى يقرأ الحاء عينا والأسدى يقرأ تعلمون بكسر أوله، والتميمى يهمز والقرشى لا يهمز، وللطبرى كلام وجيه آخر فى تقريره معنى كتابة المصاحف العثمانية حيث قال إن أمير المؤمنين عثمان بن عفان لما رأى اختلاف الناس فى القراءة وخاف من تفرق كلمتهم جمعهم على حرف واحد وهو هذا المصحف الإمام، واستوثقت له الأمة على ذلك بل أطاعت ورأت فيما فعل الرشد والهداية.

ومع أن المدى الذى انطوت عليه هذه المقتبسات يختلف عن المدى الذى قررناه فى هذا المبحث فإن فيها ما يمكن الاستئناس به على صواب ما قررناه.

* * *

---

[1] الفرقان لابن الخطيب ص ١٦٧

http://kotob.has.it

الفصل الثالث

الخطة المثلى لفهم القرآن وتفسيره

تمهيد

لقد شغفت منذ شبابي بالقرآن، وتذوقت أسلوبه الرائع الحكيم في شتى مواضيعه ودعوته وتوجيهاته وتقريراته، واطلعت على جملة من كتب التفسير وغيرها من الكتب العربية قديمها وحديثها مما يتصل بموضوع القرآن ومبادئه وأهدافه والجدل حوله، واستظهرت كثيرا من روائعه الجهادية والأخلاقية والاجتماعية والروحية، وكانت لي منهاجا في ظروف حياتي التعليمية والجهادية ثم تيسرت فرصة السجن في دمشق قبل الحرب العالمية الثانية من قبل السلطات الفرنسية بسبب الثورة الفلسطينية فرغت فيها لنفسي، ورأيتها سانحة مباركة للاشتغال بالقرآن وخدمته أكثر من ذي قبل، فحفظته غيبا من جهة وعدت إلى قراءة ما تيسر لي من كتب التفسير والكتب القرآنية الأخرى من جهة أخرى، وألفت كتبي الثلاثة[1] فيها ، فكان لي من ذلك مجال لإدامة النظر وإمعان الفكر والتدبر وانتهى بي الأمر إلى اليقين بأن أفضل الطرق لفهم القرآن وتفسيره أن يلاحظ الناظر فيه الأمور التالية مجتمعة:

القرآن والسيرة النبوية:

أولا: أن القرآن سلسلة تامة للسيرة النبوية وتطورها منذ البدء إلى النهاية متصل بعضها ببعض، ومفسر بعضها لبعض: مع ملاحظة الاستدراك الذى أردناه في آخر الفقرة (٥) من الفصل الأول.

ففي كل سورة من سوره ومجموعة من مجموعاته، أو فصل من فصوله صورة لموقف من مواقف النبي من سكان بيئته من العرب وغير العرب وبين المشركين والكتابيين، أو صورة لموقف من مواقفهم منه ومن دعوته، أو صورة من صور مواقف النبي من الذين استجابوا للدعوة أو من مواقفهم منه، أو من مواقف الكفار منهم أو مواقفهم من الكفار أو صورة لتطورات جميع هذه المواقف، دعوة وتبيانا وبرهنة وتدليلا وعظة وتنبيها وتبشيراً وإنذاراً، ووضعاً وتشبيهاً وقصصاً

---

[1] عصر النبي ﷺ وبيئته قبل البعثة – صورة مقتبسة من القرآن صدر عام ١٣٦٦ –١٩٤٧، وسيرة الرسول جزءان– صورة مقتبسة من القرآن. صدر عام ١٣٦٧– ١٩٤٨ ونظم القرآن ودستوره في شؤون الحياة وهو جاهز للطبع.

http://kotob.has.it

وأمثالاً وترغيباً وترهيباً ووعداً ووعيداً، وجدالاً وتحدياً وعناداً ومكابرة واستكباراً وأذى، وتنديداً وتنويها وتسلية وتثبيتاً وتطميناً وتعبيراً، وسؤالاً وجواباً وجهاداً وتشريعاً الخ، وكل صورة معطوفة على صورة سابقة أو مرتبطة بصورة لاحقة، فى اتساق وانسجام تامين وضمن نطاق واحد يتضح لكل من ينعم النظر فى القرآن ويقرأ سورة خاصة وفق تتابع النزول بقدر الإمكان.

وملاحظة ذلك مهمة جدا فى فهم مواضيع القرآن وتقريراته ومداه وروحه وفى جعل الناظر فيه لا يبتعد عن حقيقة الواقع والباعث، ولا يتورط فى التخمينات والتزيدات والجدليات وتحمل العبارات القرآنية ما لا تتحمله. وتوضيحا لذلك نقول إن فى القرآن مثلا ما يفيد أنه جرى تبديل بعض الآيات ببعض وأنه نسخت بعض آيات أو أمور مأمورة بغيرها كما يدل على ذلك آيات النحل ٩٨ - ١٠٥ والبقرة ٩٨ - ١٠٥، وفيه ما يفيد أن أحكاما وأوامر وتشريعات عدلت أو نسخت أو تطورت كما تدل على ذلك آيات الأنفال ٦٥-٦٦ والمجادلة ١٢-١٣ والنساء ١٥-١٦ والنور ٢، وفيه تنوع فى الخطاب للناس عامة مسلمين وغير مسلمين، سواء أكان ذلك فى صدد الدعوة أو فى صدد المواقف أم فى صدد التبشير والإنذار والتمثيل والتشريع والهداية والضلال والكفر والإيمان والإحسان والإساءة حيث يكون الخطاب شديدا موئسا حينا ولينا مؤملا حينا، وجانحا حينا إلى تقرير كون الهداية والضلال والكفر والإيمان والإحسان والإساءة من مكتسبات المرء بما أودعه الله فيه من المواهب والقوى والاكتسابية والتمييزية وتقرير عودة التبعية فيها عليه حسنة أو سيئة من أجل ذلك، وجانحا حينا إلى تقرير كون ذلك من تقديرات الله الحتمية التى لا ينفع فيها إنذار ولا تبشير مما هو منبث فى مختلف السور والفصول القرآنية، وفيه تقريرات شديدة وموئسة بالنسبة للكفار والمنافقين كما جاء فى آيات يس ٨-١٠ والبقرة ٦-٧ بالنسبة للأولين والبقرة ٨-١٨ والنساء ١٣٧-١٤٣ والمنافقون ٢-٦ بالنسبة للآخرين فيها جزم بمصيرهم الرهيب المحتوم من عدم الإيمان واستحقاق الخلود فى النار مع أن كثيرا منهم بل أكثرهم قد آمنوا وحسن إيمانهم وتبدل مصيرهم إلى الثواب والنعيم واستحقوا التنويه والثناء، ونزل فى صدد ذلك آيات قرآنية أخرى كما جاء فى آيات الأنفال ٢٥ والنحل ١١٠ والفرقان ٧٠-٧١ إلخ.. وقد كانت هذه الأمور وما تزال مثار جدل وحيرة حول ما إذا كان يصح على الله المحيط بما كان ويكون والأزلى العلم والإرادة للبداء أى الرجوع عما أنزله وقرره وأمر به وأراده ونسخه وتعديله وتبديله وتنويع مفهوم الاحتمالات والنصوص فيه، فى حين أن ملاحظة صلة الوحى القرآنية الوثيقة بالسيرة النبوية وأحداثها على تنويع صفحاتها وظروفها تجعل الناظر فى القرآن يندمج فى الوقائع والمقتضيات، ويجد أن الفصول القرآنية، إنما كانت تنزل حسب حوادث السيرة وظروف الدعوة، وإنه لما كانت هذه الحوادث والظروف عرضة للتطور والتبدل

http://kotob.has.it

والتنوع فإنها تجعله يرى الحكمة واضحة فى التبديل والتعديل والنسخ والتنويع والشدة واللين فى الخطاب، وتجعله يرى أن الجدل فى ذلك النطاق لا محل له ولا طائل من ورائه، لأن التطور والتنوع فى الأحداث والظروف والأذهان متسقان مع طبائع الأمور ونواميسها التى فطر الله الكون عليها فلا بدع أن تقتضى حكمته أن يكون ذلك فى التنزيل القرآنى اتساقا مع هذه الطبائع والنواميس، والمدقق فى آيات القرآن التى تفيد ذلك يجد القرآن يورد التقريرات المقتضية حسب الأحداث والظروف وتنوعها وتطورها على أسلوب الحكيم، فلا يدخل فى نقاش جدلى إلا بمقدار الضرورة المتناسبة مع الموقف الواقعى، فيعلمنا بذلك الطريقة المثلى لفهم القرآن وروحه ومداه وظروف تنزيله وتنوعه وأسلوبه، وكون المهم فيه هو الإصلاح والتوجيه إلى خير الوجهات لظروف قائمة وأذهان وفئات ومواقف متفاوتة ومتنوعة ومتطورة، وينطوى ذلك فى الوقت نفسه على التلقين والتوجيه المستمرين إلى الآماد التالية مما يرشح القرآن للخلود والشريعة القرآنية الإسلامية للعمومية والأبدية

القرآن والبيئة النبوية.

وثانيا : إن الصلة قائمة ووثيقة بين ما كانت عليه بيئة النبى ﷺ وعصره من تقاليد وعادات وعقائد وأفكار ومعارف وبين البعثة النبوية والسيرة النبوية، وبالتالى بين الوحى القرآنى وبين ما كانت عليه هذه البيئة.

وهذه الصلة واضحة[1] أولاً من جهة أن الدعوة النبوية والوحى القرآنى بوجه عام إنما اقتضتهما حكمة الله بسبب ما كان عليه الناس- وأهل بيئة النبى فى مقدمتهم وهم المخاطبون الأولون - قبل البعثة من ضلال فى فهم كمال صفات الله ونزاهته عن الشريك والولد واستغنائه عن الولى والمساعد ومطلق تصرفه فى كونه، واستحقاقه وحده للعبودية والخضوع والاتجاه ووجوب نبذ ما سواه، ومن انحراف عن طريق الخير والحق والعدل والفضيلة ومن اختلاف عظيم فى المذاهب والعقائد والطقوس، سواء فى ذلك كله العرب وغيرهم، والكتابيون والمشركون، ثم بسبب أن ذلك ناشىء عما كان من تقاليد وعادات وأفكار ومعارف وأهواء وتأويلات ومفاهيم.

---

[1] اقرأ مثلا الآيات التالية : البقرة ٨١-٨٥ و ١٠٧ -١١٦ و١٢٥- ١٢٩و ١٥٨-١٨٩ و١٩٧-٢٠٣و ٢١٩-٢٤٧و٢٧٥- ٢٨٣ وآل عمران ٥٩- ٦٠ و٧٧- ٧٨و ٩٣- ٩٧ والنساء ٢-١٢ و١٩-٣٤و ١٥٢-١٦١ والمائدة ١-٥ و ١٢-١٩ و ٧٢-٨٠ و ٩٠-٩٧- و ١٠١-١٠٤ والأنفال ٣١والنحل ٦٤ ولقمان ٢١ والقصص ٥١ -٥٣ والشعراء ١٩٢ -١٩٧و ٢١٠-٢١٢، ٢٢١-٢٢٣ ويوسف ١١١ وفصلت ٣.

http://kotob.has.it

وثانيا : مما احتواه القرآن من فصول الجدل والتنديد والتقريع فى صدد هذه التقاليد والعادات والأفكار والمعارف والأهواء والتأويلات والمفاهيم التى احتوى القرآن إشارات كثيرة إلى كثير من صورها المتنوعة، وربط بينها وبين مواقف العرب والدعوة النبوية.يضاف إلى هذا المظهر القرآنى العام نصوص قرآنية خاصة

(١) فى هذا المعنى وردت فى مواضع عديدة وبأساليب متنوعة إذا تمعن القارئ فيها ظهرت له هذه الصلة ظهورا جليا. وتزيد فى إيضاح ذلك بالأمثلة التالية:

١- فى القرآن توكيدات بعدم جدوى الشفاعة والشفعاء عند الله إلا بأذنه ورضائه، وتنديدات باعتذارات المشركين عن عبادتهم لشركائهم واتجاههم إليهم فى الدعاء والتضرع بأنهم إنما يتخذونهم شفعاء ووسائل قربى إلى الله، وقد كثرت فى هذا الباب مما يدل على رسوخ هذا المفهوم فى أذهان المشركين فى بيئة النبى وعصره قبل البعثة.

٢- إن آيات القرآن الواردة فى طقوس الحج تفيد صراحة حينا وضمنا حينا آخر أنها كلها أو جلها قد كانت ممارسة قبل البعثة النبوية فأقرت فى الإسلام بعد تنقيتها من شوائب الشرك والوثنية، مع أن فيها ما لا يمكن فهم حكمة إقراره الآن مثل الطواف حول الكعبة والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار واستلام الحجر الأسود وتقبيله الخ فهذه الآيات متصلة بتقاليد الحج العربية قبل الإسلام ورسوخها وأهدافها، وفيها مظهر ما لوحدة العرب على اختلاف منازلهم ونحلهم حيث كانوا جميعهم يشتركون فى الحج ومواسمه وتقاليده وحرماته وأشهره الحرم، وحكمة إقرارها فى الإسلام منطوية فى ذلك الرسوخ من جهة وما كان له من فائدة وأثر فى الوحدة المذكورة التى كان القرآن يدعو إليها من جهة ثانية ولعل قصد تأنيس العرب بالدعوة الإسلامية مما ينطوى فى تلك الحكمة أيضا.

٣- ليس فى القرآن المكى حملات عنيفة على اليهود الذين كان يسكن منهم فى الحجاز جاليات كبيرة، واكتفى فيه بذكر قصص موسى وفرعون وبنى إسرائيل الأولى مستهدفا بذلك ما استهدف بذكر قصص الأنبياء الأخرى، وقد جاءت تلك القصص بأسباب أو فى مما جاءت هذه مما يمكن أن يكون الحكمة فيه وجود تلك الجاليات الكبيرة وصلتها الوثقى بالبيئة الحجازية العربية وسكانها واحتوى القرآن المكى آيات كثيرة فيها استشهاد بأهل الكتاب على صحة رسالة النبى بأسلوب يفيد أنهم شهدوا ويشهدون بذلك[1]، وتحمل فى ثناياها تنويها بهم، وتقرير الاتساق بينهم

---

(١) لأحقاف ١٠ والأنعام ١١٤ والرعد ٣٦ والشعراء ١٩٧ والقصص (٥-٥٣) والعنكبوت ٤٧.

http://kotob.has.it

وبين الدعوة القرآنية والمستجيبين إليها، هذا فى جهة أن القرآن المدنى احتوى حملات شديدة لاذعه على اليهود ووصف سوء أخلاقهم ودسائسهم ومكائدهم، ووصل حاضر هذه الأخلاق بأخلاق الآباء. فهذا متصل بدون ريب بحالة قائمة فى البيئة النبوية وظروفها. فإنه لم يكن لليهود فى مكة كتلة ذات مركز قوى راسخ فى حين كان لهم ذلك فى المدينة، ولم يقع بينهم وبين النبى فى مكة بسبب ذلك احتكاك وتشاد فى حين أن ذلك قد وقع فى المدينة بسبب ما كان لهم فى المدينة من كتلة قوية وقدم راسخة ومصالح حيوية ومركز ممتاز مما احتوت الآيات القرآنية وصفا لذلك.

ومن الممكن إيراد أمثلة كثيرة من هذا النوع الذى يبين صلة ما كانت عليه بيئة النبى بالبعثة النبوية والسيرة النبوية والتنزيل القرآنى وقد اكتفينا بهذه الأمثلة ونبهنا على أمثالها الكثيرة فى سباق التفسير.

فملاحظة هذه الصلة مهمة جدا كسابقتها من مواضيع القرآن وتقريراته وروحه ومداه، وفى جعل الناظر فيه يندمج فى الوقائع ومقتضياتها، ولا يبتعد عن حقيقة الواقع والباعث، أو يتورط فى الجدل والتزيد وتحميل العبارات القرآنية ما لا تتحمله وما لا طائل من ورائه.

اللغة القرآنية:

ثالثا: إن لغة القرآن فى مفرداتها وتراكيبها واصطلاحاتها وأساليبها وأمثالها وتشبيهاتها واستعاراتها ومجازاتها هى لغة البيئة النبوية وإنها مألوفة ومفهومة ألفة وفهما تامين من أهلها.

وليس الذى نعنيه بهذا تقرير قضية قد تكون بديهية فى بعض الأزمان ولكن الذى نعنيه وجوب ملاحظة ذلك حين النظر فى القرآن لأنه يساعد على فهم اصطلاحات لغة القرآن وأساليبها وأمثالها وتعبيراتها واستعاراتها ومجازاتها من جهة، وكون القرآن من جهة ثانية قد وجه أول ما وجه إلى أناس ألفوا لغته كل الألفة وفهموها كل الفهم، ووصلوا فى عقولهم ومعارفهم وبيانهم ودقة تعابيرهم وبلاغة أساليبهم وفصاحة ألسنتهم، والاستمتاع بمتنوع أشكال الحياة المادية والمعاشية، والنفوذ إلى المفاهيم الأخلاقية والاجتماعية والدينية والعلمية والأدبية إلى درجة غير يسيرة من الرقى متناسبة مع ما عبرت عنه وأشارت إليه وتضمنته لغة القرآن مما هو نتيجة لازمة لكون القرآن إنما نزل بلسانهم، وكون لغة القوم هى أصدق مظهر لحياتهم المادية والعقلية والاجتماعية والدينية[1] ثم نعنى بالإضافة إلى هذا أن ينتفى من ذهن الناظر فى القرآن المعنى الذى حلا لبعضهم أن ينوه به وهو انطواء بعض

---

[1] فى عصر النبى ﷺ وبيئته قبل البحث بحوث مستفيضة فى كل ذلك مقتبسة من الآيات القرآنية.

http://kotob.has.it

حروف القرآن وكلماته بل وبعض جمله وتعابيره وصور سبكه ونظمه على أسرار وألغاز ومعميات وكذلك المعنى الذى قرره بعضهم من علو طبقة اللغة القرآنية عن إفهام سامعيها إطلاقا دون استثناء، والمعنى الذى قرره بعضهم من أن لغة القرآن قد احتوت أو قصد أن تحتوى جميع لهجات ولغات العرب القديمة والحديثة مع لغات الأمم الأخرى.

ففى الإتقان للسيوطى فصول عديدة تشير إلى هذه المعانى ونذكر خاصة منها الفصل السابع والثلاثين كما أن كثيرا من الكتب الموضوعة عن القرآن وتفسيره قد احتوى تقرير هذه المعانى أيضا وفى الأقوال الواردة فى تلك الفصول وهذه الكتب المروية أو الصادرة عن علماء قديمين كثير من التكلف والتزيد والتجوز والتخمين والتورط إن لم نقل التخريف.

ولقد جاء فيما جاء فى فصول الإتقان نقلا عن كتاب الإرشاد للواسطى فى صدد تعدد اللغات التى احتواها القرآن أن فى القرآن خمسين لغة وهى لغات قريش وهذيل وكنانة وخثعم والخزرج وأشعر ونمير وقيس وعيلان وجرهم واليمن وأزدشنوءة وكندة وتميم وحمير ومدين ولخم وسعد العشيرة وحضرموت وسدرس والعمالقة وأنمار وغسان ومذحج وخزاعة وغطفان وسبأ وعمان وبنى حنيفة وتغلب وطى وعامر بن صعصعة والأوس ومزينة وثقيف وجذام وبلى وعذره وهوازن والنمو واليمامة ومن غير العربية الفارسية والرومية والنبطية والحبشية والبربرية والسريانية والعبرانية والقبطية .. ولو عرف القائل قبائل عربية وأمما غير عربية أخرى غير الذى ذكره لأوردها أيضا.. وزاد غيره تفريعا فقال إن فيه من لغة بلى لغات الطائف وثقيف وهمدان ونصر بن معاوية وعك وليس هذا كل ما قيل وإنما هو أوسع ما قيل، فإن فى فصول الإتقان أقوالا كثيرة فى هذا الباب. وكلام القائلين ليس هو من قبيل تقرير ما قد يكون معقولا وصحيحا من أن لغة القرآن التى هى لغة قريش متطورة مع الزمن عن لغات العرب قبل نزوله، ومن أن فى القرآن ألفاظا معربة عن اللغات الأجنبية أعلاما وغير أعلام دخلت على اللغة العربية القرشية وجرت مجراها وصارت جزءا منها قبل نزوله كذلك، بل بقصد تقرير أن ذلك التعدد واقعى وأنه إنما كان أولا بسبب أن القرآن حوى علوم الأولين والآخرين ونبأ كل شىء فلابد من أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن لتتم إحاطته بكل شىء فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالا وثانيا بسبب أنه امتاز عن غيره من سائر الكتب المنزلة فنزلت هذه بلغة القوم الذين أنزلت عليهم ولم تدخل فيه لغة من لغات غيرهم فى حين أن القرآن احتوى جميع لغات العرب والعجم وثالثا بسبب أن النبى محمدا ﷺ مرسل إلى كل أمة وقوم وقد قال الله ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ فلزم أن يكون فى الكتاب المنزل عليه شىء من لسان كل قوم وإن كان أصله بلغة قومه هو.

http://kotob.has.it

وجميع هذه المعاني لا تصح في حال. فمن ناحية علو طبقة القرآن عن أسماع الناس وأفهامهم أو انطواء حروفه وكلماته على أسرار وألغاز ومعميات فإن في القرآن نصوصا حاسمة تنفي ذلك حيث تنص على أنه بلسان مبين أي واضح مفهوم وأن آياته قد فصلت تفصيلا، وأنه أنزل ليتدبره السامعون ويعقلوه ويفهموه ويحلون به ما يختلفون فيه كما أنه كان موجها إلى كل طبقة من أهل بيئة النبي ﷺ يحكي كلامهم وأسئلتهم ويرد عليها مجيبا أو مندداً أو مكذبا أو ملزما أو واعظا أو مشرعا أو في هذا ما يتنافى كذلك مع تلك المعاني وهذا فضلا عن أنها غير متسقة مع مهمة النبي المكلف بمخاطبة مختلف الطبقات والمأمور بتبليغ ما أنزل إليه من ربه لهم والذي كان يتلوه على الناس كافة من مختلف الفئات في جميع ظروف سيرته الشريفة في عهديها المكي والمدني وأنها غير متسقة مع كون القرآن هدى للناس كافة يؤمرون باتباع ما أنزل فيه وتدبر آياته والتروي في أحكامه ومحتوياته، ويقال لهم فيه أنه مرجعهم في مختلف شئونهم، ومنه يستمدون تشريعهم وأخلاقهم ونذرهم وبشائرهم وحلول مشكلاتهم الخ. ومن ناحية احتواء القرآن مختلف لهجات ولغات الأمم عربها وعجمها وقديمها وحديثها على المقصد الذي شرحه القائلون فإنه لا يتسق في حال مع نصوص القرآن المطلقة والمتعددة بأنه أنزل بلسان عربي وجعل لسانا عربيا وأنه أنزل بلسان النبي العربي القرشي ولا مع نص الحديث البخاري في صدد نسخ المصاحف في عهد عثمان الذي احتوى تقريرا صريحا بأنه إنما أنزل بلغة قريش.

ومن هذا الباب ما قيل حتى أصبح مستفيضا وحجة خطابية حاضرة من أن الله كما أرسل موسى في ظرف ارتقى فيه السحر وشاع بمعجزة تشبه السحر وليست سحرا فغلب الساحرين، وأرسل عيسى في ظرف ارتقى فيه الطب وشاع بمعجزة تشبه الطب فأتى بما يعجز الطب والأطباء فإنه أرسل محمدا بالقرآن فائقا على بلاغة البلغاء في ظرف كانت سوق الفصاحة فيه رائجة، وبلاغة الكلام فيه قد وصلت إلى أعلى الذرى نظما ونثرا فقصر عنه البلغاء والفصحاء وكان فيه معجزته. فهذا القول مع ما في ارتقاء السحر وشيوعه والطب إلى أعلى الذرى في عهدي موسى وعيسى من محل نظر وتوقف، يعني أن القرآن قد قصد به أن يكون معجزا في فصاحته وبلاغته اللغوية والنظمية والفنية كأنما هو معلقة من معلقات الشعر الخالدة، أو قد قصد به أن يكون أعلى من مستوى أفهام الناس وبلاغة بلغائهم وهذا لا يصح في اعتقادنا على ما ذكرناه آنفا والقرآن يقرر أنه ﴿إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين﴾[1] ﴿وهذا بلاغ للناس ولينذروا

---

[1] يس ٦٩-٧٠.

http://kotob.has.it

به﴾[٢]و ﴿إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجـــراً كبيراً﴾ ، ﴿ وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذابا أليما﴾[٣] ﴿وننزل من القرآن ما هو شـــفاء ورحمة للمؤمنين﴾[٤]و ﴿إنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا﴾[٥] ﴿وما أنزلنا عليــك الكتاب إلا لنبيين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾[١] ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾[٢] ﴿وإنا أنزلنا الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنمـا يضل عليها﴾[٣] الخ.

يضاف إلى هذا أن القرآن فى لغته وسبكه وأساليبه واصطلاحاته ومفهوماته وإشاراته ليس مغلقاً أو غامضاً أو معقداً أو صعباً على متوسط الأفهام والأذهان، وأنه كان يفهمه مختلف أوساط العـــرب حضرهم وبدوهم بل والمستعربون المقيمون فى الحجاز أو الوافدون علـــى النبـــى ﷺ مـــن البـلاد المجاورة من عرب ومستعربين أيضا ففى القرآن آيات كثيرة تشير إلى أن النبى ﷺ كان يتلو آيـــات القرآن على مختلف طبقات الناس كما جاء فى آيات الكهف ٢٧ والنمل ٩٢ والعنكبوت ٤٥ والأحقاف ٢٨-٣٠ والجن١ مما هو متسق مع مهمته، وأن منهم من كان يقول ﴿إن هذا إلا قول البشـــر﴾ ﴿وإن هذا إلا أساطير الأولين﴾ ، ﴿وقد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ ولقد تكرر فى القرآن المكى والمدنـــى الإشارة إلى أهل الكتاب وأهل العلم وفى بعض الآيات ما يفهم أن من هؤلاء مـــن جـــاء خصيصـــاً ليجتمع بالنبى ﷺ ويستمع القرآن وقد كان منهم من تفيض عيونهم من الدمع ويخرون خشعا سجدا من تأثير ما يسمعون منه ويعلنون إيمانهم وتصديقهم به[٤] مما يلهم أنهم كانوا يسمعون كلاماً يفهمونه مـــع أنهم جاؤوا من نجران اليمن أو بلاد الشام أو الحبشة حسب ما أوضحته الروايات، كمـــا أن لليـــهود الإسرائيليين والنصارى غير الحجازيين والذين يمتون أو يمت أكثرهم إلى أصول غير عربية والذين كانوا متوطنين فى مكة والمدينة، كانوا ممن وجهت إليهم الدعوة، وكان القرآن يتلى عليهم ويفهمونـــه

---

[١] إبراهيم ٥٢.

[٢] الإسراء ٩-١٠.

[٣] الإسراء٨٢.

[٤] مريم ٩٧.

[٥] النحل ٦٤.

[٦] النحل ٤٤.

[٧] الزمر ٤٢.

[٨] اقرأ آيات المائدة ٨١ -٨٤ والإسراء ١٠٧-١٠٩ والقصص ٥٢-٥٥ مثلا.

http://kotob.has.it

وقد اندمجوا فى ظروف السيرة النبوية إيجابيا وسلبيا. وإذا كان يبدو اليوم فيه شيء من ذلك أو إذا كان بدا فيه شيء من ذلك منذ قرون عديدة سابقة أو إذا كان يبدو فيه اليوم وقبل اليوم كذلك مفردات غريبة على الأسماع والمألوف فإن هذا كله إنما نجم عن بعد الناس عن جو نزول القرآن وزمنه وجو لغته وجو البيئة التى نزل فيها من جهة، وعما طرأ على اللسان العربى من الفساد من جهة، وعما كان من اندماج كثير من غير العرب فى العروبة ولغتها وتعلمها تعلما لا يمكن أن يقوم مقام السليقة الأصلية فى بنيها الأصليين من جهة.

ولقد احتوى نصوصا كثيرة تقرر المرة بعد المرة ما هو عليه منه وضوح وإبانة وإحكام وتفصيل ويسر فهم وسهولة إدراك فى معرض التنديد بالمكابرين والجاحدين والمجادلين[١]، وهذا إنما هو ملزم مفحم لأن اللغة التى يسمعونها واضحة بينة مما ألفوه كل الألفة وليس فيها غموض ولا تعقيد وإشكال، ولا علو عن الإفهام لا من ناحية النظم والسبك واللغة ولا من ناحية المعنى والمفهوم والدلالة.

ونريد أن نستدرك شيئا فإننا لسنا نعنى بما نقرره أننا نشك فى إعجاز القرآن وعلو طبقته اللغوية والنظمية، كما أن كلامنا لا يقتضى ذلك، فإعجاز القرآن لا يحتمل شكا، فهو مقرر فى القرآن وثابت فعلا يعجز أى أحد كان عن الإتيان بمثله أو بشيء من مثله رغم تكرر التحدى، والإيمان بذلك واجب، وعلو طبقته بارز بروزا فى غنى عن التدليل، ولم يبق العلماء الثقاة فى تقرير ذلك محل زيادة لمستزيد غير أن الذى نعنيه أن إعجاز القرآن وعلو طبقته وروعة أسلوبه لا تقتضى أن يكون أعلى من مستوى إفهام العرب الذين خوطبوا به ووجه إليهم، ولا أن يكون أبعد من متناول إدراكهم ولا أن تكون مفرداته ومضامينه وتراكيبه غير مألوفة لديهم، ولا أن يكون قد قصد به أن يكون معجزا فى بلاغته اللغوية والنظمية والفنية، والفرق كبير بين المعنيين كما هو واضح فيما يتبادر لنا ولعله مما يصح أن يذكر فى هذا المقام على سبيل التمثيل والتقريب - ولله ولكتابه ونبيه المثل الأعلى- كاتب ذو أسلوب راق شائق قوى النفوذ يجعله فى الطبقة الأولى أو ذروتها فى حين يكون سهل التناول غير غامض ولا معقد، يستطيع أن يسبقه مختلف القراء وأواسطهم، بل وإن هذا الأسلوب ليكون دائما أحسن الأساليب وأفصحها وهو الذى يسميه البيانيون بالسهل الممتنع، هذا عدا عن أن إعجاز القرآن فيما نعتقد ليس من ناحية نظمه وأسلوبه اللغويين فحسب، بل هو أيضا من ناحية روحانيتها النافذة الباهرة التى تنفذ إلى أعماق عقل الإنسان وقلبه وروحه، ونعتقد أن لهذا

---

[١] النساء ٨٢ والأنعام ١٥٥-١٥٧ وهود ١-٢ ويونس ١-٢ والحجر ١ والنور ١ والشعراء ١-٢ والفرقان ١ والنمل ١-٢ والعنكبوت ٤١-٥٢مثلا.

http://kotob.has.it

الاعتبار الأول فى إعجازه، وأن التحدى وتقرير عدم إمكان الإتيان بمثله أو بشىء من مثله إنما هو "للقرآن" وهذا هو التعبير الذى استعمل فى القرآن الذى كما هو لغة وأسلوب هو كذلك معان ودعوة قوية نافذة باهرة فى مداها ومضمونها وشمولها وسعة أفقها وروحانيتها التى وصف أثرها القرآن نفسه بهذا الوصف:

١- ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله..﴾

(الحشر : ٢١)

٢- ﴿الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ... ﴾ (الزمر : ٢٣)

٣- ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ..﴾ (الإسراء : ٨٢)

ثم التى وصف أثرها القرآن فى أهل العلم والنية الحسنة من الكتابيين بهذا الوصف القوى النافذ:

١- ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم نفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾ .

(المائدة : ٨٣-٨٤)

٢- ﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ... ﴾ (الرعد : ٣٦)

٣- ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا﴾ (الإسراء : ١٠٧- ١٠٨)

٤- ﴿وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا.. ﴾ (القصص : ٥٣)

ولعل من الدلائل على أنه لغة القرآن ولغة بيئة النبى شىء واحد ونعنى المفردات والمصطلحات والتراكيب حكاية القرآن لكلام الكفار وغير الكفار ورده عليهم، والأحاديث الكثيرة جدا الواردة عن النبى وأصحابه التى لا فرق بين لغتها ولغة القرآن، بل ولقد رويت أحاديث تذكر أن بعض الصحابة والكفار قالوا كلاما بعينه فنزل القرآن بنفس النظم الذى صدر عنهم منها:

١-حديث روى عن عمر بن الخطاب أنه قال لنساء النبى حينما تآمرن على النبى ﷺ بسائق الغيرة: ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن﴾.

٢-حديث بخارى مروى عن زيد بن أرقم أنه سمع عبد الله بن أبى يقول ﴿لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله﴾ ويقول ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل....﴾

http://kotob.has.it

وآيات سورة المنافقون ٧-٨ وسورة التحريم٥ قد احتوت هذه النصوص كما هو معلوم.

ونحن نرى هذا بديهيا ومن تحصيل الحاصل، ولكنا أثبتناه لأن فكرة أن هناك فرقا عظيما بين لغة القرآن ولغة أهل بيئة النبى ﷺ ، وأن تلك اللغة أعلى من مستوى أفهام هؤلاء قوية الرسوخ.

ومما يقوم شاهدا قرآنيا على هذا الذى نقرره فى هذه النقطة خاصة ما جاء فى بعض الآيات من حكاية لأقوال الكفار فى القرآن مثل ﴿إن هذا إلا قول البشر﴾[1] ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا[2]...﴾ ، ﴿وقالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾[3]... فهذه النصوص تتضمن قرائن حاسمة على أن سامعى القرآن وخاصة الطبقة المتزعمة والنبيهة التى كانت تتولى كبر المعارضة وقيادتها كانوا يسمعون كلاما يفهمونه كل الفهم بجميع دقائقه ، لا يعلو عن أفهامهم ولا يبعد عن مألوفاتهم ويرونه شبيها بأقوال الناس بل ويصفونه بأنه كذلك..

ونريد كذلك أن ننبه على نقطتين أخريين :

فأولا أن ما قلناه من فهم المخاطبين العرب على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم للقرآن لا يقتضى أن يكون متناقضا مع ما هو مقرر بصورة حاسمة من أن لغة القرآن هى لغة قريش، فالقرآن وجه أول ما وجه إليهم وإلى القبائل والمدن الحجازية كما جاء فى آيتين متماثلتين فى سورتى الأنعام والشورى وهما:

١- ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾.

(الأنعام : ٩٢)

٢- ﴿وكذلك أوحينا إليك قرانا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها﴾

(الشورى : ٧)

على أن لغة قريش من جهة أخرى كانت إجمالا فى عهد البعثة النبوية لغة العرب جميعهم على اختلاف منازلهم أو على الأقل مفهومة من العرب جميعهم بسبب ما كان من اشتداد التحاك بين قريش وسائر العرب فى مواسم الحج التى كان يشترك فيها العرب جميعهم والتى كانت تقام قبل البعثة النبوية بمدة طويلة وبسبب وحدة الأصل من حيث المبدأ ولعل فى آية الشورى الآنفة الذكر خاصة دلالة أو قرينة على ذلك حيث وصفت القرآن بالعروبة مع إشارتها إلى مهمة الرسول ﷺ فى إنذاره مكة ومن حولها وقد وصف القرآن بهذا الوصف فى آيات مكية عديدة أخرى كما ترى فيما يلى:

---

[1] المدثر ٢٥.

[2] الفرقان ٥.

[3] الأنفال ٣١.

http://kotob.has.it

١- ﴿إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾. (يوسف : ٣)

٢- ﴿وكذلك أنزلناه حكما عربيا﴾. (الرعد : ٣٧)

٣- ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين﴾. (الشعراء : ١٩٢-١٩٥)

٤- ﴿ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون﴾. (الزمر : ٢٧-٢٨)

٥- ﴿كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون﴾ (فصلت : ٣)

٦- ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلك تعقلون..﴾ (الزخرف : ٣)

مما يدعم النقطة التى قررناها، وكذلك مما يدعمها أن القرآن وصف غير العربية بالأعجمية كما ترى فيما يلى:

١- ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه رجل لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين﴾. (النحل : ١٠٣)

٢- ﴿ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى﴾ (فصلت : ٤٤)

بحيث يستفاد من ذلك أن العربية كانت حينما تطلق تشمل لغة العرب جميعهم، وأنه لم يكن للعرب جميعهم لغة غير اللغة التى نزل بها القرآن، وأن لغة قريش التى هى لسان النبى الذى ذكر القرآن أن الله قد يسر القرآن به أى لغته كانت هى لغة العرب جميعهم.

وثانيا : إن ما قلناه من أن كل كلمة فى القرآن كانت مفهومة من العرب على حقيقة مداها ومعناها لا يقتضى أن يكون مناقضا لما هو طبيعى فرضا وواقعا وبديهة من وجود كلمات فيه لا يفهم مداها ومعناها إلا الفئات الخبيرة النيرة منهم بل ومن وجود كلمات قد لا يكون سمعها أو قد يجهلها بعض أفراد من هذه الفئات نفسها، ومن وجود أفراد قليلين أو كثيرين أو قبائل برمتها تجهل المعنى الحر فى قليل أو كثير من مفردات القرآن بل ومن بعض تعابيره كذلك. وهذه الظاهرة مشاهدة ملموسة فى كل ظرف وقطر ومن كل فئة بما فيها الفئات المتعلمة. ومع ذلك فمن المشاهد الملموس أن الناس على اختلاف فئاتهم وثقافاتهم وخاصة أواسطهم لا يعييهم أن يفهموا ما يقرأونه من رسائل وكتب وصحف ويسمعونه من خطب وإذاعات وطبيعى أن العرب فى عصر النبى ﷺ وعهد بعثته لم يكونوا ليخرجوا عن نطاق هذه الظاهرة: وإذا روى عن بعض الصحابة جهلهم لمعنى كلمة من الكلمات القرآنية فلا يكون فى ذلك غرابة ما بقطع النظر عن صحة الرواية متنا وسندا.

http://kotob.has.it

ومن هذه البيانات تتجلى فائدة الملاحظة التى هى موضوع البحث الأصلى مهما بدت للبعض بديهية، حيث تجعل الناظر فى القرآن يندمج فى جو لغته وأساليبه واصطلاحاته التى هى لغة عهد نزوله وأساليبه واصطلاحاته ولغة ظروف هذا العهد، فينجلى له كثير من الأمور والمعانى على وجهها وحقيقتها، ولا ينجر إلى معان ومدى ومفهومات وتزيدات وتكلفات وتخمينات ومعميات لا تتحملها نصوص القرآن وأساليبه ودلالاته وظروف نزوله ومهمة من أنزل عليه.

القرآن أسس ووسائل:

رابعا: إن محتويات القرآن نوعان متميزان وهما الأسس والوسائل، وأن الجوهرى فيه هو الأسس، لأنها هى التى انطوت فيها أهداف التنزيل القرآنى والرسالة النبوية من مبادئ وقواعد وشرائع وأحكام وتلقينات مثل وحدة الله وتنزهه عن كل شائبة وشريك وولد واتصافه بجميع صفات الكمال ومطلق التصرف فى الكون واستحقاقه وحده العبادة والخضوع ونبذ كل ما سواه والقيام بالواجبات التعبدية له، ومثل المبادئ والأمر والنواهى والتشريعات والأحكام والتلقينات الكفيلة بصلاح الإنسانية وطمأنينتها والتعاون الأخوى التام بينها أفرادا وجماعات وسلبية وإيجابية واجتماعية وسياسية وحقوقية وسلوكية واقتصادية والنهى عن كل ما يناقض ذلك.

أما عدا ذلك مما احتواه القرآن ومن مواضيع مثل القصص والأمثال والوعد والوعيد والترهيب والترغيب والتنديد والجدل والحجاج والأخذ والرد والتذكير والبرهنة والإلزام ولفت النظر إلى نواميس الكون ومشاهد عظمة الله وقدرته ومخلوقاته الخفية والعلنية فهو وسائل تدعيمية وتأييدية إلى تلك الأسس والأهداف وبسبيلها.

ومع أن جل هذه الوسائل مما له صلة ببيئة النبى وعصره من جهة والسيرة النبوية من جهة وبفهمها، وإن منها ما يتصل بالأسس والمبادئ من بعض النواحى كنتائج لها مثل الحياة الأخروية ومشاهدها وأهوالها ونعيمها وعذابها والملائكة والجن ومعجزات الأنبياء مما يدخل فى الغيبيات الإيمانية من جهة، ومع أنها قد شغلت حيزا كبيرا أو بالأحرى الحيز الأكبر من القرآن فإن من فائدة هذه الملاحظة أن تجعل الناظر فى القرآن يقف عند الأهداف والمبادئ ويعتنى العناية الكبرى بتجليتها وإبرازها، ولا يحمل الوسائل والتدعيمات ما لا ضرورة لتحميلها إياه ولا يترك لها المجال لتغطى على تلك، وتكون له شغلا شاغلا مستقلا بحيث يستغرق فيها مثل استغراقه فى الأسس فضلا عن استغراقه فيها أكثر من استغراقه فى هذه مما هو واقع ومشاهد كالانشغال مثلا فى ماهية القصص القرآنية والنواميس الكونية، أو ماهية الملائكة والجن أو ماهية مشاهد الحياة الأخروية، وبحيث يغفل

http://kotob.has.it

عن هدفها الرامى إلى تدعيم الأسس والأهداف مما يؤدى به إلى إهمال التدبر بالجوهرى والتورط فيما لا طائل من ورائه والوقوع فى الحيرة والبلبلة دون ما ضرورة.

وننبه على أن هذا التقسيم بالمعنى الذى نقرره مستلهم بوجه عام من روح القرآن وأسلوبه وآياته، مما يستطيع أن يلمسه كل من أنعم النظر فيها، حيث يجد أنه لم ترد قصة أو مثل أو موعظة أو حملة تنديد وإنذار أو إشارة تنويه بملكوت الله وعظمته والدعوة إلى التفكير فى آلائه أو ذكره للملائكة والجن، أو تذكير بما كان من دعوة سابقة ومعجزات نبوية خارقة، أو تنبيه إلى الحياة الأخروية ومشاهدها ونتائجها المبهجة أو المزعجة إلا بعد تقرير تلك الأسس والأهداف أو شيء منها والدعوة إليها، أو بيان الحق، والخير والصلاح والسعادة فيها، أو حكاية مواقف الكفار منها، أو تثبيت النبى والمسلمين فيها وتصبيرهم عليها، وهذا من مميزات الأسلوب القرآنى وخصوصياته بالنسبة لسائر الكتب المنزلة، وحيث يجد أن هذه الأسس والأهداف تظل محكمة ثابتة مع ما هو طبيعى من اختلاف مواقف النبى وتنوعها بالنسبة إلى الناس والعقول والظروف فى حين أن ما هو من باب الوسائل والتدعيمات يتنوع ويختلف أسلوبا ومدى وتعبيرا مع اختلاف تلك المواقف وتنوعها وهذا خاصة من شأنه أن يكون مقياسا وضابطا للتفريق بين القسمين القرآنيين بل ومن شأنه أن يحل ما يتوهمه الناظر فى القرآن من إشكالات قرآنية فى الأسلوب والمدى والتعبير أيضا.

وهو مستلهم بوجه من بعض نصوص صريحة فى القرآن- مع ملاحظة ما قد يكون لها من خصوصيات زمنية يأتى فى مقدمتها وقد يكون أقواها مدى وأوضحها دلالة آية آل عمران السابعة هذه : ﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا..﴾

وهذه الآية نزلت فى سياق الرد على وفد نصرانى تناظر مع النبى ﷺ فى أمر المسيح فسأله الوفد ألا يقول القرآن أن المسيح كلمة الله وروح منه قال بلى، قال فهذا حسبنا فنزلت الآية تندد بالوفد الذى ترك الأصل القرآنى المحكم وهو أن الله واحد لا يصح أن يكون له ولد ولا شريك وجنح إلى التأويل الفاسد لبعض النصوص التى أنزلت بقصد التقريب والتمثيل.

وعلى خصوصية الآية من حيث المناسبة فإنها جاءت بأسلوب تقريرى عام لتكون شاملة الحكم والمدى، بحيث يصح أن يستلهم منها بقوة أن القرآن قسمان متميزان أحدهما محكم أساسى ثابت لا يحتمل تأويلا ولا تنوعا ولا وجوها افتراضية وتقريبية وثانيهما متشابهة بسبيل التقريب والتمثيل والإلزام والبرهنة ويحتمل التأويل والتنوع والوجوه الافتراضية.

http://kotob.has.it

ولسنا منفردين فى هذا التخريج فقد سبق إليه كثير من أعلام العلماء والمفسرين على تنوع أقوالهم واختلاف مدى السعة والضيق فيها[١] وقد روى عن ابن عباس[١] فى صدر الآية أن المحكم هو ناسخ القرآن وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه وما يؤمن به ويعمل به وأن المتشابه هو منسوخ القرآن ومؤخره وأمثاله وأقسامه وما يؤمن به ولا يعمل به. وقد نوه للأول بآيات الأنعام ١٥١-١٥٣ والإسراء ٢٣-٣٨ التى هى مجموعات رائعة من المبادئ والأهداف التوحيدية والأخلاقية والاجتماعية والسلوكية.

وفى سورة محمد آية يصح أن تكون دليلا قرآنيا وهى هذه:

﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم﴾ ٢٠.

حيث يلهم نصها أن معنى "محكمة" هو الفرض الأساسى الحاسم من فروض القرآن وتكاليفه.

وفى القرآن آيات كثيرة جدا يبرز فيها تأييد هذا المعنى كآيات البقرة ١٢- ٢٦ والأعراف ٥٧- ٥٨ والكهف ٥٤-٥٩ وطه ٣- ١١ والعنكبوت ٤٠-٤٩ والروم ٢٠-٢٨ والزمر ٩-٢٩ والحاقة ٤-٥٢والمعارج ١١-٤٤ والمدثر ٣٠-٤٧ الخ.

وهو متسق مع حكمة بعثة الرسل وهى هداية البشر وإخراجهم من الظلمات إلى النور والدعوة التى دعوا إليها وهى الدعوة إلى الله وحده وإلى مكارم الأخلاق والمبادئ التى يقوم عليها صلاح الإنسانية وسعادة الناس فى الدارين. أما ما ظهر على أيدى الرسل من معجزات وما صدر عنهم بالوحى الربانى من نذر وبشائر ووعد ووعيد وتذكير وتمثيل فإنه بسبيل تلك الحكمة وإعلائها وتجليتها والإقناع بها والتوجيه إليها كما يبدو واضحا وبديهيا عند ذوى الألباب والروية.

ومما يزيد ما نقرره قوة ووضوحا ما يلاحظ من تطور التنزيل القرآنى وتطور إطلاق تعبير "القرآن" على أجزاء القرآن وسوره وفصوله فالقرآن يطلق كما هو معروف على مجموعة السور التى بين دفتى المصحف، غير أن هذا التعبير قد بدئ باستعماله منذ مبادئ نزول القرآن، وبدئ بإطلاقه على ما كان ينزل من مجموعاته قبل تمامه بل قبل أن ينزل منه إلا القليل ثم ظل يطلق على ما كان ينزل منه وما يجتمع من مجموعاته إلى أن تم تمامه بوفاة النبى ﷺ كما يفهم من آيات المزمل ٤ وق١ والبروج ٢١وص٢ والجن١ والفرقان ٣٢ وطه ١١٤ والواقعة ٧٧ والنمل ١ والإسراء ٩

---

(١) تفسير المارج ٣.

(١) الاتقان للسيوطى.

http://kotob.has.it

ويونس ٨٢ والحجر ١ إلى كثير غيرها من السور المكية[1] ثم ظل يطلق فى السور المدنية على ما نزل وكان ينزل كما يفهم من آيات البقرة ٢ وآل عمران ٣-٤ والنساء ٨٢ والحشر ٢١ ومحمد ٢٤ وغيرها.

والمعقول والواقع أن الآيات والسور القرآنية التى نزلت قبل غيرها قد احتوت فى الأكثر أسس الدعوة ومبادئها وأهدافها واقتصرت أو كادت تقتصر على التبشير بها وإنذار الذين لا يستجيبون إليها ولم تتوسع غير الرسائل كما ترى فى سورة الفاتحة والأعلى والشمس والليل والعصر والإخلاص والتكاثر والتين والقارعة، مما يؤيد أن الأهداف والأسس هى المقصودة الجوهرية فى القرآن أولا. وقد خلت هذه السور وأمثالها أو كادت تخلو من العنف مما هو طبيعى لأن الدعوة وأهدافها ومبادئها هى التى يجب أن تعرض أولا وتنشر دونما عنف ولا جدال، ثم أخذت الفصول التالية لها تحتوى إلى جانب تقرير المبادئ والأهداف والتوسع فيها حملات عنيفة على الجاحدين والكافرين والصادين وحكاية مواقفهم وإنكارهم لصحة الوحى القرآنى كما أخذت تتوسع فى الوسائل التدعيمية من قصص وأمثال ووصف نواميس ومشاهد وذكر غيبيات إيمانية الخ مما هو طبيعى كذلك، لأن الجحود والجدل والإنكار والشك والاستغراب والأذى والصد والتحدى والتحريض إنما وقع بعد عرض الدعوة وتقرير الأهداف، ولأن مواقف الجاحدين والمفكرين والشاكين والمستغربين والمترددين والصادين والمكابرين والمتحدين استتبعت التوسع فى الوسائل التدعيمية والتأييدية. ولقد احتوت الفصول التالية المذكورة جدلا وحجاجا بين النبى والكفار حول "القرآن" وصحة الوحى الربانى مثل آيات القلم ٩-١٥ والتكوير ١٩-٢٩ والفرقان ١ و ٦ و ٣٢ والشعراء ١٩٢-٢٢٦ والإسراء ٤٥-٤٧ و ١٠٥-١١١ ويونس ١٥-١٧ و٣٧-٤٠ وهود ١٣-١٤ والسجدة ١-٣ وسبأ ٣١ وفصلت ٤٠ -٤٥ الخ، والمعقول أن يكون الكفار قد جادلوا فى أول الأمر فى ما احتوته الأجزاء الأولى من القرآن وكادت تقتصر عليه من الأسس والمبادئ وكفروا بنبوة النبى وصحة الوحى الربانى فأخذت هذه الآيات وأمثالها تحكى أقوالهم وترد عليها ردودا مفحمة، وتضرب لهم الأمثال وتذكرهم بمن سبقهم من الأمم والأنبياء وتوعدهم وتنذرهم بالآخرة وهولها وعذابها وتتحداهم وتندد بما هم عليه من ضلال وسخف، وتبشر المستجيبين بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة وتثبتهم وتصبرهم وتسلى النبى ﷺ وتطمئنه الخ ثم استمر الأمر على ذلك كله، فالإنذار والتبشير والتنديد والتنويه والوعد والوعيد والقصص والأمثال والإلزام والإفحام والجدال إنما هو كما هو واضح جاء تبعا للأسس والمبادئ والأهداف ودار حولها، بسبيل

---

[1] هذه السور من السور المكية المبكرة بالنزول قليلا أو كثيرا.

http://kotob.has.it

التدعيم والتأييد الذين اقتضتهما ظروف السيرة والدعوة ومواقف الناس مسلميهم وكفارهم من تلك الأسس والمبادئ والأهداف التى هى الأصل والجوهر فى التنزيل القرآنى.

القصص القرآنية :

خامسا: إن ما ورد من قصص وأخبار متصلة بالأمم السابقة وأحداثها أولا لم يكن غريبا عن السامعين إجمالا، سماعا أو مشاهدة آثار، أو اقتباساً أو تناقلاً، وسواء منه ما هو موجود فى الكتب المنزلة المتداولة مماثلا أو زائدا أو ناقصا أو مباينا لما جاء فى القرآن. وما لم يكن موجودا فيها مما يتصل بالأمم والأنبياء الذين وردت أسماؤهم فيها مثل قصص إبراهيم المتعددة مع قومه وتسخير الجن والريح لسليمان، وقارون والعبد الصالح مع موسى ومائدة المسيح، أو مما يتصل بغيرهم من الأمم والبلاد العربية وأنبيائهم مما لم يرد أسماؤهم فيها مثل قصص عاد وثمود وسبأ وتبع وشعيب ولقمان وذى القرنين، وثانيا لم يورد للقصة بذاتها وإنما ورد للعظة والتمثيل والتذكير والإلزام والإفحام والتنديد والوعيد.

وفى القرآن شواهد وقرائن ونصوص عديدة مؤيدة للنقطة الأولى مثل ما جاء فى آيات سورة الروم ٩ وسورة غافر ٢١ وسورة الحج ٤٥-٤٦ وسورة الصافات ١٣٣-١٣٨ وسورة القصص ٥٨ وسورة الفرقان ٤٠ وسورة العنكبوت ٣٨ وسورة الفجر ٦-١١ وسورة هود ١٠٠ وسورة إبراهيم ٤٥.

وفى أسلوب القصص القرآنية الذى لم يكن سرداً تاريخياً كما هو الحال فى قصص التوراة والذى تخلله الوعظ والإرشاد والتبشير والإنذار بل والذى جاء سبكه وعظا وإرشاداً وتبشيراً وإنذارا، ثم فى سياق إيراد القصص عقب التذكير والتنديد والتسلية والتطمين والموعظة وحكاية مواقف الكفار وعنادهم وحجاجهم أو بين يدى ذلك، وتكرارها لتنوع المواقف النبوية دعوة وحجاجا وتنديدا وبيانا وعظة سنين طويلة وتجاه فئات مختلفة تأييد للنقطة الثانية، يضاف إلى هذا ما فى القرآن من شواهد ونصوص خاصة وكثيرة أيضا مما يؤيدها كما يبدو واضحا لم يتمعن فى آيات الأعراف ١٠١و ١٦٣-١٦٦ و١٧٥-١٧٧ والمائدة ٢٨-٣٣والأنفال ٥٣-٥٤ والتوبة ٦٩-٧٠ ويونس ١٢-١٣ و٧١-٩٨ وهود ١٠٠-١٠٣ ويوسف ١١١ والرعد ٣٨-٤٢ وإبراهيم ٩-١٤ ومريم ٥٤-٦٣ وطه ٩٩-١٠١ والفرقان ٣٥-٤٠ والنمل ٤٥-٥٨ والقصص ١-٦ و ٥٨-٥٩ والعنكبوت ٣٧-٤١ ويس ١٣-٣١ وص ١٢-١٧ واللازمة التى اتبعت بكل قصة فى سورة الشعراء وهى ﴿إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ وهناك آيتان فى سورتى الأنبياء والقصص جديرتان بالتنويه بصورة خاصة لما فيهما من دلالة على أن العرب كانوا يعرفون أخبار الأنبياء ومعجزاتهم وهم هاتان:

http://kotob.has.it

١- ﴿وقالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾.

(الأنبياء : ٥)

٢- ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا[1] أوتى مثل ما أوتى موسى﴾.

(القصص : ٤٧)

وحكمة النقطة الأولى ظاهرة جلية فيما يتبادر لنا فالمخاطبون إنما يتأثرون بما احتوته الحادثة أو القصة التى تورد عليهم من موعظة أو مثل أو تذكر وزجر وتنبيه ودعوة إلى الاعتبار والارعـــواء والتأسى والتدبر فى العاقبة إذا كانت مما يعرفونه أو مما يعرفه بعضهم جزئيا أو كليـــا ومفصـــلا أو مقتضيا أما إذا لم يكونوا يعرفونه فإنه لا يأتى مستحكم الإلزام والإقحام والتأثير والعبرة، ولا ســـيما على مخاطبين كافرين بأصل الدعوة التى يراد التذكير بمواقف الغير والسابقين من مثلها وبمصائرهم بسبب هذه المواقف أو جاهلين للحادثة التى يراد استخراج العبرة من سيرها وظروفها وعواقبها.

وهذه الملاحظة مهمة وجوهرية جدا، لأن من شأنها أن تحول دون استغراق الناظر فى القـــرآن فى ماهيات ووقائع ما احتوت القصص التى لم تقصد لذاتها، وأن تغنيه عن التكلـــف والتجـــوز فـــى التخريج والتأويل والتوفيق أو الحيرة والتساؤل فى صدد تلك الماهيات والوقائع، وأن تجعلـــه يبقـــى القرآن فى نطاق قدسيته من التذكير بالمعروف والإرشاد والموعظة والعبرة ولا يخرج به إلى ســـاحة البحث العلمى وما يكون من طبيعته من الأخذ والرد والنقاش والجدل والتخطئة والتشكيك على غـــير طائل ولا ضرورة.

ونريد أن نبحث فيما يمكن أن يرد على موضوع الملاحظة وخاصة نقطتها الأولى.

فلقد ورد فى سورة هود بعد قصة نوح خاصة وورد فى سورة يوسف بعد إتمام القصـــة، وورد فى سورة آل عمران فى سياق نشأة مريم آيات جاء فيها تنبيه على أن ذلك من أنباء الغيب كما تـــرى فيها:

١- ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبـــة للمتقين﴾. (هود : ٤٩)

٢- ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾.

(يوسف : ١٠٢)

---

[1] بمعنى هلا.

http://kotob.has.it

٣- ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ (آل عمران : ٤٤)

وظاهر الآيات ينقض تلك النقطة كما هو المتبادر غير أننا نلاحظ أن قصتى نوح ويوسف خاصة قد وردتا فى التوراة قريبتين جدا مما وردتا فى القرآن، وأن التوراة كانت متداولة بين أيدى الكتابيين الذين كان كثير منهم يعيشون فى بيئة النبى قبل بعثته وبعدها، كما أن أهل هذه البيئة كانوا على صلة وثيقة بهم وبالبلاد المجاورة الكتابية الدين أى الشام ومصر والحبشة والعراق العربى، وأن القرآن قد أكثر من ذكر التوراة مصدقا حينا ومنوهاً بما احتوته من نور وهدى وحق حينا ومتحديا بها اليهود حينا، وأن فيه آيات تفيد صراحة أو ضمنا أن أهل بيئة النبى كانوا يسمعون من الكتابيين أشياء كثيرة من كتبهم كما ترى فى الأمثلة التالية:

١- ﴿أتأمرون[1] الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾.

(البقرة : ٤٤)

٢- ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدقا لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا[2] فلما جاءهم ما يعرفوا كفروا به﴾.

(البقرة : ٨٩)

٣- ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى بعضهم قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم﴾. (البقرة: ٧٧)

٤- ﴿أم تريدون[1] أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل﴾.

(البقرة : ١٠٨)

٥- ﴿وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه[2] من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾.

(آل عمران : ٧٨)

---

(1) يعنى اليهود.

(2) يعنى العرب.

(3) يعنى المسلمين.

(4) يعنى المسلمين.

http://kotob.has.it

٦- ﴿كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾.

(آل عمران : ٩٣)

٧- ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾. (المائدة : ٤٣-٤٤)

وإن أهل هذه البيئة كانوا يثقون بما عند الكتابيين من علوم ومعارف، مما ينطوى فى ذلك حكمة ما تكرر فى القرآن من الاستشهاد بهم على صحة الرسالة النبوية مما أوردنا آياته فى مناسبة سابقة.

والروايات متضافرة على أن اليهود كانوا يتبجحون بالتوراة فى سياق الدعوة النبوية وأحداثها، وأنهم نشروها مرة أو أكثر فى مجالس النبى، وعلى أنه كان من أهل بيئة النبى العرب من كان يدين بالنصرانية واليهودية ومطلعا على التوراة والإنجيل فضلا عمن يدين بالنصرانية خاصة من العرب الذين يقطنون فى أنحاء أخرى من الجزيرة العربية وأطرافها، والتوراة كتاب النصارى كما هى كتاب اليهود فضلا عن اختصاص الأولين بالإنجيل كما هو معروف وفى حديث البخارى عن بدء الوحى وقد أوردناه فى الفصل الأول صراحة بمعرفة ورقة بن نوفل العبرانية واطلاعه على التوراة والإنجيل.

فليس مما يصح فرضه أن لا يكون من العرب السامعين للقرآن من يعرف هاتين القصتين. ومثل هذا يقال بالنسبة لقصة مريم التى ورد فى بعض الأناجيل شىء قريب مما ورد عنها فى القرآن وفى بدء قصة يوسف آية هذا نصها:

﴿لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾ والسؤال عن أمرهم لابد من أن يكون آتيا من معرفة شىء ما أو سماع شىء ما عنهم من دون ريب. لذلك فإن فى الآيات الثلاث المذكورة إشكالا يدعو إلى الحيرة، ولا يستطاع النفوذ إلى الحكمة الربانية فيه نفوذا تاما. وليس من مناص إزاء الواقع ومداه من أن قصص نوح ويوسف ومريم من القصص المشهورة إلا بتأويل هذه الآيات وتخريجها بما يزيل الإشكال ويتسق مع الواقع. وقد رأينا المفسر الخازن يعلق على آية هود فيقول إن قصة نوح مشهورة وأنه ليس مما يحتمل أن لا تكون معروفة، وأنه يجب صرف الآية على محمل قصد عدم معرفة النبى ﷺ وقومه بجميع تفصيلاتها. وفى هذا التعليق وجاهة ظاهرة كما أنه لا معدى عنه أو عما يقاربه كصرف الغيب إلى معنى البعيد غير المشاهد أو الذى صار فى طيات الدهر فى صدد

http://kotob.has.it

القصص التى وردت عقبها خاصة هذه الآيات. وننبه على أن بقية الفصول القصصية فى سورتى هود وآل عمران، وكذلك الفصول القصصية المتنوعة الواردة فى مختلف السور بما فى ذلك قصص نوح ومريم ويوسف لم يرد فيها مثل هذا التعليق والتقييد، وأن قصة نوح ذكرت بتفصيل أو اقتضاب مرات كثيرة فى السور التى نزلت قبل سورة هود مثل ص والأعراف والقمر والشعراء، وأن قصة مريم وولادة عيسى ذكرت بتفصيل أيضا فى سورة مريم التى نزلت هى الأخرى قبل سورة آل عمران وأشير إليها باقتضاب فى سور متعددة أخرى ولم يرد كذلك فى سياقها مثل هذا التعليق والتقييد مما يجعل التأويل والتخريج سائغا وصوابا.

ولعل مما يحسن إيراده فى صدد قصة نوح مسألة أصنام قوم نوح المذكورة فى سورة نوح وهى ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، فقد كانت الأصنام من الأصنام المعبودة عند بعض قبائل العرب فى عصر النبى وقد تسمى كثير من الأشخاص المعاصرين للنبى بعبودية بعضها مثل عبد ود وعبد يغوث، وفى بعض الروايات أن العرب اقتبسوا هذه الأصنام وعبادتها من قوم نوح، ولعل هذا ما كان متداولا بينهم قبل البعثة. وعلى كل فإن هذا قرينة على أن العرب لم يكونوا جاهلين قصة نوح ومواقفه من قومه بالكلية.

ومما يصح إضافته إلى الآيات القرآنية الكثيرة التى احتوت دلائل وقرائن تفيد أن السامعين كانوا يعرفون أخبار الأمم والأنبياء التى تتلى عليهم من القرآن على سبيل العظة والتذكير أن المفسرين قد أوردوا بيانات كثيرة فى سياق كل قصة من القصص القرآنية مسهبة حينا ومقتضبة حينا آخر، ومعزوة إلى علماء السير والأخبار إطلاقا حينا وإلى علماء بأسمائهم مثل ابن عباس ومقاتل ومجاهد والضحاك والكلبى وابن إسحق ووهب ابن منبة وكعب الأحبار وغيرهم حينا، واحتوت تفاصيل وجزئيات حول هذه القصص أو قصصا بسبيلها مهما كان فيها من إغراب ومفارقات فإننا نستبعد أن تكون كلها موضوعة بعد النبى ﷺ ، ونميل إلى القول بل نرجح أنها احتوت أشياء كثيرة مما كان يدور فى بيئة النبى قبل البعثة وبعدها حولها، وإنها مما يمكن الاستئناس به فى تأييد النقطة الأولى من الملاحظة مما هو متسق مع المنطق وهدف التذكير والوعظ القرآنى.

ومما يصح إضافته أيضا صيغة إعلام القصص مثل طالوت وجالوت ويونس وأيوب وفرعون وهامان وقارون وهرون وإبراهيم وآزر وسليمان وداود وإدريس ونوح والمسيح عيسى وموسى وهاروت وماروت الخ، فإن هذه الأعلام قد جاءت فى القرآن معربة وعلى أوزان عربية، ومن المستبعد أن تكون قد عربت لأول مرة فى القرآن، ومن المرجح أن تكون قد عربت وتداولت بأوزانها العربية قبل نزوله، وبهذا وحده يصح أن يشملها تعبير إنزال القرآن بلسان عربى مبين لأنها

http://kotob.has.it

جزء منه، وتداولها معربة قبل نزول القرآن يعني كما هو بديهي معرفة العرب شيئا من أخبار أصحابها على الأقل.

وفيما تكررت حكايته في القرآن عن الكفار من قولهم إنه أساطير الأولين وأن النبي كان يستكتبها وتملى عليه، وأنه كان أناس آخرون يعينونه عليها، وأنهم لو شاءوا لقالوا مثلها كما جاء في آيات الأنعام ٢٥ والأنفال ٣٠ والفرقان ٥ والقلم ٨-١٥ مثلا قرينة قوية كذلك إن لم نقل قرينة حاسمة على أن العرب كانوا يسمعون من قصص القرآن ونذره وبشائره وتذكيراته ما اتصل بهم علمه وكان من المتداول بينهم. ولقد يرد أن الكفار حينما كانوا يرددون على النبي تعبير أساطير الأولين خاصة كانوا في موقف المكابر المستخف، ومع التسليم بهذا فإن كلمة أساطير لا تقتضي دائما أن تعتبر مرادفة لكلمة قصص خرافية كما هو من مفهوماتها، فإنها قد تفيد أيضا معنى المدونات لأنها مشتقة من "سطر " بمعنى "كتب" كما هو وارد في القرآن ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ وآية الفرقان الخامسة ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا﴾ تلهم أن هذا من المعاني المقصودة للكلمة ومهما يكن من أمرها فإنها تعني على كل حال أنهم يسمعون أخبارا وقصصا وصلت إلى علمهم عن الأمم السابقة حقيقية كانت أو خرافية.

وبما يرد على ما نخمن سؤال عن مدى ما بين القصص القرآنية وأسفار التوراة والإنجيل المتداولة من مباينات. فقد قلنا قبل قليل إن في القرآن قصصا مقاربة لما في هذه الأسفار كما أن فيه قصصا مباينة في الأسماء والأحداث أو بزيادة ونقص، وأن فيه قصصا متصلة بأسماء رجال هذه الأسفار من أنبياء وغيرهم دون ورودها فيها. والذي نعتقده أن ما قلناه ينطبق على هذا أيضا، وأن ما ورد في القرآن هو الأكثر اتساقا مع ما كان معروفا ومتداولا عند السامعين إجمالا وهذا هو المتمشي مع الحكمة التي نبهنا عليها في القصص القرآنية، ونراه طبيعيا ومتسقا مع الواقع والمألوف وهو تداول الناس أخبارا وأسماء على غير الوجه المدون في الكتب والصحف بل وكون المتداول أحيانا كثيرة هو الأكثر صحة من المدون أيضا. فليس والحالة هذه ما يمنع أن يكون لدى النصارى واليهود في عصر النبي وقبله متداولات مدونة وغير مدونة تساق وتورد على هامش ما ورد في أسفار التوراة والإنجيل ويقصد التوضيح والتفسير والتعليق، هذا بقطع النظر عن احتمالات الاختلاف والمباينة بين الأسفار المتداولة اليوم والأسفار المتداولة قديما. وفي كتب تفسير القرآن روايات كثيرة معزوة إلى الصحابة والتابعين احتوت بيانات عن أحداث تاريخية واجتماعية عربية وغير عربية، وعن أحداث متصلة ببيئة النبي ﷺ وسيرته ولم ترد في القرآن، وإنما وردت إشارة إليها قريبة أو

http://kotob.has.it

بعيدة، فأوردت على هامش تفسير الآيات القرآنية وبقصد تفسير بعض الوقائع والأحداث والإشارات والمفهومات التى احتوتها والتعليق عليها، ولا يمتنع أن تكون صحيحة كليا أو جزئيا.

ولقد تكون قصص إبراهيم خاصة لافتة للنظر أكثر من غيرها فى هذا الباب، لأن جل ما ورد منها فى القرآن لم يرد فى التوراة. والمدقق فى القصص التى لم ترد فى التوراة يجد أنها متصلة بالحياة والظروف والتقاليد التى كانت عليها البيئة النبوية، وبمواقف الكفار العرب وعقائدهم أيضا اتصالا وثيقا، سواء فى أمر إسكان ذرية من إبراهيم فى مكة أو فى إنشاء الكعبة، أو فى أصول الحج وتقاليده، أو موقفه من أبيه وبراءته منه، أو حملته على عبادة الأصنام وموقفه من قومه من أجلها وتكسيره إياها وإلقائه فى النار بسبب ذلك، أو محاجته مع الملك أو نظرته فى النجوم وانصرافه عنها، ويجد أنها داعية إلى التأسى لأنه أبو العرب والذى نعتقده أن هذه القصص كانت متداولة بين العرب ومتناقلة فيهم جيلا عن جيل دونما حاجة إلى أن تكون مستقاة من اليهود مع احتمال أن يكون اسما إبراهيم وإسماعيل قد اقتبسا من اليهود لأن التوراة هى أول ما جاء يحمل هذين الاسمين مدونين، وأن من تلك الناحية خاصة تجيء قصص إبراهيم ملزمة للعرب، وتورد فى القرآن بقوتها التلقينية والتذكيرية المستحكمة النافذة التى وردت بها كما يمكن أن يبدو لمن يتمعن فى آيات البقرة ١٢٤ -١٤١و ٢٥٨و ٢٦٠ وآل عمران ٦٥- ٦٨ و٩٤-٩٧ والأنعام ٧٤-٩٠ والتوبة ١١٣-١١٤ وإبراهيم ٣٥-٤١ ومريم ٤٢-٥٠ والأنبياء ٥١-٧٠ والحج ٢٦-٣٧ و ٧٨ والزخرف ٢٦-٢٨ والممتحنة ٤-٦ وهذا هو هدف القصة القرآنية بالذات.

ونظن أنه ليس من شيء يرد من مثل هذا على موضوع القصص الأخرى التى لم يرد أسماء رجالها ومواضيعها فى أسفار التوراة والإنجيل ولا سيما أن جل هذه القصص عربى الأمم والأنبياء والبلاد، وأن كونها مما كان متداولا عند العرب لا يصح أن يكون موضع شك وجدل، وفى الآيات القرآنية دلالات قوية على هذا خاصة مثل آيات العنكبوت ٣٦ -٣٨ والأحقاف ٣٧ والصافات ١٣٧-١٣٨ والقصص ٥٨ والحج ٤٥-٤٦.

هذا، ومعلوم أنه يوجد فى القرآن قصص أنزلت جوابا على سؤال صريح مثل قصص ذى القرنين ويوسف وأصحاب الكهف والرقيم، كما أن هناك قصصا أوردت مباشرة مثل قصة نشأة موسى وسيرته فى مطلع سورة القصص. ولقد يرد أن فى هذا نقضا لما قلناه من أن القصص القرآنية لم تورد لذاتها كما أنه قد يكون بالنسبة لبعض هذه القصص نقض لما قلنا من أن القصص الموحاة مما كان متداولا وليس غريبا على الأسماع بالمرة.

http://kotob.has.it

ولقد قلنا قبل فى صدد قصة يوسف أن السؤال عنها لا يمكن أن يكون ورد إلا من أناس سمعوها وعرفوها أو سمعوا وعرفوا شيئا عنها. وهذا ينطبق على قصة ذى القرنين كما هو بديهى، ومضامين آيات أصحاب الكهف والرقيم تلهم أنه كان جدل حول قصتهم وعددهم وسنى لبثهم، وهذا يعنى أن السؤال وجه على سبيل الاستفسار وهذا ما روته الروايات وبالتالى أن السائلين قد سمعوا وعرفوا شيئا عن القصة ومعرفة السائلين بعض الشىء لا تقتضى بالبداهة أن لا يكون هناك أناس آخرون يعرفون أشياء كثيرة عنها كما لا تقتضى أن يكون أناس يعرفون ثم أرادوا التحقيق أو الاستفسار أو التحدى الخ.

وفى كتب التفسير بيانات وتفصيلات جزئية كثيرة عن هاتين القصتين أيضا ما يمكن أن يكون فيه – بسبب كونه مستندا إلى روايات متصلة بعهد النبى ﷺ دلالة على تداوله فى هذا العهد أيضا. أما قصة موسى فلا نظن أنه يرد أنها كانت غريبة عن الأسماع، وفى القرآن دلالات حاسمة على عكس ذلك أوردنا بعض الآيات عنها.

هذا بالنسبة للنقطة الأولى. أما بالنسبة للنقطة التالية فإن قصة موسى فى سورة القصص قد أعقبها آيات تنديدية وتذكيرية ووعظية معطوفة عليها وكنتيجة لها كما يبدو من الآيات ٣٧-٥٠.

وهذا ما يدخلها فى نطاق القصص الأخرى الواردة فى معرض التذكير والتمثيل والإنذار والدعوة والاعتبار. وكذلك قصة يوسف فقد أعقبها آيات مثل تلك وهى الآيات ١٠٣-١١١ وانتهت بآية فيها قصد العبرة صراحة حيث جاء هذا التعبير ﴿لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب﴾ فى آخرها وقصة أصحاب الكهف والرقيم قد جاءت بعد آيات فيها حملة على الكفار لنسبتهم الولد إلى الله وهى الآيات ٤-٨، كما أعقبها آيات فيها استمرار فى الحملة وهى الآيات ٢٣-٣١، وأسلوبها متسق مع أسلوب سائر القصص أى أنه تضمن المواعظ والتلقينات الأخلاقية والاجتماعية والدينية واستهدف التدعيم والتأييد الدعوة النبوية وأهدافها حتى ليبدو أن هذا هو المقصود بها عند إنعام النظر فى سلسلة آياتها ١-٣١ وخاصة فى أمر النبى بعدم المماراة كثيرا فى شأنهم وإيكال علم ذلك إلى الله ومع أن قصة ذى القرنين جاءت جوابا على سؤال صريح فإن أسلوبها مثل ذلك الأسلوب وقد أعقبتها آيات تضمنت حملة على الكافرين الجاحدين ومتصلة بآيات القصة اتصالا وثيقا نظما وانسجاما وهذا وذاك يبدو ان بارزين عند إمعان النظر فى سلسلة الآيات.

وعلى هذا فإن من الصواب أن يقال إن هذه القصص لا تشذ عن الطابع العام للقصص القرآنية الذى نوهنا به فى مطلع البحث.

http://kotob.has.it

ومما هو جدير بالتنويه ومتصل بالمعنى الذى نقرره وخاصة بالنسبة للنقطة الأولى من الملاحظة أن محتويات القصص القرآنية على تنوعها لم تكن موضع جدل ومماراة لا من مشركى العرب ولا من الكتابيين بدليل أنه لم يرد فى القرآن أى إشارة تفيد ذلك صراحة أو ضمنا مع أنهم كانوا يحصون على النبى كل شيء ويترصدون لكل ما يتوهمون فيه تناقضا أو شذوذا عما يعرفونه ويعتقدونه ويتداولونه ويتوارثونه ويسارعون إلى إعلان استنكارهم وتكذيبهم، ويستغلونه فرصة للصد والدعاية والتأليب مما حكى القرآن شيئا كثيرا منه.

وقد يؤيد هذا أن العرب جادلوا فى الحياة الأخروية أشد جدال وكذبوا وأنكروا أعنف تكذيب وإنكار فحكت ذلك آيات قرآنية كثيرة حتى لقد شغل هذا الجدل والتكذيب والإنكار وما اقتضاه من ردود وتوكيدات متنوعة الأسلوب حيزا كبيرا من القرآن المكى ولقد كان من أسباب هذا الإنكار والتكذيب والجدل أن العرب كانوا يسمعون ما لا علم لهم به سابقا وما لم يسمعوا عنه شيئا مهما من الكتابيين الذين كانوا مصدرا رئيسيا من مصادر معارفهم لأن أسفار هؤلاء لم تكد تحتوى على الحياة الأخروية شيئا.

وليس ما نقل عن العرب من قولهم عن القرآن أنه أساطير الأولين مما يفيد تكذيبهم للقصص التى يسمعونها ومماراتهم فيها، لأن هذا التعبير كما قلنا عنى كما تدل عليه مضامين الآيات القرآنية مدونات الأولين وقصصهم إطلاقا، ولأنهم كانوا يرددون هذا القول بقصد تكذيب صلة الله ووحيه بالنبى وصحة التنزيل القرآنى والدعوة النبوية والحياة الأخروية لا بقصد المماراة فى هذه القصص وتكذيبها وإنكارها كما يظهر من التمعن فى هذه الآيات التى ورد فيها التعبير:

١- ﴿ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرأ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾

(الأنعام : ٢٥)

٢- ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾.

(الأنفال :٣١-٣٢)

٣- ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين﴾. (النحل : ٢٤)

٤- ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما﴾.

(الفرقان : ٥- ٥)

http://kotob.has.it

٥- ﴿فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين فلا تطع المكذبين ودوا لو تدهن فيدهنون ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾.

(القلم : ٥ – ١٥)

ولقد أنكر اليهود أمورا واردة فى التوراة فتحداهم القرآن بالإتيان بالتوراة وتلاوتها إن كانوا صادقين فى إنكارهم كما جاء فى آية آل عمران ٩٣ صراحة وآيات المائدة ٤٣-٤٥ ضمنا. ولقد حاجوا فيما قرره القرآن عن إبراهيم وملته، وقدم الكعبة وصلته بها كما يفهم من آيات البقرة ١٣٢-١٤١ وآل عمران ٦٦-٩٩ صراحة وضمنا.

فلو رأى العرب فيما يسمعونه من القصص تناقضا أو تباينا أو شذوذا عما يعرفونه منها إجمالا أو تفصيلا، أو لو سمعوا أشياء لا عهد لهم بها بالمرة ولو رأى الكتابيون وخاصة اليهود فيما يسمعونه مباينة لما كان متداولا فى أيديهم من الكتب وتفسيرهم وشروحها أو لما هو متداول ومتناقل بينهم على هامشها مما يتصل بأسماء أنبيائهم لجادلوا وطعنوا وغمزوا، ولذكر ذلك عن القرآن فى معرض التكذيب والرد كما ذكر عنهم جدالهم وحجاجهم وإنكارهم وطعنهم فى هذا المعرض فى الأمور الأخرى التى توهموا فيها تناقضا أو تغايرا أو جديدا لا عهد لهم به، ولاغتنموه فرصة للغمز والطعن والدعاية والتهويش.

ولقد يرد سؤال عما إذا كان النبى يعرف أيضا القصص القرآنية قبل بعثته أو عن غير طريق الوحى، وعما إذا لم يكن فيما نقرره تعارض معا مع نزول الوحى بها والذى نعتقده أن النبى خلافا لما قاله بعضهم كان يعرف كثيرا مما يدور فى بيئته من قصص الأمم والأنبياء السابقين وأخبارهم ومساكنهم وآثارهم سواء منها المذكور فى أسفار التوراة والإنجيل أو غيره كما أنه كان يعرف كثيرا من أحوال الأمم والبلاد المجاورة للجزيرة العربية بالإضافة إلى ما كان يعرفه من أحوال سكان الجزيرة أيضا وتقاليدهم وأفكارهم وعاداتهم وأخبار أسلافهم، وأن هذا هو المتسق مع طبيعة الأشياء، وأن النبى ﷺ قد اتصل قبل بعثته بالكتابيين الموجودين فى مكة وتحدث معهم حول كثير من الشئون الدينية وحول ما ورد فى الكتب المنزلة واستمع إلى كثير مما احتوته، وترجح أن هذه الصلة قد استمرت إلى ما بعد بعثته، وأنها انتهت بإيمان الذين اتصل بهم بنبوته لما رأوا من أعلامها الباهرة فيه. ولعل فيما ورد فى بعض آيات القرآن قرينة على ذلك، فقد جاء فى سورة الفرقان هذا الآية ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا أفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظلما وزورا﴾، وفى سورة النحل هذه الآية ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا

http://kotob.has.it

لسان عربى مبين﴾ فهذه الأقوال الصادرة عن الكفار التى حكاها القرآن لا بد من أن تكون مستندة إلى مشاهدة اتصال النبى ببعض أشخاص كانوا يعرفون أنهم ذو علم أو مظنة علم وتعليم ومعاونة، ومنهم غرباء، والمرجح أن الغرباء خاصة منهم كتابيون، فوهموا أنه يستعين بهم أو يعينونه على نظم القرآن وتأليفه فقالوا ما قالوه، والآيات تنفى التعليم والإعانة ولكنها لا تنفى الاتصال. وقد وردت فى كتب التفسير روايات تذكر وقوع شيء من هذا الاتصال، وقد جاء فى كشاف الزمخشرى مثلا أنه كان لحويطب بن عبد العزى غلام اسمه عايش أو يعيش وكان صاحب كتب وقيل هو جبر غلام رومى كان لعامر بن الحضرمى وقيل عبدان جبر ويسار كانا يصنعان السيوف فى مكة ويقرآن من التوراة والإنجيل، فكان رسول الله ﷺ إذا مر وقف عليهما يسمع ما يقرآن وحديث بدء الوحى فى البخارى صريح بأن النبى ﷺ اجتمع بورقة بن نوفل الذى تنصر وقرأ العبرانية وكان يقرأ الإنجيل ويكتبه، وفى روايات السيرة أن ورقة هذا تولى تزويج النبى وكان عمره خمسا وعشرين سنة بخديجة ابنة عمه، ففى كل هذا ما يستأنس به على صحة ما ذكرناه.

ومن الواضح أن هذا ليس بمخل بقدر النبى ﷺ وعظمته التى إنما كانت تقوم فى الحقيقة على ما أمتاز به من عظمة الخلق وقوة العقل وصفاء النفس وكبر القلب وعمق الإيمان والاستغراق بالله، ولقد قرر القرآن طبيعة النبى البشرية، وهذا متصل بهذه الطبيعة التى من البديهى جدا أن لا تتناقض مع وقوف النبى على ما كان متداولا فى بيئته أو فى أى بيئة ونحلة تيسر له الاتصال بأهلها من أقوال وأفكار وأخبار وعقائد وتقاليد وظروف وأحداث حاضرة وغابرة، بل إن من البديهى جدا أن يكون واقفا على كل ذلك غير غافل عنه، وأن هذا هو المعقول الذى لا يمكن أن يصح فى العقل غيره. وأننا لنشعر بالدهشة مما أبداه ويبديه بعض العلماء من حرص على توكيد كون النبى ﷺ لم يكن له معارف مكتسبة مما لا يتسق مع المنطق والمعقول والبديهى بأن فى هذا مأخذا ما على كون ما بلغه النبى ﷺ من القرآن إنما أتى من هذه المعارف، ونرى فى هذا التوهم خطأ أصليا فى تلقى معنى الرسالة النبوية التى هى هداية وإرشاد ودعوة والتى لا يعهد بمهمتها العظمى إلا لمن يكون أهلا لها فى عقله وخلقه وقلبه وروحه كما ذكرت آية الأنعام ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ كما أنه آت فيما يتبادر لنا من عدم ملاحظة كون القرآن قسمين متميزين أسسا ووسائل ومما يورده هؤلاء حجة آيات العنكبوت هذه:

﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾ (٤٨ - ٤٩)

http://kotob.has.it

حيث يظنون على ما يبدو أن اكتساب المعارف والاطلاع على ما عند الناس من أخبار وأفكار إنما هو حصر على القارئ الكاتب، وليس هذا صحيحا دائما كما أنه ناشئ عن قياس الغائب بالحاضر وهو قياس مع الفارق. والآيات بسبيل تقرير كون الدعوة التي يدعو إليها النبي وما يبلغه في صددها إنما هو وحي رباني ولم يقتبسه من كتاب، ولا ينبغي أن يكون عندهم محل للشك في ذلك لأنهم يعرفون أنه لم يكن يقرأ ولا يكتب، ولا يجحد بآيات الله تصدر عن الذين يختصهم الله بمهمته وبيناته إلا المكابرون الظالمون على ما يتبادر وليس في هذا نقض لما قررناه.

والذى نعتقده أنه ليس فيما قررناه أو في كون القصص القرآنية متسقة إجمالا مع ما كان معروفا متداولا تعارض من ناحية ما مع نزول الوحي الرباني بها على قلب النبي ﷺ - وهو سبب القول إن النبي ﷺ لم يكتسب معارفه اكتسابا - لأنها لم تنزل لذاتها بقصد القصص والأخبار وإنما أنزلت في معرض التنديد والموعظة والتذكير والجدل، وكوسيلة من وسائل تدعيم أهداف القرآن وأسس الدعوة النبوية إزاء مواقف المكابرين والمجادلين والجاحدين مما هو موضوع هذا البحث وفوائد الملاحظة التي عقد عليها.

ولقد ورد في القرآن فصول كثيرة جدا مما له صلة ببيئة النبي ﷺ وحاضر تقاليد أهلها وحياتهم وأمثالهم ومعايشهم وما في أذهانهم من صور متنوعة مما هو معروف بأسلوب الموعظة والتذكير والتنديد وكوسيلة من وسائل التدعيم والتأييد، وليس من فرق من حيث الجوهر بين هذا وذاك وليس مما يصح في حال أو يمكن أن يرد على بال ولا مما ادعاه أحد أن النبي لم يكن يعرفه عن غير طريق الوحي.

وقد بقيت مسألتان قد تبدوان مشكلتين، أولاهما ما إذا كان ما احتواه القرآن من قصص صحيحا في جزئيات وقائعه وحقائق حدوثه، وثانيتهما ما بين بعض القصص القرآنية المتصلة بنبي أو أمة من بعض الخلاف مثل وصف عصا موسى بالحية في سورة والثعبان في سورة أخرى، ومثل ذكر وقت ما كان يقع على بني إسرائيل من فرعون من قتل الأبناء واستحياء النساء حيث ذكر هذا الوقت في سورة أنه قبل بعثة موسى وفي سورة أنه بعد بعثته. فنحن كمسلمين نقول أن كل ما احتواه القرآن حق وواجب الإيمان وإنا آمنا به كل من عند ربنا، كما أننا نقول بوجوب ملاحظة كون القرآن في قصصه إنما استهدف العظة والتذكير فحسب، وهما لا يتحققان إلا فيما هو معروف ومسلم به إجمالا من السامع وأن هذا أيضا من الحق الذى انطوى فيه حكمة التنزيل، وبوجوب الوقوف من هذا القصص عند الحد الذى استهدفه القرآن وعدم الاستغراق في ماهياتها على غير طائل ولا ضرورة، لأنها ليست مما يتصل بالأهداف والأسس على ما ذكرناه في مطلع البحث وهذا هو الجوهرى فيه.

http://kotob.has.it

وهذا القول يصح على المسألة الثانية مع التنبيه على أن الخلاف ظاهرة ويمكن التوفيق فيه وتأويله، وعلى أنه متصل بالماهيات والحقائق التى لم تقصد لذاتها كما كررنا قوله.

ونريد أن ننبه على ظاهرة قرآنية مهمة فيها توكيد لما نقرره واتساق معه، وبالتالى فيها دليل انسجام فى الأساليب القرآنية ومراميها مكية كانت أو مدنية. وذلك أن أسلوب القرآن القصصى وهدفه قد اتسقا مع ما ورد فيه من ذكر للوقائع الجهادية والمواقف القضائية والحجاجية وغيرها من أحداث السيرة النبوية، بحيث إن الناظر فى القرآن يجد أن ما ورد فيه من ذلك إنما ورد بقصد العظة والتذكير والتنبيه والحث والتحذير والإرشاد والتعليم والتأديب والتشريع، ولم يرد بأسلوب السرد التاريخى وقصده. وهذا ظاهر من كون تلك الوقائع والمواقف لم تحتو كل الصور والمشاهد والتفصيلات والأحداث، وإنما احتوت ما يحقق ذلك القصد منها. ولعل هذا هو الذى يفسر حكمة عدم ورود ذكر أو تفصيل لأمور كثيرة من أحداث السيرة وفيها ما هو مهم من وقائع جهادية كفتح مكة والطائف وغزوات مشارف الشام ومؤتة واليمن الخ. فالظاهر أنه لم يكن فيها أمور تستوجب ذلك وتتصل بالقصد المذكور فاقتضت الحكمة عدم إنزال شىء فى بعضها والاكتفاء بالإشارات العابرة بالنسبة لبعضها الآخر.

الملائكة والجن فى القرآن :

سادسا : أن ما ورد من أخبار الملائكة والجن لم يكن هو الآخر غريبا عن السامعين جزئياً أو كلياً، وأنه من وسائل التدعيم للدعوة وأهدافها وليس مقصودا بذاته.

ففى القرآن آيات عديدة تدل على عقيدة العرب فى الملائكة ووجودهم وأنهم موضع أمل ورجاء ومصدر بر ورحمة، وقد ذكر القرآن أن العرب يعتقدون أنهم بنات الله وذوو حظوة لديه، وأنهم اتخذوهم آلهة وشفعاء ليقربوهم إليه زلفى، وقد قرر كذلك أنهم كرام بررة متصلون بالله ومختصون بخدماته لا يعصونه فيما يأمر ويقدسونه ويسبحون بحمده على الدوام. وهكذا يبدو أن ما قرره القرآن عن عقائد العرب فيهم متصل بما قرره عن صفاتهم وأعمالهم وصلتهم بالله مع سوء فهم العرب وباطل تأويلهم لهذه الصلة مما كان سبب الحملة عليهم والتنديد بهم فى القرآن ولقد حكى القرآن تحدى العرب للنبى باستنزال الملائكة ليؤيدوه فى دعوته ما دام يقول إنها بوحى الله وهذا التحدى متصل بعقيدتهم فيهم وبتقرير القرآن عنهم كما هو واضح.

كذلك فى القرآن آيات عديدة تدل على عقيدة العرب فى الجن ووجودهم وأنهم مبعث خوف ومصدر أذى وشر، وأنهم كانوا يعوذون بهم ويشركونهم مع الله فى العبادة خوفا منهم وتزلفا إليهم وأنهم يختلطون فى عقول الناس، وقد قرر القرآن فى صددهم أنهم ذوو أعمال خارقة ومصدر غواية

http://kotob.has.it

وخبث، وأن إبليس وجنوده والشياطين الذين ذكروا مرادفين لإبليس وجنوده أحيانا كثيرة منهم، وأنهم يوسوسون في صدور الناس، ويسترقون السمع من السماء ويلقون بأكاذيبهم إلى الأفاكين الكاذبين. وهكذا يبدو أن ما قرره القرآن عن عقائد العرب فيهم متصل بما قرره عن صفاتهم وأحوالهم كذلك[١].

وفي كتب التفسير بيانات كثيرة في صدد الملائكة والجن وإبليس وماهياتهم وأعمالهم جاءت في سياق ما ورد عنهم في القرآن سواء فيما له صلة بعقائد العرب أم بأعمالهم وأخبارهم وأقوالهم مسهبة حينا ومقتضبة حينا آخر ومعزوة إلى علماء ورواة معينين حينا وبدون تعيين حينا آخر ومهما يكن من أمر هذه البيانات فإن من المستبعد أن تكون موضوعة كلها بعد الإسلام، ونرجح أنها احتوت أشياء مما كان يدور في بيئة النبي ﷺحولهم، وأنها مما يمكن أن يستأنس به بأن العرب كانوا يتداولون عنهم أمورا كثيرة بقطع النظر عن صوابها وخطئها وزيادتها ونقصها، ومن الممكن أن يكون منها ما أتاهم عن الكتابيين لأن أسفار التوراة والإنجيل تحتوي أشياء كثيرة عنهم، كما أن من الممكن أن تكون أو يكون منها ما هو قديم لأن عقيدة وجود مخلوقات خفية طيبة وخبيثة من العقائد البشرية القديمة العامة التي تكاد توجد في جميع الأمم على اختلاف درجتها في الحضارة.

ومن المتبادر أن ما ورد عن الجن والشياطين وإبليس من صور قرآنية بغيضة ومن حملات على الكفار في سياقها متصل بما في أذهان العرب عنهم، وبسبيل تقرير كون الانحراف عن الحق والمكابرة فيه والاستغراق في الإثم والخبائث والانصراف عن دعوة الله هو من تلقيناتهم ووساوسهم ومظهرا من مظاهر الانحراف نحوهم وبسبيل التحذير من الاندماغ بهم لما في ذلك من مهانة ومسبة. ومن هنا يأتي الكلام قويا ملزما ولاذعا على ما هو ملموس في مختلف الآيات القرآنية، ويقوم البرهان على أن ذلك هو من الوسائل التدعيمية لأهداف القرآن وأسس الدعوة النبوية.

ولعل الحكمة الربانية فيما أوحى الله به من استماع نفر من الجن مرتين للنبي مرة في سورة الجن تلهم أن المستمعين يقولون بولد وصاحبة لله سبحانه – وهذا متصل من ناحية بعقائد العرب المشركين ومن ناحية بعقائد النصارى ومرة في سورة الأحقاف تلهم أن المستمعين يؤمنون بكتاب موسى ومهتدون بكتاب هداه تنطوي من جهة ما على قصد التدعيم للرسالة النبوية بالأخبار بإيمان بعض طوائف الجن ممن يدين بديانات مختلفة منزلة وغير منزلة بالرسالة المحمدية ولهم ما لهم في أذهان العرب من صور هائلة.

---

[١] في كتاب عصر النبي وبيئته قبل البعثة بحثان مستفيضان عن عقائد العرب وتقريرات القرآن عن الملائكة والجن.

http://kotob.has.it

ومن المتبادر كذلك أن ما ورد عن الملائكة من خضوعهم لله وعدم استكبارهم واستنكارهم واستنكافهم عن عبادته، واستغراقهم فى تنفيذ أوامره ومعرفتهم حدودهم منه، وعدم عصيان أمر له، وعدم إمكان شفاعتهم إلا بإذنه ورضائه، وما يكون من أمرهم فى تلقى الكفار بالعنف والشدة وتلقى المؤمنين بالتطمين والبشرى فى الآخرة، وما كان من أمرهم من المسارعة إلى السجود لآدم تنفيذا لأوامر الله بينما تمرد إبليس عن ذلك متصل هو الآخر بذلك القصد فى بيان واقع الملائكة الذين لهم فى أذهان العرب تلك الصور العظيمة الفخمة وأن الكلام من هذه الناحية يأتى هو الآخر ملزما ومرهبا للكفار، ومطمئنا ومثبتا للمسلمين، ويقوم البرهان على أن ذلك هو من الوسائل التدعيمية لأهداف القرآن وأسس الدعوة النبوية.

ولعل المتمعن فى الآيات التى جاء فيها ذكر الملائكة والجن وإبليس والشياطين وأعمالهم وتنوعها من جهة وما هناك من آيات وجمل قرآنية عديدة فيها تقريرات حاسمة عن إحاطة الله بكل شيء فى كل آن، وشمول قدرته لكل شيء، واستغنائه عن كل عون فى تصريف ملكوت السماوات والأرض يلهم الناظر فى القرآن أيضا أن تلك الآيات مع اتصالها بما فى أذهان السامعين من صور قد جاءت بسبيل التقريب والتمثيل للناس الذين اعتادوا أن يروا الوسائل والوسائط فى متنوع الأعمال ووجوه الحياة، ويعتبروها مظهرا من مظاهر العظمة والإحاطة ولا يدركوا المجردات إدراكا صحيحا.

فمن هذه الشروح يبدو واضحا كما هو المتبادر أن ما ورد عن الملائكة والجن، إنما استهدف كما قلنا التدعيم للدعوة النبوية وأهداف التنزيل القرآنى أولا وليس هو مقصودا بذاته ثانيا، وأنه قائم على حكمة التدعيم بما هو معروف متداول ثالثا، وأن فى ذلك تدليلا على أهمية ملاحظة ذلك فى سياق النظر فى القرآن تدبرا وفهما وتفسيرا، لأن من شأنها أن تحول دون استغراق الناظر فيه فى الماهيات والكيفيات لذاتها من مثل خلقه الملائكة والجن وكيفية اتصالهم بالله والناس وقيامهم بأدوارهم على اعتبار أن هذه الماهيات والكيفيات غير مقصودة لذاتها أولا ولا طائل من وراء التنقيب والاستغراق فيها لأنها ليس مما يدخل فى نطاق الأسس والأهداف ثانيا، كما أنها ليس مما يدخل فى نطاق المشهودات والملموسات المادية ثالثا ولا سبيل إلى فهمها بالإدراك البشرى العادى رابعا، وليست هى إلا حقائق إيمانية غيبية خامسا، ولأن من شأنها كذلك أن تغنى الناظر فى القرآن عن التكلف والتجوز والتخمين والتوفيق فى صدد ما يقوم فى سبيل الماهيات والحقائق والكيفيات لذاتها، وأن تجعله يقف منها عند حد ما وقفه القرآن، ويبقى القرآن فى نطاق قدسيته من الإرشاد والموعظة والهدى، ولا يخرج به إلى ساحة البحث التى من طبيعتها الأخذ والرد والنقاش والجدال والجرح والتعديل الخ.

http://kotob.has.it

مشاهدات الكون ونواميسه:

سابعا: إن ما ورد فى القرآن من مشاهد الكون ونواميسه قد استهدف لفت نظر السامعين إلى عظمة الله وسعة ملكوته وبديع صنعه واتقانه بقصد تأييد هدف رئيسى من أهداف الدعوة، وهو وجوب وجود الله وإنصافه بأكمل الصفات وتنزهه عن الشوائب، واستغنائه عن الولد والشريك والنصير والمساعد، ووحدته وانفراده فى الربوبية، واستحقاقه وحده للخضوع والعبادة والاتجاه والدعاء، ومطلق تصرفه وشمول علمه وإحاطته بكل شيء دق أو عظم، وحكمته السامية فى خلق الكون على أسس النواميس التى شاءت قدرته أن تقوم عليها، ثم يقصد بث هيبة الله فى قلوب السامعين وحفزهم على الاستجابة إلى دعوة نبيه والانصياع لأوامره ونواهيه، والتزام حدوده، وبتعبير إجمالى آخر قد استهدف العظة والإرشاد والتنبيه والتلقين والتدعيم والتأييد دون أن ينطوى على قصد تقرير ماهيات الكون وأطوار الخلق والتكوين ونواميس الوجود من الناحية العلمية والفنية.

وحكمة هذا واضحة، فالقرآن خاطب الناس جميعاً على تفاوت مداركهم وأذهانهم، وقصد الموعظة والإرشاد والتنبيه والهدى هو القدر المشترك بينهم من جهة، وهو الأصل فى القرآن والمتسق مع طبيعته ومداه من جهة أخرى، بحيث يمتد لكل دور ومكان، وتجاه أعلم العلماء وأبسط البسطاء، كما أن شواهده قائمة فى آيات القرآن وفصوله وأسلوبه أيضا، سواء أكان ذلك فى كيفية التعبير والسياق أم فى تنوعهما مما هو منبث فى مختلف السور وخاصة المكية، منها لأن هذه هى التى أنزلت فى ظروف الدعوة التى تقتضيها.

ولعل فى تعبير الأوتاد عن الجبال، والسقف المبنى عن السماء، والمصابيح المضيئة التى زينت بها السماء عن النجوم وجريان الشمس ومنازل القمر، والسراج الوهاج للأولى، والمصباح المنير للثانى، وفى ذكر إنزال الماء من السماء، وتسيير السحاب وتصريف الرياح، وإرسال الرعد والبرق والصواعق، وإنبات مختلف الزروع والأشجار، وتسخير الدواب والأنعام، وتسيير البحار والأنهار والفلك، وجعل الأرض بساطاً، وتصويرها مركزاً للكون والإنسان قطباً للأرض، حيث سخر له كل ما فى السماوات والأرض، وأسبغت عليهم نعم الله ظاهرة وباطنة، وسواه الله بيده ونفخ فيه من روحه اتساقا واضحا مفهوما مع مشاهد ومدركات مختلف فئات الناس الذين يوجه إليهم الكلام، وبالتالى لعل فى ذلك دلالات على ما استهدف من هذه التعابير القرآنية مما ذكرناه آنفا. وفى القرآن تشبيهات وأمثلة وتذكيرات متنوعة المضامين والسياق فيها ذلك الاتساق وهذه الدلالات واضحة جلية إذا ما أمعن النظر فيها.

http://kotob.has.it

وإنه ليصح أن يقال بالإضافة على ما تقدم وبناء عليه إن المضامين القرآنية فى هذه المواضيع متسقة مع ما فى أذهان سامعى القرآن عن مظاهر الكون ومشاهده ونواميسه، وتجلى عظمة الله وقدرته فيها. وهذه النقطة متصلة بالمبدأ العام الذى ما فتئنا نقرره من أن القرآن خاطب الناس بما يتسق مع ما فى أذهانهم إجمالاً من صور ومعارف لما يكون من قوة أثر الخطاب فيهم بمثل هذا الأسلوب.

وملاحظة ذلك جوهرية جداً لأنها تجعل الناظر فى القرآن يقف من الفصول الواردة فى هذا الباب فيه عند الحد الذى استهدفته والذى أشرنا إليه، وتحول بينه وبين التكلف والتجوز والتخمين والتزيد ومحاولة استخراج النظريات العلمية والفنية فى حقائق الكون ونواميسه وأطواره منها، والتمحل والتوفيق والتطبيق مما يخرج بالقرآن عن نطاق قدسيته من الوعظ والإرشاد ولفت النظر وبث الهيبة والاستشعار بعظمة الله والتزام حدوده إلى مجال البحث وتعريضه لطبيعة هذا المجال من الجدل والنقاش والتعارض والأخذ والرد على غير طائل ولا ضرورة ولا اتساق مع هدف القرآن وطبيعته.

وبالإضافة إلى هذا الذى يتسق مع الهدف والمضمون والمدى القرآنى فيما هو المتبادر فإن لملاحظة ذلك فائدة عظيمة لذاتها، حيث تجعل المسلم غير مقيد بنظريات كونية معينة بوهم أنها مستندة إلى القرآن ومستخرجة منه، ومع ما فى هذا دائما من تمحل- وتبقيه حراً طليقاً فى ساحات العلوم والفنون ونظرياتها وتطوراتها وتطبيقاتها فلا يختلط عليه الأمر ولا يصطدم فى السير، ويكون كل ما يجب عليه أن يظل من ذلك فى حدود الأسس والأهداف والمبادئ والمثل العليا وفى نطاق أركان الإيمان العامة التى قررها القرآن، وحيث يظل قصد القرآن ومداه ومفهومه سليما فى جميع الأدوار، يخاطب بآياته وقوله مختلف الفئات فى مختلف الأزمنة فيثير فيهم الإجلال والهيبة والإذعان سواء كانوا علماء أو بسطاء وهو قصد القرآن الجوهرى من دون ريب.

الحياة الأخروية فى القرآن :

ثامنا : إن ما ورد فى القرآن عن الحياة الأخروية وأعلامها ومشاهدها وصورها وأهوالها وعذابها ونعيمها قد ورد بأسلوب منسجم مع مفهومات السامعين ومألوفاتهم، ومتناول إدراكهم وحسهم، وخاصة العرب الذين كانوا أول المخاطبين به، وأنه ورد بالأسلوب الذى ورد به على سبيل التقريب، واستهدف فيما استهدفه إثارة والخوف والرهبة فى نفوس الضالين حتى يرعووا ويستقيموا، وبث الاغتباط والطمأنينة فى نفوس المؤمنين الصالحين حتى يثبتوا فى الطريق القويم الذى اهتدوا إليه.

http://kotob.has.it

وحكمة هذا واضحة هى الأخرى، فالقصد القرآنى فى أصله هو دعوة للناس إلى الله وطريق الحق والخير والهدى، وتحذيرهم من الضلال والانحراف والإثم، وإنذارهم وتبشيرهم بالحياة الأخرى التى يوفى فيها كل منهم بما فعل من خيرا أو شر بما يستحقه. وهذا الأسلوب وسيلة من وسائل تأييد القصد وتدعيمه، لأن ما يراد إثارته فى نفوس الناس لا يتم إلا إذا جاء بالأوصاف التى يستطيعون أن يحسوها ويدركوا مداها إحساسا وإدراكا متصلين بتجاربه ومشاهداته ومألوفاته بطبيعة الحال.

فإذا ذكر فى سياق مشاهد يوم الحساب ما فيه من صور مجالس القضاء والخصوم والشهود والاتهام والمحاورات الدفاعية والكتب والوثائق المدونة ففى ذلك صور دنيوية مألوفة للسامع يستطيع إدراك مداها والتأثر بها. وإذا ذكر أن الجبال تتفتت وتصبح كالهباء والعهن المنفوش، والأرض تحمل وتدك، والسماء تتفطر وتتشقق، والكواكب تنتثر وتتكدر وتنطفئ، والبحار تتفجر، والعشار تتعطل، والوحوش تحشر والولدان يصيرون شيبا، ففى ذلك صور هول لا يمكن للسامع إلا أن يتأثر بها ويدرك مداها، ولا سيما تبدل مشاهد الكون الماثلة عظمتها فى الذهن وإذا ذكر فى أوصاف النعيم ما ذكر من جنات فيها أنهار جارية وسرر موضوعة، وفرش مرفوعة، ومجالس شراب أنيقة، وظل وارفة وقطوف دانية، وولدان مخلدون كاللؤلؤ المكنون يطوفون بالأباريق الفضية البراقة الشفافة، والكئوس الممزوجة بالكافور والزنجبيل، وفواكه كثيرة مما تختاره النفوس، ولحوم طير متنوعة مما تشتهيه، وصحاف الذهب والفضة يتناول فيها أصحاب النعيم طعامهم، وثياب الحرير والإستبرق والسندس يلبسونها، وحلى اللؤلؤ والأساور الذهبية والفضية يتزينون بها وحور عين كالبيض المكنون يستمتعون بها الخ، يمكن إلا أن يتأثر بها السامعون ويفهموا مداها وتتوق إليها نفوسهم لأنها منتهى ما تصبو إليه النفوس خاصة من نعيم وهناء وصبور يعرفون صورها فى الدنيا معرفة مشاهدة أو استمتاع أو سماع. وإذا ذكر فى أوصاف العذاب ما ذكر من نار حامية شديدة شررها كقطع الحطب الضخمة ولهيبها كالجبال، لا ماء فيها إلا الحار الشديدة الحرارة (الحميم) ولا ظل فيها إلا ظل المساكن التى لا تحجب حرارة ويكون الظل فيها كوهج النار، ولا هواء فيها إلا الريح السموم، ولا شراب فيها إلا الغسلين والغساق، ولا طعام فيها إلا الزقوم والضريع، فإن السامعين والعرب خاصة لا يمكن إلا أن يتأثروا بها ويفهموا مداها لأنها منتهى ما تهلع له قلوبهم وتتكره منه نفوسهم من عذاب وبلاء متصل وصفها بالمشاهد والمعانى الدنيوية المألوفة أو المتصورة لديهم.

وإذا كان هناك شيء من الاستثناء مثل أنهار الخمر والعسل واللبن ووصف عرض الجنات بعرض السماوات والأرض. فالأسلوب قوى الدلالة على أنه قد جاء فى معرض التفخيم والتشبيه مما هو مألوف فى كلام السامعين والعرب خاصة وأساليب لغاتهم وخطابهم.

http://kotob.has.it

وقد اختصصنا السامع العربى بالذكر لأن كثيرا من الأوصاف والألفاظ مما يحمل الدلالة على الحياة العربية والبيئة العربية بنوع خاص، بل وربما على الحياة والبيئة فى الحجاز بنوع أخص. وهذا فى ذاته قرينة قوية قائمة على ما نقرره.

ولعل فى تنوع الأوصاف والصور والمشاهد القرآنية عن الآخرة وأهوالها ونعيمها وعذابها قرينة أو دليلاً على صواب ما نقرره، فالجبال مثلا فى جملة قرآنية تسير سير السحاب، وفى أخرى تنسف نسفاً، وفى أخرى كثيب مهيل، وفى أخرى كالعهن المنفوش، وفى أخرى كالهباء المنثور، والسماء فى جملة قرآنية تتفتح أبوابا وفى أخرى تتشقق، وفى أخرى تكسف، والنجوم فى جملة تنتثر وفى أخرى تنطمس، والشمس فى جملة تتكور، وفى أخرى تجمع مع القمر، وبينما السماء تتبدل نواميسها ومشاهدها مستقلة عن الأرض فى جملة، والأرض تدك فى جملة تحمل الأرض والسماء فتدك دكة واحدة فى جملة أخرى، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات غير السماوات فى جملة أخرى كذلك، الخ، والكافرون فى جملة يدافعون عن أنفسهم فى جملة، ويوردون متنوع الأعذار فى جملة، ويجرى أنواع الحوار بين بعضهم أو بينهم وبين الملائكة أو بينهم وبين الله فى جمل بينما لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ولا يتساءلون فى جمل أخرى، وفى جملة ينفخ فى الصور وفى أخرى ينقر فى الناقور، وفى جملة ليس للكافرين طعام إلا من ضريع وفى أخرى أن شجرة الزقوم طعام الأثيم، وفى أخرى ليس لهم طعام إلا من غسلين، وفى جملة يحشرون وقد كشف عنهم غطاؤهم وأصبح بصرهم حديدا وفى أخرى يحشرون عميا ويسألون الله عن ذلك مع أنهم كانوا فى الدنيا مبصرين الخ هذا بالإضافة إلى تنوع أوصاف النعيم حيث تأتى فى بعض الفصول بسيطة متسقة مع الحياة العادية الدنيوية كما فى سورة الغاشية بينما تأتى فى أخرى فى غاية الأناقة والفخامة مع اتصالها بمعانى ومشاهد الدنيا كما فى سورتى الإنسان والواقعة مثلا، وهذا عدا التنوع فى الجزئيات حيث تكون الصحاف والأساور فى جمل من فضة بينما تكون فى أخرى من ذهب وحيث يذكر فى جملة الحلى الذهبية، وفى أخرى الحلى الفضية، وفى أخرى الحلى اللؤلؤية، وحيث تشبه الحور العين فى جملة بالياقوت والمرجان بينما تشبه فى أخرى بالبيض المكنون أى اللؤلؤ الخ.

ومع تقريره أن الإيمان باليوم الآخر وحسابه ونعيمه وعذابه واجب وأنه ركن من أركان العقيدة الإسلامية، وأن حكمة الله فى ذلك قائمة فى قصد توفية الناس أعمالهم إن خيرا فخيرا وإن شرا فشراً، وفى تقرير أن الله لم يخلق الكون عبثا فإن ملاحظة ما قدمناه جوهرية مثل سابقاتها لأن من شأنها أن تجعل الناظر فى القرآن يتجنب الاستغراق فى الجدل حول مشاهد الحياة الأخروية وصورها، والتورط والتكلف والتزيد فى صدد ما يقوم فى سبيل الملهيات والحقائق لذاتها، ويذكر أن هدف

http://kotob.has.it

القرآن فيما جاء من التعابير والأوصاف هو العظة والتنبيه وإيقاظ الضمائر ليرعوى الضال عن ضلاله ويثبت المهتدى فى طريقه بأسلوبه يتسق مع متناول إحساس المخاطبين وتجاربهم ومشاهداتهم ومداركهم ومألوفاتهم ويثير فيهم الرهبة من العاقبة، ويتذكر أن ماهية هذه الحياة وحقيقتها مغيبتان لا يستطاع فهم شيء عنهما إلا بالأوصاف الدنيوية، وإن حكمة الله اقتضت بهذه الأوصاف على سبيل التقريب والتشبيه.

وإذا كانت الحياة الأخروية ومشاهدها وأوصافها وصورها المتنوعة قد شغلت حيزا كبيرا فى القرآن حتى لا تكاد سورة من سوره تخلو من ذكرها أو الإشارة إليها بشكل ما فإن مرد ذلك -على كونه من خصوصيات القرآن- لأهداف القرآن وأسس دعوته وأشدها تأثيرا وإثارة لأنها تمثل عالم ما بعد الموت الذى لا يكاد يخلو إنسان فى أى دور من استشعار الرهبة منه من جهة، ومن العقائد الإيمانية الإسلامية من جهة، ولأنها كانت من المواضيع الرئيسية أو بالأحرى أهم موضوع دار حوله الجدل بشدة واستمرار بين النبى ومشركى العرب مما له صلة بظروف الدعوة النبوية من جهة.

ذات الله فى القرآن :

تاسعا: إن ما ورد فى القرآن مما يتصل بذات الله السامية من تعابير اليد والقبضة واليمين والشمال والوجه والاستواء والنزول والمجيء وفوق وتحت وأمام وطى وقبض ونفخ، إنما جاء بالأسلوب والتعابير والتسميات التى جاءت به من قبيل التقريب لأذهان السامعين الذين اعتادوا أن يفهموا منها معانى القوة والإحاطة والشمول والحضور والحركة الدائمة والصفات التى لا تتم هذه المعانى إلا بها.

ولقد ورد فى القرآن عبارات "ليس كمثله شيء" و "لا تدركه الأبصار" و "لا يحيطون بشيء من علمه" يصح أن تكون ضوابط حاسمة فى صدد الذات الإلهية، وتنطوى على قرينة على صحة ما ذكرناه آنفا فى مدى تلك التعابير. ولعل هذه الضوابط تشمل كل ما ورد فى صدد الذات السامية من أسماء وأفعال وصفات أخرى قد توهم مماثلة لأسماء وصفات وأفعال البشر أيضا، حيث يصح أن يقال إن ورودها فى القرآن إنما جاء كذلك على سبيل التقريب والتشبيه فالله سميع ولكن ليس كمثل سمعه شيء، وبصير وليس كمثل بصره شيء، ومتكلم وليس كمثل تكلمه شيء، وهو حى وعليم ومريد وقوى وحكيم وصبور وقابض وباسط وليس كمثل حياته وعلمه وإرادته وقوته وحكمته وصبره وقبضه وبسطه شيء.

والمتمعن فى الآيات القرآنية التى وردت فيها تلك التعابير وهذه الأسماء والصفات مضمونا أو أسلوبا وسياقا يجدها قد استهدفت من جهة تقرير معانى القوة والإحاطة والشمول والقدرة والوجود الدائم الشامل، ومن جهة أخرى تقرير أحسن الأسماء والصفات الدالة على أكمل الحالات وأتم

http://kotob.has.it

المعانى اللائقة بالذات الإلهية بما تتسع له لغة البشر التى نزل القرآن بها. ولعل التنوع الموجود فى التعابير القرآنية مما يقوم قرينة قوية على صحة ما تقرره.

وملاحظة هذا مهمة جداً من شأنها أن تحول دون استغراق الناظر فى القرآن فى التكلف والتجوز والتخمين والماهيات من جهة، ودون تورطه فى الجدل الكلامى على غير طائل ولا ضرورة من جهة أخرى، وتجعله يقف من هذه التعابير والأسماء والصفات عند الحد الذى وقف عنده القرآن، ويفهم منها الأهداف التى استهدف تقريرها بها دون تزيد ولا تكلف ولا تمحل.

على أن الناظر فى أساليب القرآن المتنوعة يجدها فى هذا الصدد كما هو الشأن فيما يتصل بمشاهد الكون والآخرة وأخبار الأمم السابقة وأنبيائهم والجن والملائكة أسلوب الحكيم الذى لا يدخل فى نقاش وجدل وتقريرات كلامية، وينسق مع طبائع الأشياء من حيث إنه يخاطب أناسا متفاوتين متنوعين فى أذهانهم وظروفهم، المهم والجوهرى من أمرهم دعوتهم إلى الخير وإصلاحهم وتوجيههم إلى أحسن الوجهات، وتقريب الأمور والمعانى إلى عقولهم بأساليب سائغة منسجمة مع مداركهم، وإعطاء كل موضوع فى كل موضع ما يتحمله لتدعيم هذه الدعوة وتأييدها وجعلها مؤثرة نافذة، وفى ذلك من دون ريب تعليم للطريقة الفضلى التى يجب الأخذ بها إزاء التعابير والأساليب القرآنية.

تسلسل الفصول القرآنية وسياقها:

عاشرا: إن أكثر الفصول والمجموعات فى السور القرآنية متصلة السياق ترتيباً أو موضوعاً أو سبكاً أو نزولاً، وأن فهم مداها ومعانيها وظروفها الزمنية والموضوعية وخصوصياتها وعمومياتها وتلقينها وتوجيهها وأحكامها فهماً صحيحا لا يتيسر إلا بملاحظة تسلسل السياق والتناسب، وإن فى أخذ القرآن آية آية أو عبارة عبارة أو كلمة كلمة بترا لوحدة السياق فى كثير من المواقف والمواضيع، وهو مؤد إلى التشويش على صحة التفهم والتدبر والإحاطة أو على حقيقة ومدى الهدف القرآنى.

ولتمثيل ذلك وإيضاحه نذكر آية الصافات (٩١) ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ فهذه الآية كثيرا ما تورد فى معرض الحجاج والبرهنة فى بعض المذاهب الكلامية على أن القرآن ينص على أن الله قد خلق أعمال الناس وبطلان القول الذى يقوله بعض المذاهب الكلامية الأخرى أن الإنسان خالق أفعال نفسه ومسئول عن تبعتها. فبقطع النظر عن هذا الموضوع الكلامى الخلافى فإن الذين يوردون الآية فى معرض الحجاج والبرهان قلما يلحظون أنها ليست تقريراً ربانيا مباشراً فى صدد خلق الناس وخلق أعمالهم، وبالتالى فى صدد الموضوع الكلامى، وإنما هى جزء من سلسلة تتضمن حكاية قول إبراهيم لقومه فى سياق التنديد بهم، لأنهم يعبدون ما ينحتون من الأصنام مع أن الله كما خلقهم خلق المادة التى يعملونها أى ينحتونها أصناما ليعبدوها، وهى السلسلة ٨٣-١١٣ من السورة فالآية جزء

http://kotob.has.it

من حكاية أقوال إبراهيم، ولو لوحظ السياق جميعه لما كان هناك محل لاقتطاع هذه الآية وحدها من السلسلة وتلقيها كتقرير رباني مباشر يخلق أعمال الناس، كما أن من الواضح مع ملاحظة جزئية الآية من السلسلة أنها لا تصح أن تورد في معرض البرهان الذي تورد فيه، هذا بقطع النظر عما ورد في السلسلة نفسها من نسبة العبادة والنحت والإلقاء وإرادة الكيد الخ إلى قوم إبراهيم وتقرير صدور هذه الأعمال عنهم.

ونذكر جملة ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ في آية التوبة (٣٦) فكثير من المفسرين يفسرونها منفردة ويصفونها بأنها آية السيف ويقولون إنها نسخت كل ما جاء في القرآن من عدم قتال غير المعتدين والمقاتلين من المشركين، وبذلك كانت آيات محكمة في هذا الصدد، مع أن في الآية فقرة أخرى مرتبطة أشد الارتباط بها ومحتوية للتعليل الرائع المعقول المتسق مع طبيعة الأمور للأمر الذي تضمنته بقتال المشركين كافة وهي ﴿كما يقاتلونكم كافة﴾ فلو لوحظ ذلك ولم تجزأ الآية لما كان محل لذلك التفسير والوصف والقول حيث يبدو واضحا أنها في معرض حث المسلمين على قتال المشركين المحاربين مجتمعين كما يقاتلونهم كذلك ولزوال الإشكال الذي ينشأ عن هذا التفسير ويؤدي إلى نسخ أحكام وآيات محكمة متسقة مع مبادئ القرآن ومثله السامية، ومع طبائع الأمور ووقائع السيرة النبوية المؤيدة بالآيات من جهة والأحاديث من جهة أخرى ونعني حصر القتال في الأعداء المقاتلين أو المعتدين دون المشركين والكفار المعاهدين والموفين بعهدهم والمحايدين والمسالمين والعاجزين والنساء والأطفال مما يقتضي قتالهم جميعا وفاق ذلك التفسير.

ونذكر آية المجادلة الثالثة كمثل ثالث، وهي التي جاء فيها ﴿والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا﴾ فكثير من المفسرين ينظرون إلى هذه الآية مستقلة عن سابقتها ويحارون في تأويل جملة ﴿ثم يعودون لما قالوا﴾ حتى قال غير واحد منهم إن الجملة من مشكلات القرآن، واضطروا إلى اعتبار "لما" بمعنى "عن ما" وقالوا إن الجملة تعني "ثم يرجعون عن ما قالوا عنه ويرغبون في معاشرة أزواجهم" أو إلى تأويلات أخرى، هذا مع أن هذه الآية متصلة كل الاتصال بسابقتها التي جاء فيها ﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور﴾ فلو لوحظ ذلك لما كان هناك محل لهذه الحيرة والإشكال والتأويل. فالآية الأولى نددت بالمظاهرين والظهار وعدته عملا منكرا ثم انتهت بمقطع ﴿وإن الله لعفو غفور﴾ فكأنما تقدمت باستنكار الظهار من حيث المبدأ وتقرر أن الله يعفو ويغفر للمظاهرين قبل نزول هذا الاستنكار وبالتالي قبل نزول الآيتين على اعتبار أنه لم يكن مستنكرا ومنهيا عنه ثم أعقبتها الثانية لتقرر الحكم الإسلامي فالذين يعودون إلى ما نهوا

http://kotob.has.it

عنه واستنكر أى الظهار بعد ذلك الاستنكار والوصف تجب عليهم الكفارة قبل معاشرة أزواجهم لأنهم يكونون قد أتوا بعمل عده القرآن منكرا وزورا. وطبيعى أن الحكم الإسلامى صار حكما ملزماً لكل مظاهر وأن العفو عن المظاهر ظل خاصا بمن ظاهر قبل نزول الآية الأولى وهى حالة خصوصية الزمن لا تتكرر. ولقد احتوت السورة نفسها نفس الحروف فى الآية(٨) التى جاء فيها ﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها وبئس المصير﴾ حيث يأتى المعنى فيها واضحا بأن العودة هى لما نهى عنه وأن الوعيد هو للعائدين إلى التناجى بعد النهى عنه، ولا فرق بين الجملتين كما هو ظاهر.

وهناك أمثلة كثيرة أخرى بالنسبة لآيات واردة فى السور الطويلة والمتوسطة مما نبهنا عليه فى سياق التفسير. فبينما تكون المجموعة أو الفصل القرآنى مفهوما سائغا يبدو عليه الانسجام والترابط التامان سبكا وموضوعا إذا قرئ ونظر فيه ككل؛ اضطرب على الناظر فى القرآن فهمه وقامت فى ذهنه بلبلة أو مشكلة أو حيرة فى مداه ومدلوله إذا أخذه آية آية أو عبارة عبارة.

ومما يجدر التنبيه عليه فى هذا المقام أن هناك روايات كثيرة تورد كأسباب لنزول آيات منفردة أو جزء من آية فى حين أن سياق الآية ومفهومها لا يتفقان مع الرواية كسبب للنزول، ويلهمان أن الآية منسجمة الأجزاء، وأنها متصلة اتصالا وثيقا بما قبلها أو بعدها فى السياق، وكل ما يمكن فرضه فى أمر الرواية فى حالة صحتها أن تكون الآية أوردت على سبيل الاستشهاد على حادث ما وقع بعد نزولها، أو يكون الحادث قد وقع قبل نزولها بمدة ما فجاءت الإشارة إليه فى السياق العام الذى أتت فيه الآية على سبيل التشريع أو التذكير أو التنديد أو التنبيه أو العظة الخ، فالتبس الأمر على الراوى وظن أن الحادث هو سبب النزول.

فقد روى مثلا عن ابن مسعود قوله : لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل فجاء أبو عقيل بنصف صاع وجاء إنسان بأكثر منه فقال المنافقون إن الله لغنى عن صدقة ذلك وإن ما فعله الآخر ليس إلا رياء فنزلت ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين بالصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾. (التوبة : ٧٩)

فهذه الرواية توهم أن الآية نزلت منفردة بسبب هذا الحادث مع أنها متصلة بسياق عام سابق ولاحق بها أشد الاتصال، وأن فى السياق قرائن تدل على أن الفصل الطويل الذى تقع فيه هذه الآية (٣٨-٩٩) قد نزل كله أو جله فى أثناء غزوة تبوك وظروفها وسببها.

http://kotob.has.it

وهناك رواية أخرى فى البخارى عن ابن مسعود أن رجلين من قريش وختنا لهما من ثقيف كانوا فى بيت فقال بعضهم لبعض أترون أن الله يسمع حديثنا قال بعضهم يسمع بعضه وقال بعضهم لئن كان يسمع بعضه لقد يسمعه كله فنزلت الآية ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون..﴾

(فصلت : ٢٢)

مع أن الآية متصلة بسياق يحكى فيه محاورة فى الآخرة بين الكفار وبين أعضاء أبدانهم التى تشهد عليهم أشد الاتصال، وليس هناك تطابق ما بين مفهوم الرواية وعبارة الآية.

والفصول الأولى من سورة النساء من مواريث وأنكحة مترابطة ومنسجمة، والآية الأولى فى السورة بمثابة براعة استهلال لما تضمنته من هذه الفصول، وروح آيات الفصول يلهم أنها وحدة تشريعية، فى حين أن هناك روايات تكاد لكل آية مناسبة نزول مستقلة وتوهم أنها أنزلت منفردة بسببها. ويقال هذا فى فصول سورة الحجرات أيضا. وأمثال ذلك كثيرة جدا نبهنا عليها فى سياق التفسير.

فملاحظة السياق والتناسب والترابط بين الفصول والمجموعات القرآنية ضرورية ومفيدة جدا فى فهم مدى القرآن ومواضيعه وأهدافه من جهة وفى لمس ناحية من نواحى الروعة والإعجاز والإتقان فيه، لأنهما يظهران الناظر فى القرآن على ما هو عليه من ترتيب وانسجام وترابط نظما وموضوعا من جهة ثانية وعلى نقاط الضعف فى روايات كثيرة وردت فى سياق الآيات القرآنية وخاصة فى مكية بعض الآيات فى السور المدنية ومدنية بعض الآيات فى السور المكية من جهة ثالثة، وتزيلان ما هو عالق فى الذهن خطأ من أن الفصول القرآنية فوضى لا ترتيب ولا انسجام بينها من جهة رابعة.

ومن فوائد هذه الملاحظة المهمة إزالة وهم التعارض والتناقض فى نصوص القرآن وتقريراته المتكررة بأساليب متنوعة حسب المواقف والمناسبات وخاصة فى القصص والمواعظ والإنذار والتبشير والمشاهد الكونية والأخروية، وبنوع أخص فى عبارات وجمل الهداية والضلال والكفر والإيمان وتزيين الأعمال والطبع على القلب وتسليط الشياطين والإغواء ومسئولية الإنسان عن عمله وحكمة الله فى عدم خلق الناس أمة واحدة الخ، ففى تدبر سياق كل مناسبة وكل جملة قرآنية من هذا القبيل يمكن أن يلمح الناظر فى القرآن حكمة ورود كل منها بالأسلوب الذى وردت به والمناسبة التى جاء فيها والمعنى الذى أريد منها والهدف الذى استهدفه، وكل هذا قد يكون متنوعا بتنوع المواقف والأساليب والمضامين والسياق، فيطمئن بسلامة المعنى وحكمة النص الوارد فى السياق الذى ورد فيه ويزول وهم التعارض والتناقض وما يؤدى إليه من الحيرة أحيانا، ويحمل عليه من التكلف

http://kotob.has.it

والتجوز والتخريج والجدل على غير ضرورة ولا طائل وعلى غير اتساق مع الهدف القرآني ونطاقه.

فأنت مثلا إذا أخذت جملة ﴿يضل من يشاء ويهدى من يشاء﴾ فى آية فاطر (٨) وجملة ﴿كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء﴾ فى آية المدثر (٣١) وقعت فى حيرة لأن هناك آيات كثيرة جاء فى بعضها ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر..﴾ (الكهف : ٢٩)

وفى بعضها ﴿قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما ضل عليها..﴾ (يونس : ١٠٨)

ولكنك إذا قرأت سياق آيتى فاطر والمدثر كوحدة (٣ - ١٠فاطر)و (١-٣١المدثر) ظهرك لك المعنى سائغا مفهوما، وبدا لك أنهما استهدفتا فيما استهدفتاه التنديد بالكافرين والضالين والحملة عليهم من جهة والتنويه بالمؤمنين الصالحين وتطمينهم وتبشيرهم من جهة وتسلية النبى فيما ألم به من حزن وحسرة على مكابرة الكافرين وعنادهم من جهة، بل ظهر لك أن تلك المعانى التى تقررها آيات الكهف ويونس منطوية فى نفس سياق جملتى سورتى فاطر والمدثر حيث احتوى سياق آية فاطر ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾. وحيث احتوى سياق آية المدثر ﴿إنها لإحدى الكبر نذيراً للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر كل نفس بما كسبت رهينة﴾ ويطرد هذا فى أمثال كثيرة مثل آية البقرة (١٦) مع سياقها وآية النحل (٩٣) مع سياقها وآية القصص (٥٦) مع سياقها وآية يونس (٩٩-١٠٠) مع سياقها الخ مما عليه فى التفسير عند مناسباته.

وأنت إذا أخذت مثلا جملة ﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً﴾ فى سورة الكهف الآية ٥٨ لحدتها وجدت نفسك أمام مشكلة محيرة لأنها توهم أن الله صرف الكافر عن فهم القرآن والتأثر به وحتم عليهم عدم الإجابة والاهتداء، ولكنك إذا تدبرت سياق الآية جميعه (الآيات ٤٥-٥٩) بل أول الآية التى وردت فيها ظهر لك قصد وصف مكابرة الكفار وعنادهم والتسرية عن النبى ﷺ إزاء هذه المكابرة والعناد ويطرد هذا كذلك فى أمثال كثيرة كآيات هود ١١٨والرعد ٣١ والبقرة ٧ ويس ٩ وسياقها.

ونقول استطرادا : إن هذه الأمثلة قد كانت موضوع أخذ ورد وجدل فى كتب التفسير بسبب صلتها بالموضوع الخلافى الكلامى فى فعل الإنسان وكسبه وإرادته، حيث ذهب فريق إلى ما يفيد أن

http://kotob.has.it

الإنسان مجبور على أفعال وأنها محتمة عليه فى الأزل لا معدى له عنها ولا اختيار له فيها من كفر وإيمان وفساد وصلاح وشر وخير، وأن العقاب والثواب ينالان الناس بمحض مشيئة الله وفضله، ولا صلة ولا أثر لأعمالهم فيها فى حقيقة الأمر، وحيث ذهب فريق آخر إلى ما يفيد أن الإنسان خالق الأفعال نفسه فيؤمن ويكفر ويفسق ويصلح بإرادته واختياره، وأن الله لا يصح عليه إرادة الكفر والفسق من العبد ولا تقديرها عليه، بل ولا يصح أن يكون مريدا للقبيح وأنه يجب عليه الاصلح لعباده، وأن الإنسان يعاقب ويثاب على أفعاله حقا وعدلا، وحيث توسط فريق فذهب إلى ما يفيد أن الله هو خالق أفعال عباده من كفر وإيمان وعصيان وطاعة ومنكرات وصالحات، وكل بإرادته ومشيئته وقضائه وتقديره فى حدود عموم تأثير صفاته الأزلية، وأن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء بمعنى خلقه الضلال والهدى، وأنه لا يجب عليه الأصلح، وقرروا مع ذلك للإنسان فعلا اختياريا يثاب عليه إذا كان طاعة وصلاحا ويعاقب عليه إذا كان معصية وفسادا، وقالوا إن معنى أن الله أراد من الكافر كفره ومن الفاسق فسقه ومن المؤمن إيمانه ومن الطائع طاعته أنه أرادها باختيار الناس وكسبهم، وتشاد الجميع حول هذه المواضيع كل يؤيد رأيه ويرد على رأى الآخرين بأساليب جدلية من جهة وعبارات قرآنية من جهة أخرى متقطعة من آيات أو سياق دون تدبر فى بقية الآية أو السياق، ويؤول ما هناك من نصوص تناقض رأيه فى ظاهرها ولا تتسق معه على ما هو مبسوط فى كتب المتكلمين المسلمين على اختلاف مذاهبهم.

والموضوع فى أصله أن كون الإنسان مخيراً أو مسيرا عويص وموضوع جدلى عام لا ينحصر التشاد حوله فى المذاهب الإسلامية الكلامية وله جبهات متنوعة ولا يدخل التبسط فيه فى موضوع هذا الكتاب، غير أن المقام يتحمل بعض القول بسبب ما احتواه القرآن من آيات كثيرة جدا اتخذها علماء المذاهب الكلامية الإسلامية مستندا لمذاهبم المختلفة فى هذا الموضوع ومع أن من المسلم به أن النصوص القرآنية هى سند رئيسى فى العقائد والشرائع والأحكام الإسلامية فالذى نعتقده أن الناظر فى الآيات القرآنية إذا أخذ المجموعة القرآنية وحدة ولم يعقل سياقها وظروف نزولها وهدفها، ولم يقتطع منها الجمل وينظر فيها على حدة كما يفعل أصحاب المذاهب الكلامية فى تشادهم ومجادلاتهم فيما بينهم- وهذا هو موضوع هذا المبحث فى الأصل - يستطيع أن يتبين أهداف القرآن فى العبارات الواردة تبينا يزول معه من نفسه ما قد يقوم من وهم التعارض والتناقض فى آياته، والقرآن برىء من التعارض والتناقض بنص صريح فيه جاء فى آية النساء ٨٢ ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كبيرا﴾ ويجد حلا لما يبدو من إشكال وتعليلا سائغا لما يوهم ظاهره من معان متعارضة فيه، ويظهر له أن كثيرا مما دار ويدور من جدل ونقاش

http://kotob.has.it

وحجاج وخلاف لا تتحمله عبارات القرآن ولا تقتضيه، وليس من ورائه طائل ولا ضرورة. وأن هذه العبارات ليست فى صدد هذه التقريرات الكلامية، وفى الأمثلة التى أوردناها دلائل كافية، وهى مطردة فى سائر فصول القرآن ومجموعاته التى وردت أمثالها فيها، ثم يجد - وهذا مهم جدا - أن النصوص والأهداف القرآنية تجرى فى مدى هداية الناس ودعوتهم إلى الخير وإصلاحهم وتوجيههم إلى أفضل الوجهات وأنفعها، والتنويه بالمستجيبين المهتدين الصالحين المتقين المحسنين وتبشيرهم وتطمينهم والتحذير من الفساد والإثم والفاحشة وإنكار الله ووحدته وكمال صفاته والتنديد بالضالين الآثمين المكابرين المنافقين الظالمين وإنذارهم، ولا تجرى فى أى حال فى مجرى التقريرات الكلامية التى يدور حولها الخلاف والجدل المذهبى، وهذا هو أسلوب الحكيم الذى يعلمنا إياه القرآن فى جميع الأمور، المتسق مع طبائع الأشياء وحقائقها ونعنى كون القرآن يخاطب بشرا تعورف على أنهم ذوو قابليات وكسب واختيار، وأن لهم أثرا فيما يصدر عنهم من أعمال وأقوال ومواقف وفقا لما تمليه عليهم عقولهم وميولهم ومداركهم وتقديراتهم ومنافعهم وظروفهم الخاصة والعامة، وأنهم متفاوتون فى كل هذا وأنهم ذوو تمييز للخير والشر والحسن والقبيح فى نطاق تلك العقول والميول والمدارك والتقديرات والمنافع والظروف والقابليات المتفاوتة، وأن المهم فى الأمر هو دعوتهم إلى الهدى والخير وإخراجهم من الظلمات إلى النور وإنقاذهم من الضلال وإثارة نفوسهم وإيقاظ ضمائرهم، وتبشير المستجيبين وإنذار المكابرين وإرشاد الضالين الجاهلين منهم، وأن من الممكن أن تؤثر فيهم الدعوى فيستجيبوا تسليما وإذعانا وإدراكا أو خوفا وطمعا ورغبة ورهبة وأن الانحراف عن هذا النطاق والمدى إلى الجدل فيما وراء ذلك تكلف وتجوز وبعد عن مقاصد القرآن وأهدافه، ومؤد إلى البلبلة والحيرة والتشويش على هذه المقاصد والأهداف وعلى الراغبين فى تفهم القرآن والناظرين فيه.

فهم القرآن من القرآن:

حادى عشر: إن الأوثق والأوكد والوسيلة الفضلى لفهم مدى القرآن ودلالاته وتلقيناته بل وظروف نزوله ومناسباته تفسير بعض القرآن ببعض، وعطف بعضه على بعض، وربط بعضه ببعض كلما كان ذلك ممكنا لغة أو مدلولاً أو حادثا أو مناسبة أو سبكا أو حكما أو موقفا أو تقريرا، وسواء ذلك ما يدخل فى نطاق الأسس والأهداف أو الوسائل والتدعيمات. وإمكانيات ذلك قائمة على نطاق واسع فى مختلف فصول القرآن المكية والمدنية. كان القرآن يكاد يكون سلسلة تامة يتصل بعضها ببعض أوثق اتصال فيما يمثل من أدوار السيرة النبوية فى عهديها كما أن من شأن عباراته وجمله وأحكامه ومشاهده وقصصه ومواعظه وحججه أن يفسر بعضها بعضا وأن يدعم بعضها بعضا.

http://kotob.has.it

وفائدة هذه الملاحظة عظيمة كما يتضح عند التدبر، حيث يمكن أن تغنى الناظر فى القرآن عن الفروض والتكلف والتخمين، وتحول بينه وبين التورط فى موهمات التعارض والإشكالات اللغوية وغير المأمورية. وكثيرا ما تساق على تمييز القوى من الضعيف والصحيح من الباطل من الأقوال والروايات الواردة فى تفسير كثير من الآيات أو فى مناسبات نزولها وأسبابها. وهذا باب واسع الشمول والمدى ولنضرب مثلا لذلك آية وردت فى سورة الأنعام جاء فيها ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾ (١٥٩)

فقد قال غير واحد من المفسرين وعلماء المذاهب أقوالا يستفاد منها أن الآية قد احتوت إخبارا غيبيا بما نجم بعد النبى ﷺ من خلافات ومنازعات وفرق وشيع وبدع الخ، فى حين أنه جاء فى سورة الروم جملة مثلها مسبوقة بجملة فيها صراحة بأنها تعنى المشركين كما ترى ﴿منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون﴾. (٣١- ٣٢)

فلو لوحظت هاتان الآيتان وربط بينهما وبين آية الأنعام لما كان محل لتلك الأقوال التى تبدو فيها رائحة ما نجم من تلك الخلافات والمنازعات والفرق والشيع والبدع بعد وفاة النبى بسنين قليلة، بل لوحظ سياق آية الأنعام على ما نبهنا عليه فى المبحث السابق وخاصة الآيتين ١٥٥-١٥٦ لظهر أنه احتوى تنديدا بالمشركين ومواقفهم من الدعوة والقرآن ولبدا الاتساق واضحا بين آيات السورتين القرآنيتين ولما كان محل لتلك الأقوال أيضا. ومن الأمثلة التى تساق فى صدد المبحث الحالى ما روى عن ابن عباس فى الآية ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا﴾.

(الكهف : ٤٩)

وهو قوله إن الجن طائفة من الملائكة وأن التسمية من الاختفاء الذى يشمل الملائكة كما يشمل الجن، هذا فى حين أن الآية جمعت بين الملائكة والجن على اعتبارهما خلقين مستقلين، وأن هناك آيات قرآنية عديدة حكت قول إبليس إنه مخلوق من النار وأخرى قررت أن الجن قد خلقوا من النار، فملاحظة هذا الاشتراك تظهر عدم صحة الرواية لأن هذا ليس مما يمكن أن يخفى عن ابن عباس الذى يوصف بما يوصف به من سعة العلم وقوة الذكاء والإحاطة بالقرآن، وتساعد على القول الحاسم فى جنية إبليس فى النصوص القرآنية.

ويمكن أن تساق الآيات التى نصت على أن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء، ولا نريد أن نكرر ما قلناه قبل قليل فى هذا الأمر. ولكنا نريد أن ننبه على أن فى القرآن آيات من هذا الباب فيها

http://kotob.has.it

إيضاح من شأنه أن يضع الأمر فى نصاب الحق بالنسبة لإطلاق العبارة فى آيات أخرى. ففى سورة البقرة : ﴿يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين﴾ (٣٦) وفى سورة الرعد ﴿قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب﴾ (٢٧) وفى سورة إبراهيم ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾ (٢٧) فهذه الآيات حينما تلاحظ أثناء تلاوة وتفسير الآيات التى جاءت عبارتها مطلقة وتفسر بها يزول كل ما يدور حول هذا الموضوع الكلامى من أسباب الحجاج والنقاش ويبدو قصد تقرير كون هدى الله إنما يكون لمن استنار قلبه وحسنت نيته ورغب فى الإنابة إلى الله، وكون الضلال إنما يكون للظالمين والفاسقين وأردياء النية والخلق، وكون الهدى والضلال منوطين بحسن نوايا الناس وسوئها والرغبة فى الإنابة إلى الله والمكابرة فيها، ويسوق الناظر إلى التماس سبب مجيء العبارة مطلقة فى الآيات التى جاءت فيها مطلقة فى أسلوبها وسياقها على ما ذكرناه قبل.

ويمكن أن تساق آية الشورى هذه كمثل آخر :

﴿ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكور﴾

فإن بعض المفسرين وخاصة مفسرى الشيعة فسروا الآية على أنها تفيد إيجاب محبة أقارب النبى ﷺ الأدنين والبر بهم وطاعتهم، فى حين أن هناك آيات قرآنية عديدة[1]أمرت النبى ﷺ بالقول إنه لا يسألهم أجرا دون أى استثناء فملاحظة ذلك تجعل الناظر فى القرآن يحمل ما جاء فى آية الشورى من استثناء على محمل آخر يبعد عن القرآن وهم التعارض، وينزه الله ونبيه عن تقاضى الأجر على هداية الناس وإيجابه بالنسبة لذريته أو أقاربه الأدنين، ولا يتورط فى تأويل يؤيد الاستثناء والأجر الذين يثيران حيرة وإشكالا هذا يقطع النظر عما فى ذلك التفسير من تمحل وتجوز لا يتحملها مضمون الآية، وعما هناك من رواية مأثورة عن ابن عباس فى صددها تجعلها متسقة كل الاتساق مع النصوص القرآنية الأخرى وتفيد أن قصد الآية تقرير كون حرص النبى على هداية قومه لا يمكن أن يتهم لأنه لا يطلب عليها أجرا وكون مرد هذا الحرص هو ما بين النبى وقريش من أوشاج القربى حيث لم يكن بطن من بطون قريش إلا وبينه وبين النبى قرابة. وهناك تأويل آخر جاء فى تفسير ابن كثير المشهور وهو أن الآية بمعنى أنى لا أريد منكم شيئا إلا أن تحترموا قرابتى لكم وتوادونى من أجلها وتكفوا عن الأذى والصد والتعطيل وهو تأويل وجيه ومتسق مع روح القرآن

---

[1] آيات يوسف ١٠٠ والمؤمنون ٧٧ والفرقان ٥٧ وسبأ ٤٧ وص ٨٦ والقلم ٤٦.

http://kotob.has.it

واللغة وننبه على أننا هنا فى صدد فهم نصوص القرآن ولسنا فى صدد نفى واجب المسلمين فى بـر ومودة الصالحين الأتقياء الذين ليست نسبتهم إلى بضعة الرسول محل شك وريب من أجل هذه النسبة الشريفة الكريمة.

ومن فوائده ملاحظة ما هو موضوع هذا البحث أنها تساعد على معرفـة الناسـخ والمنسـوخ وصور التطورات المتنوعة فى سير الدعوة النبوية والسيرة النبوية والتشريع القرآنى. فآيات النسـاء ١٥-١٦ مثلاً تشير إلى جريمة الزنا وتعين نصاب شهود ثبوتها ولكنها لا تعين حدا وتكتفى بـالأمر بإمساك النساء فى البيوت وأذية الزناة بعبارة مطلقة، فى حين أن آية سورة النور الثانية تعين حـدا للزانين والزانيات مائة جلدة فملاحظة آيات النساء والنور معاً فى النظر والتفسير تساعد على معرفـة كون آيات النساء قد نزلت قبل آيات النور، وأن آيات النور هى المحكمة فى جريمة الزنا دون آيـات النساء، وأن فى نزول آيات النور بعد آيات النساء تطورا فى التشريع القرآنى. وفى آية النساء (٢٥) جملة تنص على أن حد الإماء المحصنات (المتزوجات) إذا زنين هو نصف حد الحرائر المحصنـات وهى هذه ﴿فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ فملاحظة آية النور فى تفسير هذه الجملة تساعد على معرفة أن هذه الجملة نزلت بعد آيات النور، بعكس الآيـات السابقة حيث نزلت آيات النساء قبل آيات النور، وأنها وضعت فى محلها للتناسب الموجود فى أحكـام الأنكحة والأسرة والمواريث الواردة فى سورة النساء، وتساعد كذلك على معرفة صورة من صـور التأليف القرآنى : كذلك إذا قرأنا آيتى سورة المنافقون هاتين ﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون يقولون لئن رجعنـا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنـافقين لا يعلمـون﴾ (٧ - ٨) ثم قرأنا آيتى سورة التوبة هاتين : ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قـوم يفرقون لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحـون﴾ (٥٦-٥٤) . اسـتطعنا أن نتبين من ملاحظة آيات السورتين أن المنافقين فى المدينة كانوا فى أوائل العهد المدنى معتدين بقوتهم وما لهم ومركزهم، بينما صاروا فى أواخر هذا العهد إلى حالة الخوف والضعف، وأن نلمس صـورة تطورية من صور السيرة النبوية، وأن نحكم على تهافت الرواية التى ذكرت أن معسكر المنافقين عند الاستعداد لغزوة تبوك كان يعادل فى سعته وعدده معسكر المؤمنين المخلصين.

والأمثلة فى هذا الباب كثيرة جدا ومنبثة فى السور والفصول القرآنية مكيها ومدنيها نبهنا عليـها فى التفسير. وهذه الكثرة تظهر فائدة هذه الملاحظة فى حسن فهم القرآن وتفسيره كما هو واضح.

http://kotob.has.it

ولا أدعى بأن هذه الملاحظات جديدة وغير مسبوقة، ففى الإتقان للسيوطى لنفسه ولغيره من العلماء والمؤلفين نبذ عديدة فى شروط التفسير وأصوله احتوت غير واحدة من هذه الملاحظات، كما أن كثيرا من العلماء والباحثين والمفسرين نبهوا عليها بأساليب متنوعة، ومنهم من فعل ذلك فى مقدمات كتبهم التفسيرية أو فيما كتبوه عن القرآن من كتب خاصة بل ومنهم من سار عليها قليلا أو كثيراً غير أنى لم أر فيما تيسر لى من الاطلاع عليه من كتب التفسير[1] العديدة القديمة والحديثة أن هذه الملاحظات قد لوحظت جميعا معا فى تفسير واحد، وإن صح القول بأنها لوحظت متفرقة وبسعة أو إيجاز حيث يمكن أن يكون مفسر لاحظ بعضا وسار عليه وآخر لاحظ بعضا وسار عليه مع أن ملاحظتها جميعا والسير وفقها جوهرى جدا فيما أعتقد لفهم القرآن فهما صحيحا وخدمته خدمة فضلى، هذا مع اعترافى بالتقصير إزاء ما أحرزه الذين بحثوا فى القرآن وعلومه وألفوا فيه وفسروه قديما وحديثاً من علم واطلاع وتمكن وممارسة طويلة وتفرغ أطول وخاصة فى علوم الصرف والنحو والبلاغة واللغة وأصول الفقه والحديث والرواية والخلافات المذهبية والكلامية، ومع اعترافى بالمجهود الذى بذله كل منهم فى خدمة القرآن وتفسيره، وما لكثير من كتب التفسير من خصوصيات مفيدة إما من حيث الإسهاب والإيجاز أو من حيث اللغة والبلاغة، والقواعد النحوية والصرفية، أو من حيث التنويه بالمعانى والقضايا وتفريعاتها، أو من حيث الإحكام واستنباطها، أو من حيث إبراز ما فى القرآن من إشراق وبعد مدى وقوة تلقين وتوجيه، أو من حيث روايات المناسبات وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ، أو من حيث التعليق على ما فيه من قصص وإيضاحها، أو من حيث شرح المذاهب الكلامية والفقهية وجدلياتها.

• • •

(١) من كتب التفسير التى اطلعت قراءة أو تصفحا على جميع أو بعض أجزائها والتفسير المعزو إلى ابن عباس رواية أبى صالح وباب التفسير فى البخارى وتفاسير الطبرى والنسفى وأبى السعود والطوسى والخازن والرازى والزمخشرى والطبرسى والبيضاوى والجوهرى وفريد وجدى ورشيد رضا والألوسى وأبى حيان وابن كثير والبغوى والقرطبى والمراغى والعادلى.

http://kotob.has.it

الفصل الرابع

نظرات وتعليقات على كتب المفسرين ومناهجهم

تمهيد

ومع ما ذكرناه فى صدد كتب المفسرين فإن الناظر فى كثير منها يلحظ ثغرات عديدة تنقص من قيمة تلك الفوائد التى احتوتها والجهود التى بذلت فيها قليلا أو كثيرا، وتجعلها غير شافية للنفس شفاء تاماً.

روايات أسباب النزول:

أولا: إن هناك روايات كثيرة فى أسباب النزول ومناسباته وقد حشرت فى كثير من كتب التفسير التى كتبت فى مختلف الأدوار لا تثبت على النقد والتمحيص طويلاً، سواء بسبب ما فيها من تعدد وتناقض ومغايرة أو من عدم الاتساق مع روح الآيات التى وردت فيها وسياقها ومغايرة أو من عدم الاتساق مع روح الآيات التى وردت فيها وسياقها بل ونصوصها أحيانا، ومع آيات أخرى متصلة بموضوعها أو موضحة لها أو عاطفة عليها، حتى أن الناقد البصير ليرى فى كثير من هذه الروايات أثر ما كان من القرون الإسلامية الثلاثة الأولى من خلافات سياسية ومذهبية وعنصرية وفقهية وكلامية قوى البروز، وحتى ليقع فى نفسه أن كثيرا منها منحول أو مدسوس أو محرف عن سوء نية وقصد تشويش وتشويه ودعاية ونكاية وحجاج وتشهير، أو قصد تأييد رأى على رأى، وشيعة على شيعة والمتبادر أنه لما كان عهد التدوين الذى راجت فيه الرواية تلقف المدونون من الأفواه الغث والسمين والصحيح والفاسد والمعقول وغير المعقول والملفق والمنحول والمحرف فدونوه وتناقلوه، وجعله المفسرون القديمون من عمد تفسيرهم، بل كان وظل الركن الأقوى والأوسع فى التفسير، فكان هذا التساهل من جانب المدونين أولا والمفسرين المتقدمين ثانيا باعثا على تسلسل الدور وانتقال الروايات من عهد إلى عهد من دون تحفظ أو تمحيص إلا قليلا حتى صارت كأنها قضايا مسلمة أو نصوص نقلية يجب الوقوف عندها والتقيد بها أو التوفيق بينها الخ، وأدى هذا إلى الوقوع فى أخطاء وتشويشات ومفارقات كثيرة، سواء كان فى صدد السيرة النبوية وأحداثها أو ظروف ما قبل البعثة، أو المفهومات والدلالات والأحكام القرآنية. ولقد كان هذا فى أحيان كثيرة مستنداً من مستندات أعداء العرب والإسلام المتعقبين لثغرات فيهم، فتمسكوا بكثير من الروايات الواردة فى التفسير مع ما هى عليه من وهن وتهافت، فأساءوا فهم القرآن وخلطوا فيه عن عمد أو غير عمد، شأنهم فى ذلك شأنهم فى التمسك بكثير من الروايات الواردة عن السيرة النبوية والبيئة النبوية وظروفها وما بعدها من

http://kotob.has.it

أحداث الحركة الإسلامية وظروفها وتاريخها والأمثلة على ذلك كثيرة جداً، وقد نبهنا عليها في سياق التفسير، وإليك بعضها على سبيل التمثيل والإيضاح:

(١) فقد نقل الخازن[١] في تفسير أوائل سورة التوبة عن محمد بن إسحاق ومجاهد وغيرهما أن النبي ﷺ أمر أبا بكر على الحج في أول حج بعد فتح مكة وبعث معه أربعين آية من سورة براءة ليقرأها على أهل الموسم، ثم بعث بعده عليا ليقرأ على الناس صدر براءة ويؤذن بمكة ومنى أن قد برأت ذمة الله وذمة رسوله من كل مشرك، وأن لا طواف بالبيت عريان، وأن أبا بكر رجع فقال يا رسول الله بأبي أنت وأمي أنزل في شأني شيء قال لا ولكن لا ينبغي أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلي، هذا بينما ورد في البخاري حديث عن أبي هريرة أن أبا بكر بعثه في الحجة التي أمره رسول الله ﷺ عليها في رهط يؤذن في الناس يوم النحر أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وفي الحديث الثاني تعارض مع الأول كما هو ظاهر، ولقد كان الحديث الأول موضع تأويل متقابل مع الشيعة والسنة، فالأولون احتجوا به لصواب مذهبهم لأنه مؤيد لحق علي في القيام مقام النبي بعده، وكون ما تم هو مخالف لتلقين النبي، والآخرون قالوا مقابل ذلك إنما بعث النبي ﷺ علياً في هذه الرسالة حتى يصلي خلف أبي بكر ويراد أنه تحت إمرته ويكون في ذلك تنبيه على إمامه أبي بكر بعد رسول الله ﷺ، وأن الأمير على الناس كان أبا بكر ولم يكن عليا وأن في هذا تقديما له عليه، ولم يكلف من هؤلاء وأولئك نفسه عناء البحث في متن الرواية، فإن ما احتواه حديث بعث النبي مع أبي بكر أربعين آية من صدر سورة براءة يجعل الحديث موضع نظر وتوقف لأن هذا العدد من صدر السورة احتوى مواضيع متنوعة ومنها ما نزل في شئون أخرى، ومنها ما هو متصل بسلسلة طويلة من هذه، بل ومنها ما نزل قبل الفتح المكي على ما ذكرته من روايات أخرى يؤيدها أو يقوم قرينة عليها نصوص بعض هذه الآيات، هذا فضلا عن رائحة التشاد الحزبي بين الشيعة والسنة القوية في الحديثين وما يمكن أن تعنيه من وضعهما لتأييد كل رأيه وتجريح رأي خصمه هجوماً ودفاعاً! ﷺ

(٢) وقد روى السدي عن الزبير على ما جاء في كشاف الزمخشري أنه قال إن آية ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ (الأنفال : ٢٥) نزلت فينا، وأنه كان يساير النبي ﷺ يوما فأقبل

---

(١) إن إشارتنا إلى كتب تفسير بعينها في هذا الفصل وغيره لا تعني أن عدا هذه الكتب خال من الثغرات التي ننبه عليها ونمثل لها. فإن أكثر ما اطلعنا عليه من هذه الكتب ينطوي على واحدة أو أكثر من هذه الثغرات، وبعضها ينقل عن بعض حرفيا وبعضها يعزو إلى بعض والقليل منها تعليق على ما يورده أو ينقله أو يعزوه وكثير منها يورد فيها بدون تعليق كأنما يتبناه أو ليس له اعتراض وتعليق عليه.

http://kotob.has.it

عليه فضحك له الزبير فقال رسول الله ﷺ كيف حبك لعلى فقال يا رسول الله بأبى أنت وأمى إنى أحبه كحبى لولدى أو أشد قال فكيف أنت إذا سرت إليه تقاتله. هذا فى حين أن الآية شديدة الانسجام مع سابقاتها ولاحقاتها، وأن السياق فى صدد تثبيت المسلمين وتذكيرهم وتحذيرهم وعظتهم على أثر التشاد الذى كان بينهم حول غنائم بدر وفى سبيل توطيد طاعة للنبى فى نفوسهم، وفى حين أنه لا يبدو قط أى اتساق وصلة بين الرواية والآية معنى أو موضوعا أو مدى، فضلا عما يلفت النظر فيها من أثر الفتنة التي نجمت مذ مقتل عثمان ومن عدم احتمال صدورهما عن الزبير لأن فيها إدانة له.

ومن هذا الباب روايات كثيرة فى أسباب نزول آيات كثيرة تضمن صرف الآيات إلى بعض الصحابة وتشم فيها رائحة الخلاف السني الشيعي ولا تتسق فى حال مع الآيات وظروف نزولها وسياقها، فقد روى بعض الشيعة رواية بأن آية ﴿والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون﴾ (الزمر : ٢٣) قد نزلت بحق على، وروى بعض السنيين رواية بأنها نزلت فى حق أبى بكر، والسياق يدل على أنها مع ما سبقها ولحق بها عامة متصلة بظروف الدعوة فى العهد المكى الذى لم يكن على فى أوائله إلا صبياً. ومن ذلك ما رواه بعض السنيين من أن آية ﴿يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ (الأنفال : ٦٤) قد نزلت عند إسلام عمر، ومن أن جملة ﴿وشاورهم فى الأمر﴾ (آل عمران) نزلت فى إيجاب مشاورة أبى بكر وعمر، مع أن آية الأنفال مدنية ومتصلة بظروف الجهاد فى العهد المدنى وجزء من سياق منسجم، وأن جملة آية آل عمران من آية يدل مضمونها نفسه على أنها متصلة بموقف بعض المسلمين والمنافقين فى ظروف وقعة أحد فضلا عن أنها جزء من سياق منسجم فى ظروف هذه الوقعة، ومن ذلك ما رواه الشيعيون من أن آية ﴿وقفوهم إنهم مسئولون﴾ (الصافات : ٢٤) قد نزلت فى الذين ينكرون حق على فى الولاية مع أن، السياق عام ومتصل بظروف الدعوة فى العهد المكى، وفيه حكاية عما يراه الكافرون والمؤمنون من المشاهد الأخروية ترهيبا وترغيبا.

(٣) وجاء فى البخارى عن أنس أن عمر بن الخطاب قال يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب، بينما جاء فى البخارى عن أنس أيضا أنه لما تزوج رسول الله زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام فلما قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبى ليدخل فإذا القوم جلوس ثم إنهم قاموا فانطلقت فأخبرت النبى بأنهم انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فالقى الحجاب بينى وبينه ﷺ وأنزل الله ﴿يا أيها الذين أمنوا لا تدخلوا بيوت النبى ... ﴾ إلى آخر آية (الأحزاب : ٥٣) وهى الآية التى ذكر فيها الحجاب والتى توصف بأنها آية الحجاب والتى نزلت بناء على مراجعة عمر كما جاء

http://kotob.has.it

فى الرواية الأولى، وجاء كذلك فى البخارى عن عائشة أن عمر بن الخطاب كان يقول لرسول الله أحجب نساءك فلم يفعل، وكانت أزواج النبى يخرجن ليلاً قبل المناصع[1] ، فخرجت سودة بنت زمعة وكانت امرأة طويلة فرآها عمر وهو فى المجلس، فقال عرفتك يا سودة حرصا على أن ينزل الحجاب قالت فأنزل الله آية الحجاب. وجاء فى البخارى أيضا عن عائشة قالت خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها فرآها عمر بن الخطاب فقال أما والله ما تخفين علينا فانظرى كيف تخرجين قالت فانكفأت راجعة إلى رسول الله فى بيتى وأنه ليتعشى وفى يده عرق فدخلت فقالت يا رسول الله خرجت لبعض حاجتى فقال عمر كذا وكذا قالت فأوحى الله إليه ثم رفع عنه وإن العرق فى يده ما وضعه فقال إنه أذن لكن أن تخرجن، فهذه أربعة أحاديث بخارية حول الحجاب، وثلاثة منها فى مناسبة نزول آية الحجاب فى سورة الأحزاب، وفيها ما فيها من التغاير فى هذه المناسبة وكل هذا فى حين أن الحجاب المذكور فى الآية يعنى الستر على باب البيت كما رواه أنس فى أحد أحاديثه السابقة وأمر الناس بأن يطلبوا ما يكون لهم من حاجات من زوجات النبى ﷺ من ورائه ولا يدخلوا عليهن بسبب ذلك كما أن الآية لم تنزل خاصة فى الحجاب حتى تسمى آيته كما يظهر ذلك لمن يمعن النظر فيها.

(٤) وروى الضحاك عن ابن عباس على ما جاء فى الخازن أن آية ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً ..﴾ الخ (المائدة : ٣٣) نزلت فى قوم من أهل الكتاب كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد وميثاق فنقضوا عهد الله وأفسدوا فى الأرض فخير الله رسوله ﷺ إن يشأ يقتل وإن يشأ يصلب وإن يشأ يقطع الأيدى والأرجل من خلاف حينما روى الكلبى عن ابن عباس أيضا أنها نزلت فى قوم هلال بن عويمر ذلك أن النبى ﷺ وادع هلالاً على أن لا يعينه ولا يعين عليه وأن من مر بهلال إلى النبى ﷺ فهو آمن، فمر قوم من بنى كنانة يريدون الإسلام بقوم هلال فشدوا عليهم فقتلوهم وأخذوا أموالهم فنزل جبريل بالقضاء فيهم بهذه الآية، وهذا وذاك فى حين أن رواية عن سعيد بن جبير تقول إن الآية نزلت فى قوم من عرينه وعكل أتوا رسول الله ﷺ وبايعوه على الإسلام وهم كذبة، فاستوخموا المدينة فبعثهم رسول الله إلى إبل الصدقة فارتدوا وقتلوا الراعى واستاقوا الإبل. فهذه ثلاث روايات فى سبب نزول آية كل منها مخالف للأخرى من حيث القصة وكل منها يفيد أن الآية نزلت مستقلة بسبب حادث معين، واثنتان منها على تخالفها مرويتان عن ابن عباس، مع أن الذى يمعن النظر فى سياق الآية يجدها غير منفصلة عن سياق السابق الذى يدور

---

[1] محلات الغائط.

http://kotob.has.it

الحديث فيه عن اليهود والتنديد بهم ويربط حاضرهم بماضيهم ، ثم يجد فى الآية التالية لها ما يدل على أن الذين هم موضوع الكلام ليسوا فى متناول يد النبى ﷺ وأن ما نسب إليهم إنما صدر منهم فى ظرف كفرهم، وأنها أمرت بقبول توبتهم أى إسلامهم إذا تابوا قبل أن يقعوا فى متناول يد النبى ويجد السياق التالى لها متصلا بالسياق السابق أيضا (الآيات ٣٢ -٣٧ المائدة).

ولقد روى البخارى حديثا عن أنس بن مالك فى قصة عرب عكل وعرينه التى ذكرت فى الرواية المعزوة إلى سعيد بن جبير جاء فيه أن النبى ﷺ سمر أعينهم وكواها بأسياخ النار وقطع أيديهم وأرجلهم وتركهم فى ناحية الحرة حتى ماتوا، ولم يرد فى هذا الحديث أن الآية نزلت فيهم كما أنها لا تحتوى تسمير العينين، ومحال أن يخالف النبى نص الآية لو أنها نزلت فيهم.

روايات التفسير :

ثانيا: إن هناك أولا تفسيرا كاملا معزوا إلى ابن عباس رواية أبى صالح عن الكلبى احتوى تفسيرات لغوية وكثيرا من أسباب النزول وتأويلات للقصص والتعابير والمشاهد والأوصاف القرآنية وتعليقات عليها، وثانيا أقوالا كثيرة جدا فى كتب التفسير معزوة إلى ابن عباس منها ما ورد فى ذلك التفسير ومنها ما لم يرد، واحتوت هى الأخرى تفسيرات لغوية وأسباب نزول وتأويلات للقصص والتعابير والمشاهد والأوصاف القرآنية وتعليقات عليها وثالثا أقوالا كثيرة جدا كذلك فى كتب التفسير معزوة إلى علماء من التابعين وتابعى التابعين أمثال مجاهد والضحاك وقتادة والحسن البصرى وعكرمة وسعيد ومسروق ومحمد القرظى وسفيان بن عيينه وعطاء الخ فيها كذلك تفسيرات لغوية وأسباب نزول وتعليقات وتأويلات بل وهناك روايات عن كتب تفسير معزوة إلى بعض هؤلاء مثل مجاهد والضحاك وقتادة وسفيان، وقد وصف السيوفى ما ورد عن ابن عباس من روايات تفسيرية بكلمة "لا تحصى" دلالة على كثرته، وذكر أن عدد مثل هذه الروايات المروية عن الصدر الأول قد بلغ بضعة عشر ألفا، والأرجح أن هذا العدد لا يشمل ما يرويه الشيعة بطرقهم وشروطهم الخاصة التى يستقيم كثير منها عند السنيين ولا يحتجون بها والتى ربما بلغ عددها نفس العدد أو زاد، وكثير من الأقوال المنسوبة إلى هذا الصدر ومن يليه يصح عليها ما قلناه فى الفقرة السابقة من أنه لا يثبت على النقد والتمحيص للأسباب التي ذكرناها هناك، ومن حيث ما يقع فى النفس من تلقفها من الأفواه وتدوينها فى عهد رواج الرواية فاختلط حابلها بنابلها وغثها بسمينها وصحيحها بباطلها، وظهر على كثير منها أثر تلك الخلافات السياسية والحزبية والكلامية والمذهبية والعنصرية، ومن حيث ما يقع فى النفس من قصد التشويش والتشويه فى بعضها ما هو أدخل فى باب الخرافة منه في باب الحقيقة أو الاحتمال كما أن كثيرا منها لا يصح تصديق صدوره عن صحابة وتابعين وتابعى تابعين وخاصة

http://kotob.has.it

عن علمائهم الأجلاء المشهورين فى سلامة المنطق والفهم والذكاء والدراية والورع. ويؤيد هذا قـول الإمام الشافعي بأنه لم يثبت عن ابن عباس مما عزي إليه من روايات التفسير إلا نحو مائـه، بينمـا المنسوب إليه يبلغ بضعة آلاف، ويؤيده كذلك موقف الإمام الحنبلي من هذه الروايات حيـث يسـلك روايات التفسير المعزوة إلى الصحابة والتابعين- وكل ذلك مما يدخل فى شمول كتب الحديث- فـى سلك روايات الملاحم والمغازي من حيث غلبة احتمال تسرب الأخطاء والمبالغات وعدم صحة السند فيقول إنها لا أصل لها.

ومع ذلك فقد صارت هي الأخرى من عمد المفسرين القديمين وكتبهم وانتقلت من دور إلى دور حتى استفاضت فى كتب التفسير جميعها تقريباً وغدت نصوصاً نقلية يوقف عندها ويتقيـد بـها بـل ويحتج بها سبب مكانة المصدر الذى نسبت إليه بدءاً، ولم تحظ إلا بقليل من النقد والتمحيص، بل وأن ما جرح منها ظل ينتقل من دور إلى دور ويستفيض فى كتب التفسير، ويورد فى سياق الآيات مـن جملة الأقوال والتأويلات، ومنها ما لا يذكر جرحه، ولقد جرح بعض علماء القرآن والرواية روايـة ابن الكلبي بل سماه بعضهم الكذاب، ولكن كثيراً مما رواه أخذه المفسرون القدماء وتنوقل عنـهم دوراً بعد دور، منه ما ذكر راويه ومنه ما لم يذكر، ودخل كذلك فى عداد النصوص المروية التى يوقـف عندها ويتقيد ويحتج بها، وهذا شأن كثير من الروايات المجروحة أيضاً ، فأدى ذلك كله إلى أخطـاء وتشويشات وتشويهات ومفارقات ومجادلات كثيرة، وكان وسيلة من وسائل غمز الأغيار والبـاحثين المستشرقين وطعنهم أيضاً كما كان ذلك فى روايات الأسباب والمناسبات على ما ذكرناه قبل والأمثلة على ذلك كثيرة جداً نورد بعضها فيما يلى للتمثيل والإيضاح:

(١) ففى تفسير سورة القلم من تفسير ابن عباس المذكور أن النون هو السـمكة التـى تحمـل الأرضين على ظهرها، وهى فى الماء وتحتها الثور وتحت الثور صخرة وتحت الصخرة الـثرى ولا يعلم ما تحت الثرى إلا الله.

- كأن هذا من العلم الذى عرفه البشر وأن اسم السمكة ليواش ويقال ليوتي واسم الثور يلهموت ويقال يلهوى ويقال ليوثا، وهى فى بحر يقال له عصواص وهو كالصور الصغير فى البحر العظيـم، وهذا البحر فى صخرة جوفاء، وفي هذه الصخرة أربعة آلاف خرق يخرج منـها المـاء. وقـد وردت هذه الأقوال بعينها أو مزيداً عليها أو مبدلة بعض الشيء فى كتب عديدة من كتب التفسـير منها ما عزى إلى ابن عباس عن أبي صالح عن الكلبي ومنها ما لم يذكر راوية ومصدره.

(٢) وقد صرفت كلمة "ربك" فى هذا التفسير فى جملة "اذهب أنت وربك فقاتلا" إلى هارون.

http://kotob.has.it

(٣) ولقد علق فيه على جملة ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ بأن الله قد صور آدم بين مكة والطائف.

(٤) وقد صرف فيه المقصود من آيتي الأعراف ﴿هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون﴾ (١٨٩ - ١٩٠) إلى آدم وحواء وروى فيه أنهما جعلا لله شركاء فيما آتاهما حيث سمى أحد أولادهما عبد الله والآخر عبد الحارث. وقد ورد هذا القول فى الخازن عن ابن عباس بغير ذكر الكلبي بهذا النص: كانت حواء تلد لآدم أولاداً فيسميهم عبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن فيصيبهم الموت فأتاهما إبليس فقال إن سركما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحرث - يعنى نفسه - فولدت ولد فسمياه كذلك فعاش!

(٥) وذكر فيه نسب نمروذ وهكذا: نمروذ بن كنعان بن سنحاريب بن كوش.

(٦) وعلق فيه على جملة " فيها من كل شيء موزون" كل شيء يوزن مثل الذهب والفضة والحديد والصفر والنحاس.

(٧) وفسرت فيه كلمتا "تمنى" و"أمنية" الواردتان فى آي الحج ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته﴾ (٥٢) بمعنى قرأ وقراءته فكان هذا التفسير من أركان الأقوال والروايات التي قبلت ورويت فى قصة الغرانيق وكون الشيطان هو الذى أجرى على لسان النبي الجملتين "وتلك الغرانيق العلى. وأن شفاعتهن لترتجى" فى أثناء تلاوة سورة النجم فى صلاة أقامها بالمؤمنين فى فناء الكعبة، وكون آيات الحج هى بسبيل تلك العبارات والتنبيه على إنها من القاء الشيطان، مما كان مثار أخذ ورد ومغامز ومطاعن، فى حين أن عبارات آيات (الحج : ٥٢ - ٥٤) وروحها وسياقها لا يتسق مع ذلك التفسير ولا مع تلك الأقوال قط على ما فصلناه فى سياق تفسيرها[١]، فضلاً عما هناك من رواية تفيد أن هذه الآيات نزلت على النبى ﷺ بطريق هجرته إلى المدينة.

(٨) وقد أولت فيه آيات زواج النبي بمطلقة متبنية الواردة فى سورة الأحزاب تأويلاً تنزه رسول الله عنه من عشقه لزينب ومخادعته لزيد كان مثار أخذ ورد ومغامز ومطاعن أيضاً فى حين أن

[١] اقرأ أيضاً كتاب سيرة الرسول الجزء الأول ففيه بحث وتمحيص.

http://kotob.has.it

عبارة الآيات وظروفها تناقض هذا التأويل. كما فصلناه كذلك في سياق تفسيرها[٢].

(٩) ومما نقل عن ابن عباس من غير طريق ابن الكلبي وأشرك معه غيره من الصحابة والتابعين ما نقله الخازن عن قصة هاروت وماروت العجيبة والشائقة معا، حيث جاء فيها أنهما كانا أعبد الملائكة وأنهما عيرا الله فى خلقه البشر على عصيانهم وأن الله قد تحداهما أن يثبتا إذا ركب فيهما طبائع البشر، وأنهما لما انقلبا بشرا زنيا وشربا الخمر وقتلا النفس وسجدا للأصنام وأساءا استعمال اسم الله الأعظم الخ بتفصيل طويل، مما لا يتسق مع منطق من جهة وفيه ما فيه من موقف نحو الله من جهة أخرى. ولقد صارت هذه القصة وسيلة لجدل كلامي في عصمة الملائكة، واحتج القائلون بعدمها بالقصة كحجة نقلية مروية بألفاظ متقاربة عن ابن عباس وعلى ابن أبى طالب وابن مسعود وكعب الأحبار والسدي والربيع ومجاهد.

(١٠) ومن ذلك أن لحملة العرش قرونا وأن ما بين أخمص أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام ومن كعبه إلى ركبته مسيرة خمسمائة عام ومن ترقوته إلى موضع القرط منه مسيرة خمسمائة عام.

(١١) وروى الكشاف عن عكرمة فى تأويل ﴿كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه﴾ أن هذا مثل ضربه الله لبدء الإسلام وترقيه فأخرج شطأه بأبى بكر وآزره بعمر واستغلظ بعثمان واستوى على سوقه بعلى. وأثر المقالات الخلافية فى ترتيب الخلفاء الراشدين ظاهر القول.

(١٢) وروى الكشاف معزوا إلى الحسن فى صدد خلق الأرض والسماء أن الله خلق الأرض فى موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان ملتزق بها ثم اصعد الدخان وخلق منها السماوات وأمسك النهر فى موضعه وبسط منه الأرض فذلك قوله ﴿كانتا رتقا ففتقناهما﴾

(الأنبياء : ٣٠)

(١٣) وروى الخازن معزوا إلى عبد الله بن عمر أن الذين يحملون العرش ما بين سوق أحدهم إلى مؤخر عينيه خمسمائة عام.

---

[٢] أقرأ أيضا كتاب سيرة الرسول الجزء الأول ففيه بحث وتمحيص.

http://kotob.has.it

(١٤) وروى الخازن أيضاً معزواً إلى عروة بن الزبير أن من حملة العرش من صورته على صورة الإنسان ومنهم من صورته على صورة النسر ومنهم من صورته على صورة الثور ومنهم من صورته على صورة الأسد.

(١٥) وروى أيضاً معزواً إلى نوفل البكالى فى وصف السلسلة التى ذكرت فى سورة الحاقة ﴿ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾ (٣٢) أن كل ذراع سبعون باعاً وكل باع أبعد ما بينك وبين مكة وكان هو فى رحبة الكوفة.

(١٦) ورويت روايات شيعية عن مقاتل عن أبي عبد الله أنه وجد فى كتاب على بن أبي طالب أن آدم لما هبط إلى الأرض كانت رجلاه بثنية الصفا ورأسه دون أفق السماء وأنه شكا لله حرارة الشمس فأوحى إلى جبريل أن اغمزه فغمزه فصير طوله سبعين ذراعاً بذراعه ثم غمز حواء غمزة فصير طولها خمسة وثلاثين ذراعاً بذراعها. وقد رأينا تعليقاً على رواية تقصير آدم وحواء لمؤلف شيعى آخر حاول فيه أن يعلل أذى الشمس بأن حرارتها تكون من غير جهة الانعكاس وتكون قامة آدم طويلة بحيث تتجاوز طبقة الزمهرير ثم أيد صحة طول آدم واحتمال تأذيه من حرارة الشمس بقصة عوج بن عناق فذكر كيف كان يأخذ السمكة من قاع البحر ويشويها فى عين الشمس، ولم يكتف المؤلف بهذا فقد أخذ يورد احتمالات ووجوهاً من طرائفها أن جبريل غمز آدم فجعله سُبْعَين لا سبعين وغمز حواء فجعلها خُمْسَين وثلثى الخمس لا خمسة وثلاثين، وأن من المحتمل أن يكون الناقل وهم فى القراءة.

(١٧) وجاء فى تفسير القرطبي معزواً على ابن عباس أنه كان يوضع لسليمان ستمائة كرسي ثم يجيء أشراف الإنس فيجلسون مما يليه ثم يأتي أشراف الجن فيجلسون مما يلى الإنس ثم يدعو الطير فتظلهم ثم يدعو الريح فتقلهم وتسير بالغداة الواحدة مسيرة شهر.

(١٨) وجاء فيه معزواً إلى جابر بن عبيد الله إلى النبي ﷺ أنه كان نقش خاتم سليمان بن داود "لا إله إلا الله محمد رسول الله".

(١٩) وجاء فيه أيضاً معزواً إلى الحسن أن الجياد المذكورة فى قصة سليمان فى سورة ص ﴿إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد﴾ (٣١) خرجت من البحر لها أجنحة، ومعزوا إلى الضحاك أنها كانت منقوشة ذات أجنحة، ومعزواً إلى على أن الشيطان أخرجها مجنحة من مروج البحر وكانت عشرين فرساً.

(٢٠) وفى الخازن عن البغوي عن الثعلبي عن كعب الأحبار أن موسى نظر فى التوراة فقال إنى أجد أمة هي خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب

http://kotob.has.it

الأول والآخر ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلون الأعور الدجال، رب اجعلهم أمتي قال هي أمة محمد يا موسى. قال رب إني أجد أمة هم الحمادون المحكمون إذا أرادوا أمرا قالوا نفعل إن شاء الله فاجعلهم أمتي قال هي أمة محمد. قال رب إني أجد في التوراة أمة يأكلون كفاراتهم وصدقاتهم- وكان الأولون يحرقون كفاراتهم بالنار- وهم المستجيبون والمستجاب لهم والشافعون والمشفوع لهم فاجعلهم أمتي. قال هي أمة محمد. ويستمر الكلام فيتناول بضع صور أخرى من هذا القبيل. ونقول بهذه المناسبة إن المفسرين كثيراً ما نقلوا عبارات وجملاً على أنها واردة في التوراة والإنجيل ومنها ما يشبه بعض آيات وعبارات القرآن، ويعزون ذلك إلى كعب الأحبار أو عبد الله بن سلام أو ابن عباس أو بعض التابعين. ومن جملة ذلك ما رواه البيهقى عن ابن عباس أن سورة الكهف تسمى فى التوراة الحائلة، وسورة يس المعمة كأنما كل سورة فى القرآن لها ما يقابلها أو لها ذكر فى التوراة.

(٢١) وجاء فى الخازن أن سعيداً بن جبير قال عن ألواح موسى إنها من ياقوتة حمراء، وإن الكلبي قال إنها من زبرجدة خضراء، وإن ابن جريج قال إنها من زمرد وإن الله أمر جبريل فجاء بها من جنة عدن وكتبها بالقلم الذى كتب به الذكر واستمد- أى أخذ الحبر- من نهر النور، وأن الربيع بن أنس قال إن الألواح كانت من زبرجد، وأن وهباً قال : إن الله أمر جبريل فقطعها من صخرة صماء عينها له ثم شقها الله بإصبعه وسمع موسى صريف الأقلام بالكلمات العشر وكان ذلك أول يوم من ذى الحجة، وكان طول الألواح عشرة أذرع على طول موسى واختلفوا فى عدد الألواح فروى عن ابن عباس أنها كانت سبعة وروى عنه رواية أخرى أنها لوحان ورجحه الفراء وقال إنما جمعت على عادة العرب فى إطلاق الجمع على الاثنين، وإن وهباً قال إنها عشرة وإن مقاتلاً قال إنها تسعة، وإن الربيع بن أنس قال إنها كانت وقر سبعين بعيراً يقرأ الجزء منها فى سنة ولم يقرأها إلا أربعة نفر موسى ويوشع وعزير وعيسى.

(٢٢) وجاء فى الخازن عن الربيع بن أنس أن درجات الجنة سبعون ما بين الدرجتين حضر الفرس المضمر سبعين سنة.

(٢٣) وجاء فيه عن ابن مسعود أن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام وما بين كل سماء وسماء خمسمائة عام وفضاء كل سماء وأرض خمسمائة عام وما بين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام وما بين الكرسي والماء خمسمائة عام والعرش على الماء والله على العرش. وهناك خبر عن ابن عباس أن المسافة؟.

فحاول أحد المفسرين التوفيق بين القولين فقال إن الخلاف فى قدر المسافة على اختلاف سير الدواب.

http://kotob.has.it

(٢٤) وجاء فيه معزوا إلى ابن عمر أن السور الذى ذكر فى القرآن ﴿فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾ (الحديد : ١٣) هو سور بيت المقدس الشرقي باطنه فيه المسجد وظاهره من قبله العذاب وادي جهنم.

وهذا قليل جداً من كثير جداً مما ورد من هذا الباب معزواً مثل ما تقدم إلى صحابة وتابعين عن الخلق والتكوين والقصص وتأويل الآيات والأحداث المتصلة بالسيرة النبوية وظروف الدعوة.

وهذا غير ما روي من روايات تأويلية وتفسيرية كثيرة جداً فى كتب السنة والشيعة معزوة إلى صحابة أو تابعين ممن عرفوا العلم والدراية والورع وسلامة المنطق متناقضة من جهة ويبرز فيها أثر الخلافات الحزبية والمذهبية والسياسية بروزاً واضحاً من جهة أخرى. وفى كل هذا ما هو ظاهر من الأغراب والتخمين بل والتخريف وعدم الاتساق مع مرامي الآيات ومضمونها وظروفها، ودلائل الجهل بحقائق الكتب المنزلة ومحتوياتها وبما هو معروف إذ ذاك من الحقائق العلمية والتاريخية والجغرافية مما يشوش على الراغب فى تفهم القرآن، ويجعل القرآن عرضه للحجاج والجدل والأخذ والرد، ويشوه أسماء كثير من أصحاب رسول الله وتابعيهم، ويجعل المسلم يقف موقف الحيرة والبلبلة مما نقل عنهم.

تعليقات المفسرين على القصص :

ثالثاً إن كثيراً من المفسرين قد ولعوا بالتعليق على ما ورد فى القرآن من قصص ولعاً كبيراً تجاوزوا فيه حدود الروايات المنسوبة إلى الصحابة والتابعين على علات كثير من هذه الروايات، وجالوا فى ساحات التخمين والتخرص والتكلف والتزيد والمبالغة جولات مسهبة حيناً وموجزة حيناً آخر، ومنسوبة إلى رواة من غير تلك الطبقة بالأسماء حيناً وبدون أسماء حيناً وصادرة عنهم أو موهمة أنها كذلك حينا آخر، حتى ليقع فى نفس القارئ من فحوى عباراتهم وأساليب إيرادهم أحياناً أنهم يعنون أن القصص القرآنية أو بعضها على الأقل وقد وردت فى القرآن لذاتها، وبقصد الأخبار والماهيات والحقائق أكثر من قصد العظة والتذكير، وكثير مما أوردوه لا يتفق مع دلالات الآيات ولا تتحمله أهدافها ولا تقتضيه عبارات كما فيه مفارقات كثيرة وما هو أدخل فى باب الخرافة منها فى باب الحقائق. وإليك بعض الأمثلة من ذلك للتمثيل والإيضاح :

(١) فهذه سلسلة مما ورد عن ذي القرنين ويأجوج ومأجوج منقولة عن الخازن وأبى السعود والبيضاوي والكشاف، وأكثرها بتعبير روي وقيل، وأحياناً بدون ذلك، وقليل منهم معزو لقائل معين :

١- إن الله إنما ذكر ذا القرنين لأن حكمته شاءت تخليد اسمه فى القرآن على مر الدهور لما بلغه من عظم السلطان وسعة الملك.

http://kotob.has.it

٢- إن ذا القرنين دخل الظلمة فى طلب عين الحياة، وإن الخضر كان من رجال جيشه فوقع على العين فاغتسل وشرب منها.

٣- إن عمر ذي القرنين ألف وثلاثون سنة.

٤- وقال ابن جريج كان عند العين الحمئة مدينة يقال لها الجاسوس لها اثنا عشر ألف باب وسكانها من نسل ثمود الذين آمنوا بصالح، ولولا ضجيج أهلها لسمع الناس وجيب الشمس حين تغيب.

٥- إن يأجوج أمة ومأجوج أمة، وكل أمة أربعة آلاف أمة. ولا يموت الرجل منهم حتى يرى من صلبه ألف رجل قد حمل السلاح، وهم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الأرز شجر بالشام طوله عشرون ومائة ذراع، وصنف منهم عرضه وطوله سواء عشرون ومائة ذراع وهؤلاء لا يقوم لهم جبل ولا حديد، وصنف منهم يفترش أحدهم أذنه ويلتحف بالأخرى، ولا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه،ومنهم من طوله شبر. وقال كعب إن آدم احتلم ذات يوم وامتزجت نطفته بالتراب فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج، فهم متصلون بنا من جهة الأب دون الأم.

٦- كان لذي القرنين قرنان فأمر قومه بتقوى الله فضربوه على قرنه الأيمن فمات فأحياه الله ثم بعثه فأمرهم بتقوى الله فضربوه على قرنه الأيسر فمات فأحياه الله.

٧- سخر الله لذي القرنين السحاب فحمل عليه، ومد له الأسباب وبسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء وخاطبه قائلا إني باعثك إلى أمم مختلفة ألسنتهم، منهم أمتان بينهما طول الأرض إحداهما عند مغرب الشمس يقال لها ناسك والأخرى عند مطلعها يقال لها منسك، ومنهم أمتان بينهما عرض الأرض إحداهما فى القطر الأيمن يقال لها هاويل والأخرى فى قطر الأرض الأيسر يقال لها تأويل، ومنهم أمم فى وسط الأرض منهم الجن والأنس ويأجوج ومأجوج فقال بأى قوة أكابدهم وبأى جمع أكاثرهم وبأى لسان أناطقهم، فقال الله إني سأقويك وأبسط لسانك وأشد عضدك فلا يهولنك شيء ، وإليك الهيبة فلا يروعنك شيء وأسخر لك النور والظلمة وأجعلهما من جنودك. فالنور يهديك من أمامك والظلمة تحوطك من ورائك.

٨- إنه الإسكندر الذي ملك الدنيا. وقيل ملكها مؤمنان وهما ذو القرنين وسليمان وكافران وهما نمرود وبختنصر.

٩- قيل إنه كان عبدا صالحا ملكه الله الأرض وأعطاه العلم والحكمة وسخر له النور والظلمة، فإذا سرى يهديه النور من أمامه وتحوطه الظلمة من ورائه. وقيل كان نبيا وقيل كان ملكا من

http://kotob.has.it

الملائكة. وعن علي أنه ليس بملك ولا نبي ولكنه عبد صالح ضرب على قرنه الأيمن في طاعة الله فمات ثم بعثه الله فضربه على قرنه الأيسر فمات فبعثه الله فسمي ذا القرنين، وإن فيكم لمثله. وعلق المفسر قائلاً إن علياً أراد نفسه.

١٠-أن معاوية قرأ جملة "عين حمئة" "عين حامية" فقرأها ابن عباس "عين حمئة" فقال معاوية لعبد الله بن عمر كيف نقرؤها فقال كما يقرأ أمير المؤمنين، ثم إن معاوية وجه إلى كعب الأحبار كيف تجد الشمس تغرب فى التوراة قال فى ماء وطين فوافق قول ابن عباس.

(٢) وهذه سلسلة أخرى فى سياق قصص موسى وفرعون وبني إسرائيل وسليمان منقولة عن الكشاف. وقد وردت فى كتب تفسير أخرى مقاربة أو نصاً كما جاءت فى الكشاف :

١- قيل إن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطاً تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله أن يفرق بينهم وبين إخوانهم ففتح الله لهم نفقاً فى الأرض فساروا فيه سنة ونصفاً حتى خرجوا من وراء الصين، وهم هناك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا. وذكر عن النبي أن جبريل ذهب به ليلة الإسراء نحوهم فكلمهم فقال لهم جبريل هل تعرفون من تكلمون قالوا لا قال هذا محمد النبي الأمي فآمنوا به؛ ثم قالوا يا رسول الله إن موسى أوصانا من أدرك منكم أحمد فليقرئه مني السلام فرد محمد على موسى السلام، ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة ولم تكن نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة وأمرهم أن يقيموا مكانهم، وكانوا يسبتون فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت.

٢- روى أن معسكر سليمان كان مائة فرسخ فى مائة. خمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للأنس وخمسة وعشرون للطير وخمسة وعشرون للوحش، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمائة زوجة وسبعمائة سرية، وقد نسج له الجن بساطاً من ذهب وإبريسم فرسخاً فى فرسخ، وكان منبره يوضع فى وسطه، وهو من ذهب فيقعد عليه وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب وفضة فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة، وحولهم الإنس وحول الإنس الجن والشياطين، وتظللهم الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليهم الشمس، وترفع الريح البساط فتعبر به مسيرة شهر في يوم وأن الله أوحى إليه مرة وهو يسير بين الأرض والسماء إني قد زدت فى ملكك فلا يتكلم أحد بشيء إلا ألقته الريح فى سمعك، فيحكي أنه مر بحراث فقال لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً فألقته الريح فى أذنه فنزل ومشى إلى الحراث وقال إنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه. وكان من أمره أن سمع كلام النملة من ثلاثة أميال. وقد ذكر بعض المفسرين في سياق

http://kotob.has.it

هدهد سليمان أنه كان مكلفاً بالتنقيب عن مواضع المياه للجيوش اللجبة التي تسير مع سليمان لأن الأرض فى عيني الهدهد ككرة من زجاج شفاف يري ظاهرها وباطنها.

٣- كانت عند شعيب عصي الأنبياء ، فأمر موسى أن يدخل ويأخذ له عصا ، فوقعت يده على عصاه وكان آدم هبط بها من الجنة ولم يزل الأنبياء يتوارثونها، فضن بها على موسى وألقاها بين العصي أولاً وثانياً وثالثاً إلى السابعة وكانت فى كل مرة تقع فى يده فوقع فى نفس شعيب أن له شأناً فأعطاها له.

٤- أرسل فرعون خلف بني إسرائيل ألف ألف وخمسمائة ألف ملك، ومع كل ملك ألف ، وخرج فرعون فى جمع عظيم، وكانت مقدمته سبعمائة ألف كل رجل على حصان وعلى رأسه بيضة. وعن ابن عباس أن فرعون خرج فى ألف ألف حصان سوى الإناث ، وهذا سبب استقلاله قوم موسى وقوله عنهم ﴿إنهم لشرذمة قليلون﴾ ، (سورة الشعراء) مع أن عددهم ستمائة ألف وسبعون ألفا.

٥- أن بلقيس كانت من الجن، وإن الجن خشوا أن يتزوجها سليمان فيجتمع فى ابنه منها فطنة الإنس والجن، فدسوا له عنها وشنعوا له سيقانها فامتحنها بالصرح الممرد ، ولما ظهرله كذبهم استنكحها وكان يزورها فى الشهر مرة.

٦- حينما كانت العصا تنقلب ثعباناً فى يد موسى كان يبدو أنه ثعبان ذكر أشعر فاغراً فاه بين لحييه ثمانون ذراعاً ؛ وقد وضع حينما ألقاه بين يدي فرعون لأول مرة لحيه الأسفل فى الأرض ولحيه الأعلى على سور القصر ثم توجه نحو فرعون ليأخذه فوثب من سريره وهرب وأحدث ولم يكن أحدث قبل ذلك، وهرب الناس وصاحوا، وحمل على الناس فانهزموا فمات منهم خمسة وعشرون ألفان وقتل بعضهم بعضاً.

٧- كان عدد السحرة سبعين ألفاً وقيل ثمانين ألفاً وقيل بضعة وثلاثين ألفاً.

٨- فى الجزء الخامس عشر من تفسير القرطبي المعروف بجامع أحكام القرآن اثنتان وثلاثون صحيفة فى تفسير الآيات الواردة فى سورة ص عن داود محشوة حشواً عجيباً بالقصص عن داود وسليمان، والأقوال التى تدور حول هذه القصص، وفيها من الأغراب ما يثير الدهشة. منها ما جاء فى صدد توبة داود معزواً إلى عطاء الخراساني أن داود سجد أربعين يوماً حتى نبت المرعى حول وجهه وغمر رأسه فنودي أجائع فتطعم وعار فتكسى فنحب نحبة هاج المرعى من حر جوفه فغفر له وستر بها ذنبه ؛ فقال يارب هذا ذنبي فيما بيني وبينك قد غفرته فكيف بفلان وكيف بفلان وكذا وكذا رجلا من بني إسرائيل تركت

http://kotob.has.it

أولادهم أيتاماً ونساءهم أرامل، قال يا داود لا يجاوزني يوم القيامة ظلم أمكنـه منـك ثـم أستوهبك منه بثواب الجنة.ثم قيل يا داود ارفع رأسك فذهب ليرفع رأسه فإذا به قد نشـب في الأرض فأتاه جبريل فاقتلعه عن وجه الأرض كما يقتلع من الشـجرة صمغـها . رواه الوليد بن مسلم عن ابن جابر عن عطاء. قال الوليد وأخبرني منير بن الزبير قـال فلـزق مواضع مساجده على الأرض من فروة وجهه ما شاء الله .. وقال وهب إن داود نودي إني قد غفرت لك فلم يرفع رأسه حتى جاءه جبريل فقال لم لا ترفع رأسك وربك قد غفر لـك. قال يا رب كيف وأنت لا تظلم أحداً فقال الله لجبريل اذهب إلى داود فقل له يذهب إلى قبر أوريا فيتحلل منه فأسمعه نداءه فلبس داود المسوح وجلس عند قبر أوريا ونادي يا أوريـا فقال لبيك من هذا الذي قطع على لذتي وأيقظني، فقال أنا أخوك داود أسألك أن تجعلني فى حل، فإني عرضتك للقتل قال عرضتني للجنة فأنت فى حل. وفى الخبر وكان داود يقعـد على سبعة أفرشة من الليف محشوة بالرماد فكانت تستنقع دموعه تحت رجليه حتى تنفذ من الأفرشة كلها، وكان إذا جاء يوم نواحه نادي مناديه فـى الطـرق والأسـواق والأوديـة والشعاب وعلى رؤوس الجبال وأفواه الغيران إلا أن هذا يوم نواح داود فمن أراد أن يبكي على ذنبه فليأت داود فيسعده فيهبط الناس من الغيران والأودية وترتج الأصـوات حـول منبره والوحوش والسباع والطير عكف وبنو إسرائيل حوله فإذا أخذ فى العويـل والنـواح وأثرت الحرقات منابع دموعه صارت الجماعة ضجة واحدة نوحاً وبكاء حتى يموت حـول منبره بشر كثير فى مثل ذلك اليوم.. وفى هذا الجزء من تفسير القرطبـي أربـع عشـرة صحيفة أخرى محشوة بمثل هذه الأقوال فى سياق الآيات الواردة فى سورة ص كذلك عـن سليمان تثير الدهشة فى أغرابها وتفصيلاتها وخاصة فى وصف كرسي سـليمان وانتقـال موكبه بواسطة الريح وشياطينه المسخرة والمصفدة والبنائين والغواصين وخـاتم سـليمان والجسد الذى ألقى على كرسيه ونسائه منها ما هو معزو إلى رواة ومصادر معينة ومنها ما هو مروى بصيغة المجهول مما يطول الأمر بنقله.

وهذا الذى نقلناه غيض من فيض وقطرة من بحر مما أورده المفسرون فى سياق القصـص القرآنية. ولقد كان أمرهم أن استغرقوا فيها حتى صاروا يحاولون التوفيق بين مختلف الروايـات الواردة فيها والجدل فى ذلك بالإضافة إلى محاولات التوفيق والتلفيق والتأليف بين ما جاء فيـها وبين ما يبدو من مناقضة العبارات القرآنية لبعض ما فيها أو لما يجب من حـق الله والأنبيـاء والملائكة ويضاف إلى هذا محاولتهم أخذ بعض الأحداث القصصية كحجة لأحكام فقهيـة فـى

http://kotob.has.it

الإسلام مثل ما فعلوا فى قصة أيوب واستنباط جواز الحيلة فى التحلل من اليمين لأن القصة احتوت أمراً لأيوب بضرب زوجته بضغث من حشيش بدلاً من جلدها بالسوط مائة مرة كما أقسم ، ومثل تجويز أن تكون أجرة الراعي صداقاً وعدم تعيين البنت التى أجر موسى نفسه مقابل نكاحها فى قصة موسى وشعيب. هكذا كاد القرآن يخرج من نطاق قدسيته من الموعظة والدعوة والتذكير إلى نطاق بحوث فى التاريخ والوقائع المروية وفى نطاق هذه الروايات العجيبة التى أوردت على هامش القصص القرآنية والتى لا يتفق كثير منها مع ما ورد فى القرآن منها، ويتعرض بذلك إلى الأخذ والرد والنفي والإثبات والجدل والتصويب والتخطئة ، بل ويدخل محتويات بعض قصصه مثل قصص آدم وإبليس ويوسف مع امرأة العزيز وموسي فى طلبه رؤية الله وفى قتله القبطي، والملائكة فى مراجعتهم الله فى شأن خلقه آدم فى نطاق الجدل بين أصحاب المذاهب الكلامية من نواح متعددة تخطئة وتصويباً وتخريجاً وتأويلاً، كما يدخل محتويات بعض قصصه مثل حقيقة واسم مؤمن آل فرعون وإيمان امرأة فرعون، وحقيقة الذبيح، والدراهم التى بيع بها يوسف والأذى الذى أوذي به موسى وأسماء أهل الكهف وكلبهم، وأسماء امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون والذي أماته الله هو وحماره ثم بعثه وعفريت سليمان والذي عنده علم الكتاب والذى اشترى يوسف وامرأته وفرعون والغلام الذي قتله العبد الصالح وأبويه والغلامين اليتيمين ورهط قوم صالح وعاقر الناقة وابن لقمان والشيطان الذى ألقى على كرسي سليمان وشيطان أيوب ونفر الجن الذين استمعوا القرآن الخ الخ فى نطاق البحث والنقاش واستنباط حقائق التاريخ لذاتها، وإيراد الأقوال والروايات فى هذه الشئون التى فيها كثير من التكلف والمفارقات والتخمين والإغراب والتخريف، مما هو منبث بكثرة فى كثير من كتب التفسير ، ومما يجعل المرء يندهش ويحار من روايتها وإيرادها من قبل علماء أعلام وجوازها عليهم، ومما ظل أثره مستمراً متمكناً إلى عصرنا هذا، حيث كان كثير من هذه القصص بالإضافة إلى القصص القرآنية مواضيع كتب خاصة عليها طابع الكتب التاريخية وتحمل اسم "قصص الأنبياء" وحيث يتجادل الباحثون على صفحات المجلات فى ذي القرنين وماهيته وما هو معروف عن تاريخ الإسكندر ، وفيما إذا كان بنو إسرائيل قد ورثوا ملك فرعون فى مصر وملكوها بعد أن فرق هو وجنوده أجمعون الخ ويتكلفون بما لا طائل من ورائه.

وكل هذا مؤد كما هو ظاهر إلى التشويش على الناظر فى القرآن ومراميه فى القصص وعلى أهدافه السامية وإلى غدو كتب تفسيره معرضاً للكثير من المفارقات والمبالغات والتمحلات والمجادلات والمنحولات والمدسوسات وغدو القرآن بذلك عرضة للغمز والجرح

http://kotob.has.it

من قبل الأغيار أيضا. كما أن ذاك قد أدي إلى استحواذ القصة القرآنية لذاتها على أفكار السواد الأعظم من المسلمين بل وخاصتهم، وصارت عندهم كذلك موضوعا ذاتيا ومجالا واسعا للأخذ والرد والسؤال والاستفتاء والاستقصاء والحجاج والاحتجاج والتصويب والمناظرة الخ، مما كان يضيع معه مواضع العبرة فى القصة وقصد القرآن الجوهري منها.

تعليقات المفسرين على مشاهد الكون والجن والملائكة :

رابعا: إن كثيرا من المفسرين قد ولعوا أيضا بالتعليق على ما ورد فى القرآن من تعابير وإشارات وتذكيرات وتنبيهات وتقريرات حول مشاهد الكون ونواميسه، وحول ما ورد كذلك فى صدد الملائكة والجن وإبليس وخلقه آدم ولعا تجاوزوا فيه حدود الروايات المنسوبة إلى الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وجالوا فى ساحات التخمين والتكلف والتزيد والإغراب ، وأوردوا أقوالا منسوبة إلى رواة ومصادر من غير تلك الطبقة بأسماء وبدون أسماء وصادرة أحيانا عنهم أو موهمة أنها كذلك ، حتى ليقع فى نفس القارئ أنهم يعنون أن ما ورد فى القرآن فى هذه الشئون كله أو بعضه قد ورد لذاته وبقصد تقرير الماهيات والحقائق أكثر من قصد الدعوة والتذكير والتدعيم به وفى كثير مما نقلوه وقالوه ما لا يتفق مع دلالات الآيات ولا تتحمله أهدافها ولا تقتضيه عباراتها كما أن فيه مفارقات كثيرة هي أدخل فى باب الخرافة منها فى باب الحقيقة وإليك بعض الأمثلة على سبيل الإيضاح، منقولة عن كتب تفسيرية متعددة:

(١) إن سماء الدنيا سوح مكفوف والثانية مرمرة بيضاء والثالثة حديد والرابعة صفر وقيل نحاس والخامسة فضة والسادسة ذهب والسابعة ياقوته حمراء وما بين السابعة إلى الحجب صحار من نور.

(٢) إن وجهي الشمس والقمر متجهان إلى السماوات وضوؤهما فيهن جميعا وأقفيتهما نحو الأرض.

(٣) إن اللوح من درة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض وعرضه ما بين المشرق والمغرب وحافتاه الدر والياقوت ودفتاه ياقوته حمراء وقلمه من نور وأصله فى حجر ملك.

(٤) إن الأنهار التى أنزلها الله من عين من عيون الجنة واستودعها الجبال وأجراها على الأرض وهي سيحون وجيحون ودجلة والفرات والنيل هي التى عنيت فى الآية ﴿وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض﴾. (سورة المؤمنون).

http://kotob.has.it

(٥) لما خلق الله الأرض وفتقها سبع أرضين بعث من تحت العرش ملكا فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين السبع وضبطها فلم يكن لقدميه موضع قرار فأهبط الله من الفردوس ثورا له أربعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة وجعل قرار قدم الملك على سنامته فاستقرت،وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض ومنخاره فى البحر، فهو يتنفس كل يوم نفسا فإذا تنفس كان مد البحر وإذا رد نفسه كان جزره، ولم يكن لقوائم الثور قرار فخلق الله صخرة كغلظ سبع سماوات وسبع أرضين فاستقرت قوائم الثور عليها وهي الصخرة التى قال لقمان لابنه ﴿إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة﴾ (سورة لقمان). ولم يكن للصخرة مستقر فخلق الله نونا وهو الحوت العظيم فوضعت الصخرة على ظهره والحوت على البحر والبحر على متن الريح والريح على القدرة، ولقد تغلغل إبليس إلى الحوت فوسوس إليه، فقال أتدري ما على ظهرك يااليوتا من الأمم والدواب والشجر والجبال لو نفضتهم لالقيتهم عن ظهرك، فهم ليوتا أن يفعل فبعث الله له دابة فدخلت منخره فوصلت إلى دماغه فضج الحوت إلى الله منها فأذن لها فخرجت ، وإنها لتنظر إليه وينظر إليها إن هم بشيء من ذلك عادت كما كانت .

(٦) إن القلم من نور وإن طوله ما بين السماء والأرض. وقد نظر الله إليه أول ما خلقه فانشق نصفين، ثم قال له اجر بما هو كائن إلى يوم القيامة، فجرى على اللوح المحفوظ. والناس إنما يجرون على أمر قد فرغ منه.

(٧) إن بين كل سمائين مسيرة خمسمائة عام وغلظ كل سماء كذلك ، والأرضون مثل ذلك، وأن الصخرة التي تحت الأرض السابعة والتي منتهى علم الخلائق على أرجائها يحملها أربعة من الملائكة لكل منهم أربعة وجوه وجه إنسان ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر. فهم قيام عليها قد أحاطوا بالسماوات والأرض ورؤوسهم تحت العرش.

(٨) إن الناس ينادون يوم القيامة من صخرة القدس لأنها أقرب على السماء باثنى عشر ميلا، وأنها فى وسط الأرض..

(٩) إن المطر ينزل من السماء كل عام بقدر واحد لا يزيد ولا ينقص

(١٠) إن فى العرش تمثال ما خلق الله فى البر والبحر وذلك تأويل قوله تعالى

﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ (سورة الحجر).

(١١) إن سدرة المنتهى شجرة نبق فى السماء السابعة عن يمين العرش ثمرها كقلال هجر وورقها كآذان الفيل. ينبع من أصلها الأنهار التى ذكرها الله فى القرآن ويسير الراكب فى ظلها سبعين عاما لا يقطعها.

http://kotob.has.it

(١٢) إن جبريل نزل بالميزان فدفعه إلى نوح، وقال مر قومك يزنوا به.

(١٣) إن آدم نزل من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد وهي السندان والكلبتان والمطرقة والإبرة والميقعة، وقيل إن معه كذلك المرو والمسحاة.

(١٤) اختلف فى عدد عوالم الله فقيل إنها ألف عالم : ستمائة فى البحر وأربعمائة فى البر، وقيل ثمانون ألف عالم أربعون ألفا فى البر ومثلهم فى البحر، وقيل ثمانية عشر ألفا منهم عالم الدنيا عالم واحد، وما العمران فى الخراب إلا كفسطاط فى صحراء.

(١٥) لما أراد الله أن يخلق آدم أوحى إلى الأرض أنى خالق منك خليفة منهم من يطيعني ومنهم من يعصاني، فمن أطاعني أدخلته الجنة ومن عصاني أدخلته النار. قالت الأرض أتخلق مني خلقا يكون للنار. قال نعم. فبكت الأرض فانفجرت منها العيون إلى يوم القيامة. وبعث الله جبريل ليأتيه بقبضة منها أحمرها وأسودها وطيبها وخبيثها، فلما أتاها ليقبض منها قالت أعوذ بعزة الله الذي أرسلك أن لا تأخذ مني شيئا. فرجع جبريل إلى مكانه وقال يا رب استعاذت بك مني فكرهت أن أقدم عليها فقال لميكائيل انطلق فأتني بقبضة منها فلما أتاها قالت له مثل ما قالت لجبريل فرجع إلى ربه فقال ما قالت له. فقال الله لعزرائيل انطلق فأتني بقبضة منها فلما أتاها قالت له ما قالت لجبريل وميكائيل فقال وأنا أعوذ بعزته أن أعصي له أمرا فقبض منها قبضة من جميع بقاعها من عذبها ومالحها وحلوها ومرها وطيبها وخبيثها وصعد بها إلى السماء، فسأله ربه وهو أعلم بما صنع فأخبره بما قالت له الأرض وبما رد عليها فقال الله وعزتي وجلالي لأخلقن مما جئت به خلقا ولأسلطنك على قبض أرواحهم لقلة رحمتك، ثم جعل الله تلك القبضة نصفها في الجنة ونصفها في النار ثم تركها ما شاء الله ثم أخرجها فعجنها. طينا لازبا مدة ثم حمأ مسنونا مدة ثم صلصالا [1] ثم جعلها جسداً. وألقاه على باب الجنة. فكانت الملائكة يعجبون من صفة صورته لأنهم لم يكونوا رأوا مثله. وكان إبليس يمر به ويقول لأمر ما خلق هذا. فنظر إليه فإذا هو أجوف فقال هذا خلق لا يتمالك، وقال يوما للملائكة إن فضل عليكم ماذا تصنعون. قالوا نطيع ربنا ولا نعصاه. فقال إبليس فى نفسه لئن فضل علي لأعصينه، ولئن فضلت عليه لأهلكنه. فلما أراد الله أن ينفخ فيه الروح أمرها أن تدخل فى جسد آدم فنظرت فرأت مدخلا ضيقا فقالت يارب كيف أدخل هذا الجسد قال الله ادخليه كرها وستخرجين عنه كرها، فدخلت يافوخه فوصلت إلى عينيه فجعل ينظر إلى سائر جسده طينا ، فسارت إلى أن

---

[1] يظهر أن القائل أراد أن يوفق بين التعابير القرآنية حيث جاء فى إحداها أن الله خلق البشر من طين لازب وفى أحدها من حمأ مسنون وفي أحدها من صلصال.

http://kotob.has.it

وصلت إلى منخريه فعطس فلما بلغت لسانه قال الحمد لله رب العالمين، وهي أول كلمة قالها فناداه الله رحمك ربك يا أبا محمد ولهذا خلقتك. ولما بلغت الروح إلى ركبتيه هم ليقوم فلم يقدر فقال الله خلق الإنسان من عجل. فلما بلغت الساقين والقدمين استوى قائما بشرا سويا لحما ودما وعظاما وعروقا وعصبا وأحشاء وكسى لباسا من ظفر يزداد جسده جمالا وحسنا كل يوم.

(١٦) إن الملائكة الذين ذكروا في آية البقرة (٣٠) هم الذين كانوا في الأرض. وذلك أن الله خلق الأرض والسماء وخلق الملائكة والجن فأسكن الملائكة السماء وأسكن الجن الأرض فعبدوا دهرا طويلا، ثم ظهر فيهم الحسد والبغي فأفسدوا واقتتلوا فبعث الله عليهم جندا من الملائكة يقال لهم الجان ورأسهم إبليس وهم خزان الجنان فهبطوا إلى الأرض وطردوا الجن إلى جزائر البحار وشعاب الجبال، وسكنوا الأرض، وخفف الله عنهم العبادة، وأعطى إبليس ملك الأرض وملك السماء الدنيا وخزانة الجنة وكان رئيسهم وأكثرهم علما. فكان يعبد الله تارة في الأرض وتارة في السماء وتارة في الجنة. فدخله العجب وقال في نفسه ما أعطاني الله هذا الملك إلا لأني أكرم الملائكة عليه فقال له ولجنده إني جاعل في الأرض خليفة بدلا منكم ورافعكم إلي فكرهوا ذلك لأنهم كانوا أهون الملائكة عبادة.

(١٧) كان إبليس من حي من الملائكة وقيل من الجن ممن يولد له ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين، ومن الجن من هو بمنزلة الريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يتوالدون. وقيل إن إبليس يدخل ذنبه في دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين، وإن من أولاده لاقيس ولهاب والهفاف ومرة وزنبور وبتر والأعور ومطوس وداسم، ومنهم من يتولى إفساد الصلاة وآخر يتولى التجيس وآخر يزين اللغو والإيمان الكاذبة وآخر يغرى بالزنا فينفخ في إحليل الرجل وعجيزة المرأة.

وهذا قليل من كثير من هذا الباب مما يكاد يكون من عمد أكثر كتب التفسير القديمة ، وفيه ما هو ظاهر من الإغراق والمفارقات ودلائل الجهل بما كان معروفا من الحقائق الكونية حتى ليدهش المرء من جوازه على علماء أعلام ونقلهم إياه بأساليب وسياقات تدل على أنهم مندمجون فيه ومنزلونه منزلة الحقائق أو على الأقل غير شاكين فيه ولا مكذبيه، وأنهم يرمون أو يرمي بعضهم إلى التوفيق بين مختلف الآيات والتعابير القرآنية وإلى شرحها وتعليل مداها، وفي ذلك ما هو واضح من أسباب التشويش على أهداف القرآن وصرف الذهن عن مراميه، وجعل كتب التفسير معرضا لكثير من المفارقات والمبالغات والمنتحلات والمدسوسات.

http://kotob.has.it

ومما هو جدير بلفت النظر أن بعض الباحثين والناظرين فى القرآن بل ومفسريه من المتأخرين والمعاصرين قد ولعوا بمثل ذلك الولع مع تعديل اقتضته تطورات العلوم والمفاهيم، حيث نراهم يحاولون استنباط النواميس العلمية والفنية واستخراج نظريات الدورات الشمسية والقمرية والأرضية وكروية الأرض ونظام الأفلاك والمطر وأطوار النشوء ونمو الأحياء وانفتاق الأرض والسماء والذرة والكهرباء الخ الخ من بعض الآيات القرآنية، أو يحاولون تطبيق النظريات العلمية والفنية المتصلة بنواميس الكون والتكوين والشمس والقمر والسماء والأرض والحياة والكهرباء والبرق والرعد الخ الخ على بعض الآيات القرآنية ليدللوا على احتواء القرآن أسس هذه النظريات أو نواتها مما أخذ يستفيض فى الكتب والمجلات بل والصحف منذ أواخر القرن السابق. وتفسير الجواهر للشيخ طنطاوى جوهري الذي صدر فى أوائل القرن الحاضر مثال عجيب لهذه المحاولات والتطبيقات.

والثغرة فى هذا هو ما يفيده ويوهمه هذا الولع كما ذكرنا هذا فيما تقدم من أن ما ورد فى القرآن من الإشارات والتنبيهات والتعابير مقصود لذاته وماهياته، وما يؤدي هذا إليه من صرف هذه الإشارات والتنبيهات والتعابير عن هدفها الوعظي والتدعيمي للدعوة أولا، ومن إخراج محتويات القرآن فى نطاق هذا الهدف وقدسيته إلى نطاق الجدل والبحث والنفي والإثبات فى حقائق النظريات العلمية والفنية الكونية، وما تتعرض له هذه النظريات من تبدل وتطور وجدل ثانيا، فى حين أن تلك المحاورات أو بالأحرى التمحلات قائمة على الظن والتخمين ومنها ما هو متهافت جدا من جهة، وأن أسلوب الآيات القرآنية من جهة أخرى واضح الدلالة على اقتصار ما احتوته على الهدف المذكور، وعدم استهدافه التقريرات العلمية والفنية فى ماهية الخلق والتكوين ونواميسهما، حيث هو أسلوب خطابي موجه إلى مختلف طبقات الناس بقصد ايقاظ ضمائرهم ولفت أنظارهم إلى ما يقع تحت مشاهدتهم من مشاهد الكون العظيمة، وما يرونه من مظاهر نواميسه، وما يتمتعون به من مختلف تلك المشاهد وهذه النواميس فى مختلف حياتهم على الوجه الذى يفهمونه منها، وتمتلئ أذهانهم بها، وبقطع النظر عن ماهياتها لذاتها، والتدليل بهذا الأسلوب العام الموجه إلى مختلف الطبقات على وجود الله وعظمته وقدرته وشمول حكمه وتصرفه ووحدته واستحقاقه وحده للخضوع والعبادة وصحة الدعوة إليه وواجب طاعته فيما يأمر وينهى بواسطة أنبيائه وتنزيله، مما يستطيع أن يلمسه كل من أنعم النظر فى الآيات والفصول القرآنية.

وما أحسن ما قاله الإمام الغزالي فى تهافت الفلاسفة من كلام قوى حكيم يتصل بهذا الموضوع، حيث قال فى صدد تقسيم مذاهب الفلاسفة "والقسم الثاني ما لا يصدم مذهبهم فيه أصلا من أصول

http://kotob.has.it

الدين وليس من ضرورة تصديق الأنبياء والرسل منازعتهم فيه، كقولهم إن خسوف القمر عبارة عن إمحاء ضوئه بتوسط الأرض بينه وبين الشمس من حيث إنه يقتبس نوره من الشمس، والأرض كرة والسماء محيطة بها من الجوانب فإذا وقع القمر فى ظل الأرض انقطع عنه نور الشمس، وكقولهم إن كسوف الشمس معناه وقوع جرم القمر بين الناظر والشمس وذلك عند اجتماعهما فى العقدتين على دقيقة واحدة. وهذا الفن أيضا لسنا نخوض فى إبطاله إذ لا يتعلق به غرض. ومن ظن أن المناظرة فى إبطال هذا من الدين فقد جنى على الدين وضعف أمره، فإن هذه الأمور تقوم على براهين هندسية وحسابية لا تبقى معها ريبة فى من يطلع عليها ويتحقق أدلتها حتى يخبر بسببها عن وقت الكسوفين وقدرهما ومدة بقائهما إلى الانجلاء قبل وقوعهما، وإذا قيل له إن هذا على خلاف الشرع لم يسترب فيه، وإنما يستريب فى الشرع. وضرر الشرع بمن ينصره بغير طريقه أكثر ممن يطعن عليه بطريقه، وكما قيل عدو عاقل خير من صديق جاهل".

ونضيف إلى هذا أن عظمة شأن القرآن هي فى روحانيته القوية النافذة وفى قوة هدايته الخالدة وفيما احتواه من أسس ومبادئ ومثل عليا تستجيب لحاجات الإنسانية المتنوعة على كر الدهور ومتنوع الظروف، وأن الواجب الأعظم هو التزام حدود هذه الأسس والمبادئ والمثل وتجليتها وإزالة كل ما يشوش عليها ويعرقل بروزها أو إهماله والانصراف عنه .

التشاد المذهبي في سياق التفسير :

خامسا : إن بعض المفسرين قد اتخذوا التفسير وسيلة من وسائل الجدل المذهبي وخاصة فى علم الكلام. فقد تجاذبوا وتشادوا حول العبارات القرآنية التى جاءت عن ذات الله وصفاته وأفعاله وأعضائه ونزوله وعروجه واستوائه نفيا وتأويلا وإثباتا وتسليما. وقد تجاذبوا كذلك وتشادوا حول ما جاء من أعمال الإنسان وسلوكه وإيمانه وكفره وذنوبه وحسناته وثوابه وعقابه واختلاف الناس الطبيعي أو الحقيقي، فقرر بعضهم قدرة الإنسان على العمل وكسبه إياه وقابليته الذاتية على التمييز بين الحق والباطل والحسن والقبيح واختياره ما يختاره منهما واستحقاقه الثواب والعقاب عدلا وحقا نتيجة لذلك وبقصد تنزيه الله عن الظلم والتناقض، فى حين آخرين رأوا فى ذلك تغايرا مع قدرة الله ومطلق تصرفه ونقضا لعلمه الأزلى ولكونه المؤثر الحقيقي فى كل شيء فقرروا أن أفعال الإنسان مكتوبة عليه فى الأزل لا معدى له عنها، وأن الله لا يسأل عما يفعل، وأنه لا يصح أن يقاس ما يجريه بمقياس البشر فى الحسن والقبيح والعدل والظلم الخ. وقد تجاذبوا وتشادوا حول ما ورد من عبارات فى توبة التائب وغفران الذنوب بدون قيد فقرر بعضهم أنه لا غفران بدون توبة وأن أصحاب الكبائر مخلدون فى النار وأن الله كتب على نفسه قبول التوبة فصار واجبا عليه قبولها، فى

http://kotob.has.it

حين أن آخرين قرروا أن الله لا يجب عليه نحو خلقه شيء وأنه يغفر لمن يشاء ما يشاء دون قيد وشرط، وأن المؤمن لا يخلد فى النار لو كان صاحب كبيرة. وتجاذبوا وتشادوا فيما يجوز على الله وما لا يجوز وما يجب وما لا يجب فى عصمة الأنبياء المطلقة وإمكان صدور الأخطاء منهم ووقوع السحر عليهم، وفى المفاضلة بينهم وبين الملائكة، وفى عصمة الملائكة المطلقة وإمكان صدور الهفوات والأخطاء عنهم، وفى خلق القرآن ، وفى صفات الله وكونها ذات الله أو غير ذاته، وفى إمكان رؤية الله أو رؤية الجن والملائكة الخ من المسائل الكلامية الخلافية الكثيرة.

واستند كل فريق إلى آيات قرآنية تؤيد رأيه فى كل مسألة من تلك المسائل، وأول ما استند إليه الفريق الآخر من الآيات التي يتعارض ظاهرها مع رأيه ، واستغرق الفريقان فى الجدل والتشاد والتجاذب كل يؤيد مذهبه ويندد بالمذهب المخالف حتى خرجا فى أحيان كثيرة عن وقار العلم بما وجهوه إلى بعضهم من الشتيمة والتسفيه والغمز والانتقاص بل والتكفير، وحتى يبدو للذى ينعم النظر أن كلا الفريقين يصرف أحيانا الكلام عن وجهه الحق ويتجوز ويتكلف فيه عصبية للحزبية المذهبية إن صح التعبير، مع أن كلا منهما فى الأصل صادق الإيمان والإخلاص مستهدف تنزيه الله وتوقيره.

وفى تفسير الكشاف للزمخشري وهو من أعلام علماء القرن السادس الهجرى ويمثل مذهب الاعتزال أو ما يسميه مذهب أهل العدل والتوحيد وفى تعليقات القاضي ابن المنير عليه وهو من علماء القرن السابع ويمثل مذهب الأشاعرة من أهل السنة أمثلة كثيرة على ذلك حتى ليصح أن يقال إن التفسير والتعليق قد استهدفا هذه الوجهة فى الدرجة الأولى.

يقول الزمخشري فى سياق تفسير جملة ﴿كالذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ سورة البقرة. وتخبط الشيطان من زعمات العرب، حيث يزعمون أن الشيطان يتخبط الإنسان فيصرعه، ثم يستطرد فيقول ورأيت لهم - ويقصد أهل السنة- قصصا وأخبارا وعجائب فى الجن، وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات، فيعلق ابن المنير على هذا القول فيقول إنه على الحقيقة من تخبط الشيطان بالقدرية- يعنى المعتزلة- فى زعماتهم المردودة بقواطع الشرع فاحذرهم قاتلهم الله.

ويقول الزمخشري فى سياق تفسير جملة ﴿كالذي استهوته الشياطين فى الأرض حيران﴾ (سورة الأنعام) أن هذا جاء على ما كانت تزعمه العرب فيعلق ابن المنير قائلا: ومن أنكر استيلاء الجن على بعض الأناس واستهواءهم حتى يحدث من ذلك الخبط والصرع فهو مما استهوته الشياطين فى مهامه الضلال الفلسفي.

http://kotob.has.it

ويقول الزمخشري في سياق تفسير جملة ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة﴾ (سورة النساء). بوجوب قبول التوبة على الله فيعلق ابن المنير قائلا إنه إطلاق يتقيد عنه لسان العاقل ويقشعر منه جلده استبشاعا لسماعه ويتعثر القلم عند تسطيره على أن من لطف الله أنه لم يجعل حاكي الكفر كافرا وحاكي البدعة لضرورة ردها مبتدعا.

ويقول الزمخشري في سياق تفسير جملة ﴿يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم﴾ سورة المائدة . إن غلوهم كغلو الأشاعرة في جعلهم لله صفات أفعال فهم كالنصارى، فيرد عليه قائلا إن التشبيه بهم أولى، فالنصارى غلوا فجعلوا الإله ثلاثة ولكن المعتزلة غلوا فجعلوا كل آدمي خالقا وشريكا لله.

وفي سياق تفسير معنى احتواء الله ووجهه ويده ونزوله وعروجه يورد الزمخشري الأبيات المشهورة:

وجماعة سموا هواهم سنة	لجماعة حمر لعمري مؤكفة
قد شبهوه بخلقه وتخوفوا	شنع الورى وتستروا بالبلكفه[1]

فيورد ابن المنير ردا عليه الأبيات التالية:

وجماعة كفروا برؤية ربهم	حقا وعد الله ما أن يخلفه
وتلقبوا الناجين كلا إنهم	إن لم يكونوا في لظى فعلى شفه

ويذكر الزمخشري رواية عن طاووس التابعي جاء فيها أنه طرد رجلا من مجلسه يقول بالقدر فقيل له هذا فقيه فقال إبليس أفقه منه لأنه قال فيما أغويتني وهذا يقول إني أغوي نفسي ، ثم يقول إن الرواية من تكاذيب المحيرة الذين بلغ بهم من تهالكهم على إضافة القبائح إلى الله أن لفقوا الأكاذيب على الرسول والصحابة والتابعين ، فيرد ابن المنير فيقول إن كلامه حيدان عن العقيدة الصحيحة ، وإن ذنب أهل السنة أنهم يؤمنون بخالق واحد في حين أن القدرية يتهالكون حتى ليشركوا كل شخص مع الله في الخلق.

ويحمل الزمخشري على الأشاعرة في سياق تفسير جملة ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد﴾ (سورة الحج) فيقول وما أرى رؤساء أهل الأهواء والبدع والحشوية المتلقبين بالإمامة في دين الله إلا داخلين تحت هذا دخولا أوليا ، بل هم أشد الشياطين ضلالا وأقطعهم لطريق الحق، حيث دونوا الضلال تدوينا ولقنوه أشياعهم تلقينا، وكأنهم بساطوه بلحومهم ودمائهم.

---

[1] منحوتة عن جملة "بلا كيف" يعني أن الأشاعرة يقولون إن الله استوى على العرش ولكن دون أن يعرف أحد كيفية الاستواء.

http://kotob.has.it

ويندد بخصومة في صدد تفسير جملة ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ فيقول إن أهل الأهواء والبدع يتصامون عن آيات الله فيخبطون خبط عشواء ويطيبون لأنفسهم بما يفترون على ابن عباس في قولهم هذا، وأن انتظار الغفران بدون توبة وانتظار الشفاعة بدون سبب غرور وحمق وجهالة.

وفي إحدى المناسبات يشبه ابن المنير المعتزلة بالمشركين ويقول إنهم يقولون هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا حيث يثبتون خالقا غير الله ولا يأنفون عن إثبات رازق غيره فأنى يؤفكون.

وفي سبيل الهوى المذهبي يصرف الزمخشري جملة ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾ (سورة النساء) إلى معنى جرحه الله بمخالب قدرته.. ثم ينسى هذا فيقول في سياق آية ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه﴾ (سورة الأعراف) أسمعه الله كلاما وحروفا وأصواتا خلقها فيما حوله.

وبينما يؤول الزمخشري "عرش الله" في سياق آيات عديدة بعظيم قدرته وملكه يقول في سياق آية ﴿وكان عرشه على الماء﴾ (سورة هود). إن فيها لدليلا على أن العرش والماء قد خلقا قبل السماوات والأرض، فيعترف بذلك بوجود مادي للعرش يناقض تأويله الأول.

وهذا قليل متنوع المدى من كثير جدا في الكشاف وتعليقات ابن المنير عليه يكفي لإيضاح ما قصدنا إليه. وليس معنى اكتفائنا بنقل ما جاء في الكشاف والتعليقات أنهما الوحيدان في هذا الباب، فإن المدقق في مختلف كتب التفسير الخازن والبيضاوي وأبي السعود والرازي وغيرها يجد غمزات شديدة وخفيفة في مناسبة كثير من العبارات القرآنية، وتنبيهات على ما فيها من دلائل ضد مذهب مخالفيهم، أو على ما في استناد هؤلاء المخالفين إليها من وهن، كما يجد توجيهات وتأويلات تتسق مع مذهبهم وتؤيده سلبا أو إيجابا. وممن ذكرهم صاحب الإتقان على نمط الزمخشري في اتخاذ تفاسيرهم وسيلة إلى شرح مذهبهم وتأييدها والطعن على غيرهم عبد الرحمن بن كيسان الأصم والجبائي وعبد الجبار الرماني.

وهذا عدا ما احتوته الكتب الكلامية والخلافية والنحلية والمذهبية الأخرى من التشاد والتجاذب حول العبارات القرآنية وصرفها من جانب كل فريق إلى مذهبه تقريرا أو تأويلا مما هو خارج عن مدى الموضوع الذي نحن بسبيل التنبيه عليه وإن يكن فرعا من أصل.

وليس يعنينا هنا بيان المصيب أو تأييد مذهب على مذهب، وإنما يعنينا الثغرة في الأسلوب، وبيان ما صارت إليه كتب التفسير بسببه من معارض تشاد وتسفيه ومهاترة وتكلف في صدد الجدل الكلامي.

ومع أن المسلم به أن النصوص القرآنية في حد ذاتها مستند للعقائد والأحكام والتشريع الإسلامي، إلا أننا نعتقد أن أصحاب المذاهب الكلامية والخلافية قد تكلفوا وتمحلوا في كثير مما

http://kotob.has.it

تجاذبوا وتشادوا فيه على غير طائل ولا ضرورة، وأنهم حملوا العبارات القرآنية ما لا محل لتحميلها إياه ولا يقتضيه السياق الذي جاءت فيه، وأن هذا قد نشأ بنوع خاص من أخذهم إياه مستقلة لذاتها فى حين تكون قد جاءت متصلة بسياق لا تفهم على وجهها إلا معه، وبمناسبة لا تلمح حكمة صيغتها إلا بملاحظتها، أو على سبيل التقريب والتمثيل، أو على سبيل التسلية والتطمين أو التنديد والتسفيه أو الحجاج والإلزام أو الحكاية الخ تبعا لتنوع الأساليب والمناسبات القرآنية ومواقف وأحداث السيرة النبوية مما يمكن أن يتبينه كل من أمعن النظر فى المجموعات القرآنية التى وردت فيها العبارات التي تكون موضوع التشاد والتجاذب، وأن العبارات القرآنية إذا ما نظر فيها مع سياقها السابق أو اللاحق أو كليهما زال الموهم فيها واتسقت التقريرات والمعاني القرآنية، وأن محاولات أهل المذاهب الكلامية والخلافية هذه تجعل القرآن يناقض بعضه بعضا مما يجب تنزيهه عنه ومما هو منزه عنه فعلا بنص القرآن.

ومما يحسن إيراده هنا ما جاء فى تفسير الرازي حيث قال فى إحدى المناسبات أن الرافضة -يعني الشيعة- قالت إن هذا الذي عندنا ليس هو القرآن الذى جاء به محمد بل غير وبدل ، والدليل عليه اشتماله على هذه المناقضات التى ظهرت بسبب المناظرات الدائرة بين أهل الجبر وأهل القدر.
وإطلاق الرازي كلمته يوهم أن الشيعيين جميعا يقولون هذا، وهو غير صحيح لأن الشيعة والإمامية خاصة تعترف بالقرآن الموجود بين دفتي المصحف اعترافا تاما ، وقد نقلنا فى مناسبة سابقة كلمة أحد أعلام مفسريهم القدماء الشيخ الطوسي فى هذا الصدد ، ولا يمنع هذا أن تكون إحدى فرقهم الغالية قد قالت هذا لأن من هذه الفرق من تعمد هدم الإسلام والتشكيك فى القرآن تعمدا. وعلى كل حال فإن كلمة الرازي صدي لما كان من تجاذب وتشاد حول العبارات القرآنية فى سبيل الخلاف المذهبي وتأييد لما نحن فى صدده من ضرر ذلك وخطله، واعتباره ثغرة خطيرة فى تفسير القرآن.

وما ذكرناه هو ما يتصل بالخلاف المذهبي الكلامي. وهناك تفاسير عديدة احتوت أشياء كثيرة مما يتصل بالخلاف الشيعي السني ومنها ما اتخذ وسيلة إلى تقريرات وتأويلات متصلة بهذا الخلاف ، مما يمت إلى الثغرة التى نحن بصدد التنبيه عليها، ومما ينسحب عليه الكلام الذي قلناه آنفا بطبيعة الحال. ولقد أشرنا إلى بعض هذه التقريرات والتأويلات فى مناسبات متنوعة، ونكتفي هنا بإيراد شيء منها منقول عن تفسير التبيان للشيخ الطوسي.

ففي سياق تفسير آية آل عمران المعروفة بآية المباهلة ﴿فإن حاجوك من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ (٦١) قال الشيخ دون استناد إلى حديث أو رواية ولما نزلت الآية أخذ النبي ﷺ بيد على وفاطمة والحسن والحسين ثم دعا النصارى إلى المباهلة.. ثم قال واستدل أصحابنا بهذه الآية على أن

http://kotob.has.it

أمير المؤمنين- يعنى عليا - كان أفضل الصحابة من وجهين أحدهما أن موضوع المباهلة هو تمييز الحق من الباطل وذلك لا يصح أن يكون إلا بمن هو مأمون الباطن مقطوعا على صحة عقيدته وأفضل الناس عند الله ، والثاني أنه جعله مثل نفسه بقوله وأنفسنا وأنفسكم والآية تدل على أن الحسن والحسين ابنا النبي بلا خلاف لأنها تقول أبناءنا وتدل على أن تعبير نساء النبي بقوله نساءنا قد صرف إلى فاطمة فقط، وإذ جعل النبي أمير المؤمنين مثل نفسه وجب ألا يدانيه أحد في الفضل والإيثار به ، ومتى قيل إنه أدخل في المباهلة الحسن والحسين مع كونهما غير بالغين وغير مستحقين للثواب ، وإن كانا مستحقين للثواب لم يكونا أفضل الصحابة قال لهم أصحابنا إن الحسن والحسين كان بالغين مكلفين لأن البلوغ وكمال العقل لا يفتقران إلى شرط مخصوص ، وقد تكلم عيسى في المهد بما دل على كونه مكلفا عاقلا، وقد ذكر الشيخ في سياق آية ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ (سورة المائدة) أنه روي عن أبي جعفر وأبي عبد الله أن الآية نزلت بعد أن نصب النبي ﷺ عليا علما للأمة ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ (سورة المائدة) أنه روى عن أبي جعفر وأبي عبد الله أن الله أوحى إلى النبي ﷺ أن يستخلف عليا كان يخاف أن يشق ذلك على جماعة من أصحابه فأنزل الله هذه الآية تشجيعا له. والهوى الحزبي ظاهر البروز في ذلك كله.

الولع بأسرار القرآن ورموزه ومنطوياته :

سادسا : إن بعض المفسرين والمشتغلين بالقرآن قد ولعوا بتخمين انطواء القرآن على أسرار ورموز ، واستغرقوا في استقراء الحروف والكلمات والتراكيب القرآنية بقصد الكشف عن تلك الأسرار والرموز واتسع مجال التفريع والتكلف والإغراب في هذا المجال كثيرا.

ولعل أصل هذا الولع يرجع إلى بعض روايات في الحروف المتقطعة المنفردة التي جاءت في مطالع نحو ربع السور القرآنية مكية ومدنية.

فمع أن القسم الأكبر من هذه المطالع قد أعقبه ذكر القرآن والكتاب وتنزيله وإحكامه وحكمته قسما أو بيانا أو تنويها أو تنبيها[1] ومع أن روحا تلهم أنها جاءت بسبيل التوكيد والتنبيه واسترعاء الأسماع إلى القرآن وآياته وعبره وحكمته وأحكامه مما قرره غير واحد من أعلام علماء القرآن من ابن عباس فما بعد ومما تطمئن إليه النفوس ويتسق مع مهمة الذي أنزل عليه القرآن وخطاب القرآن لجميع الفئات وتوكيده أنه واضح مبين لا عوج فيه ولا أمت ولا تعقيد ولا اختلاف. فقد روي في

---

(١) هي سور القلم وق و ص والأعراف ويس وطه والشعراء والنمل والقصص ويونس وهود ويوسف والحجر ولقمان وغافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف وابراهيم والسجدة والبقرة وآل عمران والرعد. أما السور التي مطلعها حروف متقطعة منفردة ولم تعقب بالإشارة إلى القرآن فهي سورة مريم والروم والعنكبوت.

http://kotob.has.it

سياق البحث فى الحروف المذكورة رواية مفادها أن اليهود جاؤوا إلى النبي فسألوه عما أوتيه من عمر الدنيا فقال لهم "ا ل م" فحسبوها فجاءت (٧١) فى الحساب المعروف بحساب الجمل والذي هو حساب يهودي يقوم على ترتيب الأحرف الهجائية العبرانية (أ ب ج د هـ و ز إلى آخره) فقالوا ثم ماذا فقال لهم (ا ل م) ثانية ثم (ا ل م ص) إلى آخر السور فحسبوا حساب الحروف جميعها فبلغ سبعمائة وكسورا من السنين [1] فأقروا بالأمر تسليما بأن النبي قد بعث بين يدي الساعة. ومع أن هذه الرواية ليست موثقة ولا يثبت مضمونها ومداها على نقد وتمحيص من وجوه عديدة فقد تنوقلت واستفاضت فى جملة ما تنوقل واستفاض فى مختلف كتب التفسير والقرآن.

ومثل هذه الرواية أقوال مروية أخرى معزوة إلى بعض الصحابة والتابعين ومستفيضة فى كتب التفسير وليست هي الأخرى موثقة أو من شأنها أن تثبت على نقد وتمحيص ذكر فيها أن هذه الحروف ترمز إلى بعض أسماء الله وأسماء النبي، وأنها تحتوى أسرار القرآن وسر اسم الله الأعظم. ومن هذه الروايات روايتان أوردهما الرازي فى سياق تفسير أول البقرة، إحداهما معزوة إلى أبي بكر جاء فيها أن لكل كتاب سرا وسر القرآن فى أوائل سوره، وثانيتهما معزوة إلى على ابن أبي طالب جاء فيها أن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروفها التهجي. وهناك روايات وأقوال شيعية المصدر جاء فى بعضها أن الحروف تحتوي رموزا للنبي وعلى والحسن والحسين ، وفى بعضها أن كل مطلع من المطالع المتقطعة يشير إلى دور من أدوار التاريخ المتصلة بالأئمة العلويين، ومن ذلك أن مطلع سورة آل عمران يشير إلى حادث الحسين ومطلع سورة الأعراف يشير إلى دور العباسيين. وقد نقل عن تفسير الطبري أن مطلع سورة الشورى يشير إلى أحداث تاريخية عظيمة فى مدينتين من مدن المشرق وملكين من ملوكها، وقد ذكر السيوطي فى الإتقان أن لمحمد بن حمزة الكرماني كتابا فى مجلدين سماه العجائب والغرائب وضمنه أقوالا ذكرت فى الحروف المتقطعة مثل (ح س ع س ق) مطلع سورة الشورى حيث ترمز الحاء إلى حرب على ومعاوية والميم إلى الدولة المروانية والعين إلى الدولة العباسية والسين إلى الدولة السفيانية والقاف إلى الدولة المهدوية اللتين تظهران فى آخر الزمان.

ثم اتسع القول فى مدى هذه الحروف ودلالاتها الفنية والنظمية فتراءى للزمخشري مثلا بعض أسرارها، فهي نصف حروف المعجم، وعدد السور التى تبتدئ بها على قدر حروف المعجم، وهي تحتوي نصف الحروف المهموسة ونصف الحروف المجهورة، وتحتوي كذلك نصف الحروف

---

(١) حساب الحروف جميعها يتجاوز الثلاثة آلاف والمائتين

http://kotob.has.it

المستعلية ونصف حروف المنخفضة ونصف حروف القلقة. وتراءى لصاحب كتاب البرهان على ما ذكره السيوطي في الإتقان أن كل سورة بدأت بحرف منها فإن كثر كلماتها وحروفها مماثل له، وحق لكل سورة منها أن لا يناسبها إلا الحروف الواردة فيها، وذكر على سبيل المثال سورة ق حيث كان ذلك لأن حرف القاف قد تكرر كثيرا في كلمات السورة، وسورة ص حيث كان ذلك لأنها احتوت خصومات عديدة خصومة النبي ﷺ مع الكفار وخصومة الخصمان أمام داود وخصومة أهل النار وخصومة إبليس وسورة يونس حيث بدأت بحروف الألف واللام والراء بسبب تكرار هذه الحروف وخاصة الراء فيها إلى آخره، والتكلف شديد البروز وفي هذه الأقوال عند إمعان النظر، كما أنها غير مطردة عند التطبيق، حيث فيها النقص والزيادة والخلاف[1].

ثم اتسع القول فقال قائل إنه ما من شيء إلا يمكن استخراجه من القرآن ، وأنه لو ضاع عقال بعير لوجدته في كتاب الله ، واستنبط بعضهم عمر النبي ثلاثا وستين سنة من سورة المنافقون لأنها الثالثة والستون من السور وفق ترتيب المصحف وقد جاء فيها آية ﴿ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها﴾ وقال قائل إن نصوص القرآن ليست على ظاهرها، وإن لها معاني باطنة محجوبة عن غير الواصلين والمعلمين، وقال قائل إن علوم القرآن خمسون علما وأربعمائة علم وسبعة آلاف علم أو سبعون ألف علم على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة إذ لكل كلمة ظهر وبطن وحد ومطلع وقال قائل إنه ما من كائن ويكون من أحداث الدنيا منذ بدئها إلى منتهاها إلا احتوت حروف القرآن

---

(١) نقول من قبيل الاستطراد أننا اطلعنا على بحث وجيز للأستاذ نصوح الطاهر تضمن تقرير كون الحروف المتقطعة تشير إلى عدد آيات السور. ولم نجد فيما جاء في مقاله الموجز شفاء يساعد على القطع برأي حاسم في صحة النظرية وبطلانها، ثم في صواب شمول الأمثلة لجميع السور ذات الحروف المتقطعة على ما يقول به صاحب النظرية. وقد تراءى لنا من الأمثلة الواردة أن هناك تجوزا وتحكما في حسب الآيات ودمج بعض السور في بعض وترجيحا بغير مرجح لروايات الآيات المدنية في السور المكية والآيات المكية في السور المدنية ، ولروايات أخرى في صدد وحجم بعض السور وإسقاط بعض سور مشابهة في مطلعها لسور أخرى كإسقاط سورة الحجر مع أنها تبدأ بجملة "الر" وإسقاط سورة الأحقاف مع أنها تبدأ بجملة "حم" وكل ذلك رغبة في التوفيق بسبب صدفة في حساب آيات أو وحدات وانطباق على حساب الروايات. وقد وعد الأستاذ بنشر البحث تاما شاملا لجميع السور "المبدوءة بالحروف المتقطعة والتي يقول إن نظريته وحسابه قد صح فيها جميع فلننتظر وفاءه بما وعد حتى نتمكن من القطع في النظرية . وقد كتبنا هذا من قبيل الاستطراد وليس من شأنه أن يؤثر في البحث الذي بحثناه حول ما دار في صدد أسرار القرآن أو ألغازه أو رموزه وآثارها كما هو واضح.

http://kotob.has.it

وكلماته علمها وغيبها، وأنه احتوى جميع علوم الأولين والآخرين، وقال قائل إن لكل آية ستين ألف فهم وروى راو عن علي ابن أبي طالب أنه لو أراد أن يوفر حمل سبعين بعيرا من تفسير أم القرآن- يعني الفاتحة - لفعل ، وفصل بعضهم وفود العلوم المستنبطة من القرآن استنادا إلى ما ورد من بعض كلمات لها صلة ما لغة أو معنى بعلم أو فن أو صناعة ما من العلوم والفنون والصناعات المعروفة فقال إن فى القرآن أصل علم الهندسة مستنبطا من جملة ﴿ظل ذى ثلاث شعب﴾ (سورة المرسلات). وأصل علم الجبر والمقابلة مستنبطا من أوائل السور التى فيها ذكر مدد أمم سالفة وأعوامها وأيامها وتواريخها وتاريخ ومدة أيام الدنيا وما مضى وما بقي بعضها ببعض، وصل علم الطب مستنبطا من ثلاث آيات وهي آية الفرقان ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما﴾ وآية الإسراء ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ وآية النحل ﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾ وأصل علم الهيئة مستنبطا مما ورد من ذكر ملكوت السماوات والأرضين وما بث فى العالم العلوي والسفلى من المخلوقات، وأصل علم المواقيت مستنبطا من آيات الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبروج والمنازل، وأصل علم التنجيم مستنبطا من جملة ﴿أو أثارة من علم﴾ (سورة الأحقاف) وأصل علم تعبير الرؤيا مستنبطا من قصة يوسف، وأصل علم الحساب مستنبطا مما فيه من ضروب الجمع والقسمة والضرب والأعداد والموافقة والتأليف والمناسبة والمضافة، وأصل كل من علوم النحو والصرف والبيان والبديع والجدل والمنطق والتاريخ والقصص والقضاء والتشريع والفقه والفرائض مستنبطا مما فيه من قواعد صرفيه ونحوية ونظم بياني وبديعي وجدلي ومنطقي وقصصي وتاريخ وأحكام وحدود وأنكحة ومواريث الخ، وأصل صناعات النجارة والحدادة والزجاجة والقصارة والبناء والخياطة والصياغة والفلاحة والنحت والفخارة والكيالة والرمي والصيد والصياغة والملاحة مستنبطا من كلمات وآيات وردت فيها إشارات إلى هذه الصناعات أو ما يتصل بها [١]

ورأى مفسرو الشيعة وباحثوهم فى كثير من آيات القرآن وعباراته إشارات ورموزا إلى على وفاطمة والحسن والحسين مثل جملة ﴿مرج البحرين يلتقيان﴾ (سورة الرحمن) حيث ترمز إلى على وفاطمة وجملة ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ (نفس السورة) حيث ترمز إلى الحسن والحسين. وجملة ﴿ألف شهر ﴾ فى سورة القدر حيث ترمز إلى مدة الدولة الأموية وجملة ﴿هذان خصمان اختصموا فى ربهم﴾ (سورة الحج) حيث ترمز إلى على وخصومته لدى ربه مما وقع عليه من حيف

[١] جميع هذه الأقوال واردة فى الإتقان للسيوطي.

http://kotob.has.it

في الخلافة، وجملة ﴿يؤمنون بالغيب﴾ (سورة البقرة) حيث ترمز إلى المهدي المنتظر، وجملة ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ (سورة الصافات) حيث ترمز إلى الحسين، وجملة ﴿اخرجنا لهم دابة الأرض تكلمهم﴾ (سورة النمل) حيث ترمز إلى على يوم رجعته، وجملة ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ (سورة الرعد) حيث إلى على وجملة ﴿أرأيت إن متعناهم سنين﴾ (سورة الشعراء) حيث ترمز إلى الأمويين وجملة ﴿سبعا من المثاني﴾ (سورة الحجر) حيث ترمز إلى الأئمة السبعة وجملة ﴿حملته أمه كرها﴾ (سورة الأحقاف) حيث ترمز إلى الحسين وفاطمة وجملة ﴿وإنه لعلم للساعة﴾ (سورة الزخرف) حيث ترمز إلى المهدي وجملة ﴿ ثم رددنا لكم الكرة عليهم﴾ (سورة الإسراء) ﴿ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا﴾ (سورة النمل) ﴿وإنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ (سورة غافر) ﴿وربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ (سورة الحجر) ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ (سورة القصص)، حيث ترمز إلى الرجعة والدور الذى يكون فيه الأئمة الفاطميون أصحاب السلطان ويتمكنون فيه من الانتقام من خصومهم وسالبي حقوقهم. حتى أن الناظر فيما كتبه بعضهم ليجد أن كثيرا من محتويات القرآن مصروف إلى الأئمة وذرية فاطمة ، ومحمول على تأييد أقوالهم ومذاهبهم وأئمتهم ورجعتهم وخصومهم وفيه من الغرائب والمفارقات العجيبة ما لا يتسع له أى حوصلة.

ولعل مما يتصل بهذا الباب ما أدير من الأقوال حول أحاديث القرآن على سبعة أحرف فقط ورد عدة أحاديث فى ذلك منها أن عثمان ابن عفان وقف على المنبر فقال أذكر الله رجلا سمع النبي قال إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شاف وكاف فقاموا حتى لم يحصوا فشهدوا فقال وأنا أشهد معهم، ومنها عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف ومنها حديث نبوي رواه النسائي أن جبريل وميكائيل أتياني فقعد جبريل عن يميني وميكائيل عن يسارى فقال جبريل اقرأ القرآن على حرف فقال ميكائيل استزده حتى بلغ سبعة أحرف، وفي حديث مروى عن أبى بكر زيادة مفادها أنه لما بلغ سبعة أحرف نظرت إلى ميكائيل فسكت فعلمت أنه قد انتهت العدة، ومنها عن أبى عن النبى قال أرسل إلى ربى أن اقرأ القرآن على حرف فرددت عليه أن هون على أمتى فأرسل إلى أن أقرأه على حرفين فرددت عليه أن هون على أمتى فأرسل إلى أن اقرأه على سبعة أحرف ومنها حديث آخر عن أبى قال لقى رسول الله ﷺ جبريل فقال يا جبريل إنى بعثت إلى أمة أميين منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لم يقرأ كتابا قط قال يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف. ومنها حديث ابن مسعود أن النبى ﷺ قال كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد ونزل

http://kotob.has.it

القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف زجر وأمر وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال، فاحلوا حلاله وحرموا حرامه وافعلوا ما أمرتم به وانتهوا عما نهيتم عنه واعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا كل من عند ربنا، ومنها حديث جاء فى الموطأ، قال عمر سمعت هشام ابن حكيم ابن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأها وكان رسول الله أقرأنيها فكدت أن أعجل عليه ثم أمهلته حتى انصرف يعنى أتم صلاته ثم لبسته بردائه فجئت به رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسله ثم قال اقرأ فقرأ القراءة التى سمعته يقرأ فقال رسول الله هكذا أنزلت، ثم قال لى اقرأ فقرأت فقال هكذا أنزلت ثم قال إن القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرأوا منه ما تيسر.

فمع أن هذه الأحاديث المروية ومداها وظروفها بوجه الإجمال باستثناء حديث لابن مسعود الذى يتحمل نصه التوقف والنظر أكثر من غيره لأنه لا يتسق مع سائر الأحاديث الواردة وفيه تقسيم وتصنيف علميين يشبهان تقسيم العلماء المتأخرين فى عهد النبى كثيرا تلهم أنها فى صدد التيسير والتسهيل فى قراءة القرآن نطقا وأداء وعدم الإحراج والإعنات فى ذلك وهذا مما قرره غير واحد من العلماء فإن البحث حولها اتسع حتى خرج عن هذا النطاق ودخل فى نطاق آخر يتصل بما ذكرناه من التخمينات حول أسرار القرآن ومكنوناته وشموله، ولقد عد صاحب الإتقان خمسة وثلاثين قولا فى هذه الأحاديث أقلها متصل بتسهيل القراءة وأكثرها من قبل تلك التخمينات كما ترى فى هذه السلسلة.

١- سبعة أوجه للقراءة.
٢- سبعة أوجه تقع فيها تغاير فى فتح ورفع وكسر وتقديم وتأخير وتخفيف وتشديد وإدغام.
٣- سبعة أنواع من الآيات : آية فى صفات الله وآية تفسيرها فى آية أخرى وآية بيانها فى السنة الصحيحة وآية فى قصة الأنبياء والرسل وآية فى خلق الأشياء وآية فى وصف الجنة وآية فى وصف النار.
٤- سبع جهات من صفات الله.
٥- سبعة أنواع أخرى من الآيات آية فى وصف الصانع وآية فى إثبات الوحدانية له وآية فى إثبات صفاته وآية فى إثبات رسله وآية إثبات كتبه وآية فى إثبات الإسلام وآية فى إثبات الكفر.

http://kotob.has.it

٦- سبع قراءات لسبعة من الصحابة وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود وابن عباس وأبى بن كعب.

٧- ظهر وبطن وفرض وندب وخصوص وعموم وأمثال.

٨- تصريف ومصادر وعروض وغريب وسجع ولغات مختلفة كلها فى واحد.

٩- سبعة ألفاظ عام أريد به الخاص وخاص أريد به العام، وعام أريد به العام وخاص أريد به الخاص ولفظ يستغنى تنزيله عن تأويله ولفظ لا يعلم تأويله إلا الراسخون ولفظ لا يعلم تأويله إلا الله.

١٠- المطلق والمقيد والعام والخاص والنص والمؤول والناسخ والمنسوخ والمجمل والمفسر والاستثناء وهذا قول الفقهاء.

١١- الحذف والصلة، والتقديم والتأخير، والاستعارة والتكرار، والكناية والحقيقة والمجاز والمجمل والمفسر، والظاهر والغريب وهذا قول علماء اللغة.

١٢- التذكير والتأنيث، والشرط والجزاء، والتصريف والإعراب والأقسام وجوابها، والجمع والأفراد والتصغير والتعظيم، واختلاف الأدوات وهو قول علماء النحو.

١٣- الزهد والقناعة مع اليقين والجزم والخدمة مع الحياء والكرم والفتوة مع الفقر، والمجاهدة والمرقبة مع الخوف والرجاء والتضرع والاستغفار مع الرضا، والشكر والصبر مع المحاسبة والمحبة والشوق مع المشاهدة وهذا قول الصوفية.

١٤- أمر ونهى وبشارة وإنذار وأخبار وأمثال.

١٥- علم الإنشاء، وعلم الإيجاد، وعلم التوحيد والتنزيه، وعلم صفات الذات، وعلم صفات الفعل، وعلم صفات العفو والعذاب، وعلم الحشر والحساب، وعلم النبوات.

١٦- المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ والخصوص والعموم والقصص.

١٧- سبع لغات لغة قريش ولغة اليمن ولغة جرهم ولغة هوازن ولغة قضاعة ولغة تميم ولغة طي.

١٨- سبعة أوجه إعراب للكلمة الواحدة حتى يكون المعنى واحدا وأن اختلف لفظا.

١٩- سبعة أحرف هى أمهات الهجاء وهى الألف والياء والجيم والدال والزاي والسين والعين.

٢٠- إن جبريل كان يكرر كل كلمة سبع مرات على سبعة أوجه.

http://kotob.has.it

٢١- تقرير كون القرآن نزل بمعان متسق مفهومها مختلف مسموعها حيث يجوز التغاير إذا لم تبدل كلمة عذاب بكلمة رحمة وروى القائلون فى معرض تدليلهم على قولهم إن ابن مسعود كان يقرأ أمهلونا مكان انظرونا فى سورة الحديد وأن أبيا كان يقرأ سعوا بدل مشوا فى سورة البقرة، وأن ابن مسعود أجاز لقارئ، أن يقرأ طعام الفاجر بدل طعام الأثيم فى سورة الدخان لأنه لم يكن يحسن النطق بكلمة الأثيم.

٢٢- التسهيل فى التقديم والتأخير مثل جاءت سكرة الحق بالموت بدلا من جاءت سكرة الموت بالحق فى سورة ق.

وواضح أن فى كل ما ذكرناه فى هذا المبحث ثغرات عديدة من شأنها التشويش على القرآن ومداه وعلى الناظر فيه والراغب فى تفهمه، وصرف القلب عن روحانيته وأهدافه الوعظية والإرشادية والتذكيرية والتوجيهية، والاستغراق فى هذه الناحية حتى تنقلب جمل القرآن وكلماته وحروفه إلى معادلات جبرية ورياضية وكيماوية وتنجيمية ومنطقية وكلامية وجدلية إلى آخره مما يخرجه عن قدسيته ولا يتسق مع طبيعة توجيهه إلى مختلف طبقات الناس، وما تقتضيه هذه الطبيعة من عدم انطوائه على أسرار ورموز وغوامض غيبت عن فئة دون فئة، واختصت بها فئة دون فئة، كما لا يتسق مع نصوص القرآن الصريحة بأن أنزل ليكون موعظة وهدى ورحمة للناس كافة وبأن الناس جميعهم مدعوون إلى تفهمه وتدبره والتزام حدوده الإيجابية والسلبية، وهذا فضلا عما فى الأقوال أو كثير منها من التكلف والتزيد والتجوز والتحكم، وعما يبدو فى بعضها من آثار الخلافات الحزبية والسياسية والنحلية والمذهبية من جهة وعما يبدو فى بعضها من جهة ثانية من مقاصد الدس على القرآن والإسلام من بعض النحل والفرق التى حرصت أن تبث فى الأذهان أن للتكليفات الشرعية معانى وأهدافا مكتوبة تخالف ظاهرها، وأن تثير فى النفوس نحو القرآن الشكوك والريب، وفضلا عما يبدو من جهة ثالثة من مقاصد التجزئة على التبديل والتغير فى نظم القرآن وكلماته من ناحية ما هناك من روايات الخلافات اللفظية والنظمية، ونكاد نجزم أن كثيرا من هذه الروايات الكثيرة جدا والواردة فى مختلف كتب التفسير والقراءات والمعزوة إلى الصحابة والتى تدور فى نطاق الألفاظ والنظم تبديلا وتقديما وتأخيرا وزيادة ونقصا ونحوا وصرفا مدسوس أو محرف وأنه يمت إلى هذه المقاصد الخبيثة على اعتبار أن صحة صدور القرآن عن النبى منوطة بوحدة اللفظ والنظم، وأن تشويه هذه الوحدة كفيلة بالتشكيك فى صحة صدور القرآن المتداول عن النبى، مع التنبيه على أننا لا نرى ما يمنع أن يكون بين المندمجين فى هذه الروايات والتخمينات أناس ذوو نيات حسنة وطويات سياسية ومقاصد بريئة.

http://kotob.has.it

الولع بالتفريع والاستطراد:

سابعا إن بعض المفسرين قد ولع ولعا غريبا فى التفريع والتقسيم والاستطراد إلى البحوث المتنوعة الآلية والعقلية والكونية والكلامية والطبيعية والفقهية والفلسفية.

والعلم البارز فى هذا الباب من قدماء المفسرين الرازى فى تفسيره "مفاتيح الغيب" وهذا الولع ليس من نوع الولع بالرموز والأسرار والمغيبات، وهذا ما جعلنا نفرد له نبذة خاصة.

وقبل كل شيء نريد أن ننبه على أن تفسير هذا الإمام من ناحية متناوله العلمى الأسلوبى القديم كنز غنى ومعلمه كبرى يصح أن يكون مفخرة من مفاخر المؤلفين الإسلاميين وبما بلغوا إليه من رفيع المستوى فى البحث والعلم وسعة الاطلاع وشموله وطول النفس، ولو أنه ألف كتابه الذى يقع فى أكثر من ستة آلاف صحيفة من القطع الكبير ذى الحرف الدقيق كمعلمة مرتبة على حروف الهجاء أو الكلمات أو المواضيع لكان عملا عظيما لا غبار عليه، ولكن الثغرة فيه أنه كتبه فى صدد تفسير القرآن فى حين أن الناظر فيه يكاد ينسى أنه يقرأ تفسيرا لكثرة التفريع وتعداد المسائل والوجوه وتوالى الاستطرادات التى كثيرا ما لا تكون متصلة بالموضوع القرآنى إلا اتصالا لفظيا.

وفى الصفحات الأولى لهذا التفسير يبدو أن الدافع إليه هو الرغبة فى تعداد كثرة المسائل التى تتفرع من كل فصل أو آية أو عبارة فى القرآن فيقول المؤلف مثلا إنه قال إن سورة الفاتحة يمكن أن يستنبط منها عشرة آلاف مسألة فاستبعد هذا بعض ذوى الهمم القاصرة، ثم يأخذ يجمل فى التعداد وفى أنوع المسائل وما تحتويه من وجوه وأمثله حتى ينتهى به القول إلى أن الاستعادة وحدها تحتوى عشرة آلاف مسألة، وان البسملة وحدها تحتوى مثل ذلك، وأن الحمد لله رب العالمين تحتوى مثل ذلك، ثم يجمل فيقول إن سورة الفاتحة تحتوى ألف ألف مليون مسألة أو اكثر وليس عشرة آلاف كما قرر أولا من باب التساهل، فرب العالمين مثلا على أسلوبه تعنى جميع المخلوقات السماوية والأرضية من ملائكة وسماوات وكواكب وأرضين وجن وإنس ودواب وطيور وهوام ومعادن ومياه وبحار ونباتات وأشجار، وما يتصل بكل ذلك من عادات ونواميس ومعايش إلى آخره، حيث يبدو فى هذا من الإغراق العجيب فى التجوز والتوسع فى سياق تفسير القرآن ما يثير العجب، ولقد بلغ عدد الصفحات الكبيرة التى فسر فيها سورة الفاتحة مائتين وستا وعشرين احتوت أكثر من مائة ألف كلمة أو بمقدار المصحف جميعه مرة ونصفا فيذكر الكلمة من ناحية تركيبها الهجائى عكسا وطردا وتبديل موقع حروف وثنائيا وثلاثيا ورباعيا وخماسيا وسداسيا، ثم من ناحية اشتقاقها ومعانيها فى كل هذه التركيبات الهجائية والأوزان الصرفية، ثم من ناحية صرفها ونحوها ومداها الفلسفى والمنطقى والكلامى والجدلى والذهنى والاستعمالى والحسى والنفسى والتصورى والفقهى، مع استعراض أقوال

http://kotob.has.it

وافتراض أسئلة وإيراد ردود وأجوبة إلى آخره، فلا يلبث القارئ كما قلنا أن ينسى أنه يقرأ تفسيرا للقرآن وإنما معلمه فيها كل شيء ما حمل بعض العلماء على القول أن فيه كل شيء عدا التفسير.

وبنفس هذا الأسلوب الاستطرادى ذى النفس الطويل يتناول البحث فى ماهية كل موضوع، سواء أكان ذلك من مشاهد الكون والخلق والتكوين، أم من مشاهد الآخرة أم من مواضيع الملائكة والجن والشياطين فيستعرض أقوال مختلف الفئات من طبعيين وإلهيين وفلاسفة وملاحدة وفرق إسلامية فى تلك المشاهد وهذه المواضيع وأدلتهم واعتراضات خصوم كل فئة وفرق وأدلتهم ويناقش ويجادل ويقرر ويصوب ويخطئ.

وبنفس الأسلوب يدخل فى بحوث جدلية كلامية فيورد أقوال مختلف الفئات والفرق وأدلتهم واعتراضاتهم على خصومتهم ويناقش ويجادل ويقرر ويصوب ويخطئ أيضا:

ومع ما على كلام المؤلف من طابع الاستقلال بوجه عام وما تدل عليه استطراداته وتعليقاته واستدراكاته ومنقولاته من قوة العقل وسعة الأفق والنظر والمشاركة الواسعة فى مختلف العلوم والمواضيع وإلهيات وطبيات إلى آخره فإن المدقق فيها يجد كثيرا من التكلف والتحكم والاضطراب والتخمين والمفارقة والمبالغة والإغراب فى مواضع ومواضيع كثيرة يرى القارئ شيئا منها فى بعض الأمثلة التى سننقلها عنه بعد قليل.

وهذا بالإضافة إلى نظره فى القرآن جملة جملة وعبارة عبارة وسوقه التعليقات والاستطرادات على هذا الاعتبار فى الأعم الأغلب، وإلى ما فى كتابه فى صدد القصص القرآنية من تعليقات فيها ما فى كتب غيره من المبالغات والتهافت والمفارقات والإغراب، وإلى ما فى كتابه مع طابع الرأى والشخصية من الأحاديث الكثيرة المعزوة إلى الصحابة والتابعين ومن الأحاديث النبوية التى أوردت فى سياق التعليقات والاستطرادات ومناسبات النزول فيها شيء كثير لا يستند إلى إسانيد موثقة ولا يثبت على النقد والتمحيص.

والكتاب جميعه أمثلة على ما قلناه آخذ بعضها برقاب بعض حتى أن الناظر فيه لا يجد أى صعوبة فى تلقف الأمثلة فى سياق أى جملة أو عبارة قرآنية. ومع أن نقل نماذج فى هذا المقام مؤد إلى التطويل بسبب كثرة التداخل والتفريع نحو الاستطراد وطول النفس، فإننا رأينا أن نورد بعض المقتطفات الموضوعية مع مثال أسلوبى واحد.

(١) تساءل المؤلف فى سياق جملة ﴿أو كصيب من السماء﴾ (سورة البقرة) عن فائدة ذكر السماء مع أن الصيب لا يكون إلا من السماء. وأجاب بقوله إن ذلك لئلا يظن احتمال نزول الصيب من بعض جوانب السماء دون بعض، فلما ذكرت السماء دل على أنه عام مطبق آخذ بآفاق السماء

http://kotob.has.it

جميعا. ثم استطرد فقال إن من الناس من قال إن المطر يحصل من ارتفاع أبخرة من الأرض إلى الهواء فتنعقد هناك من شدة برد الهواء ثم تنزل مرة أخرى فذاك هو المطر فأبطل الله ذلك المذهب حيث بين أن الصيب نزل من السماء، وأكده في آيات أخرى مثل ﴿وأنزلنا من السماء ماء طهورا.. ﴾ (سورة الفرقان) و﴿ينزل من السماء من جبال فيها من برد﴾ (سورة النور) والتكلف في التساؤل واضح كما أنه ربط في استطراداته نظرية ماهية المطر بنصوص قرآنية وفي هذا تعريض للقرآن للنقاش الجدلي.

(٢) قال في سياق تعبير ﴿يا أيها الناس.. ﴾ (سورة البقرة) أنه روى عن علقمة والحسن أنهما قالا إن كل شيء في القرآن يبدأ بهذا النداء فإنه مكي وما ابتدئ بنداء المؤمنين فهو مدني. ثم قال إن القاضي قال إن هذا الذي ذكروه أن كان مرجعه النقل فمسلم به وإن كان السبب فيه حصول المؤمنين في المدينة على الكثرة دون مكة فهو ضعيف لأنه لا يجوز أن يخاطب المؤمنين مرة بصفتهم ومرة بجنسهم، وقد يؤمر من ليس بمؤمن بالعبادة كما يؤمر المؤمن بالاستمرار عليها فالخطاب في الجميع يمكن وغفل هو والقاضي ومن نقل عن علقمة والحسن أو هذان إذا كانا قالا القول الذي نقل عنهما عن واقعية وقطعية مدنية آيات فيها الخطاب بنداء المسلمين مثل آية النساء الأولى والآية (١٧٠) منها ومثل آية الحجرات (١٣) مثلا، فأراد القائلون أن يحلوا المسألة بالمنطق أو التعليم بالنقل مهما كان بادي الوهن دون الواقع الراهن.

(٣) قال في سياق جملة ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشا.. ﴾ (البقرة) إنها دليل على أن الأرض ساكنة غير متحركة لا بالاستقامة ولا بالاستدارة فلو كانت متحركة بالاستقامة لما كانت فراشا على الإطلاق لأن من ظفر من موضع عال يجب أن لا يصل إلى الأرض لأنها هاوية وذلك الإنسان والأرض أثقل من الإنسان والثقيلان إذا نزلا كان أثقلهما أسرعهما فثبت أنها لو كانت هاوية لما كانت فراشا.. وأما لو كانت حركتها بالاستدارة فلا يمكن انتفاعنا بها لأن حركة الأرض إذا كانت إلى المشرق مثلا والإنسان يريد أن يتحرك إلى جانب الغرب فيجب أن يبقى في مكانه ولا يستطيع أن يصل إلى حيث يريد لأن حركة الأرض أسرع ولما أمكنه الوصول علمنا أن الأرض غير متحركة بالاستدارة أيضا.

(٤) تساءل عن أيهما أفضل الأرض أم السماء في سياق آية البقرة (٢٢) فأورد أربعة أقوال لمفضلي السماء على الأرض هي (١) أن السماء متعبد الملائكة وما فيها بقعة عصى الله فيها أحد (٢) أن آدم لما ارتكب المعصية قيل له اهبط من الجنة وقال الله لا يسكن في جواري من عصاني (٣) أن ذكر السماء على الأغلب قد ورد مقدما والتقديم دليل التفضيل (٤) إن الله قال

http://kotob.has.it

﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظا.. ﴾ (سورة الأنبياء) و ﴿تبارك الذى جعل فى السماء بروجـــا..﴾ (سورة الفرقان) ولم يذكر الأرض فى ذلك، ثم أورد أقوال مفضلى الأرضى وهـــى (١) أن الله وصف بقاعا من الأرض بالبركة (٢) والله وصف جملـــة الأرض بالبركـــة (٣) أن الله خلـــق الأنبياء من الأرض (٤) إن الله كرم الأرض بالخلق منها فى حين أنه لم يخلق من السماء شـــيئا (٥) إن الله كرم نبيه فجعل له الأرض كلها مسجدا وجعل له ترابها طهورا.

(٥) ومما قاله فى تعليل طلوع القمر وغيابه أن الله جعل فى كلا الحالتين مصلحة، ففى غروبه نفـــع لمن هرب من عدوه فيستره الظلام ويخفيه فلا يلحقه طالب فينجو، وفى طلوعه نفع لمن ضـــل عنه شيء وأخفاه الظلام قبل الطلوع.

(٦) وقال فيما قاله فى سياق جملة ﴿إذ قال ربك للملائكة ..﴾ (سورة البقرة) روى أن بنى آدم عشـــر الجن وأن الجن عشر حيوانات البر وهؤلاء كلهم عشر الطيور وهؤلاء كلهم عشـــر حيوانـــات البحر وهؤلاء كلهم عشر ملائكة الأرض الموكلين بها وكل هؤلاء عشر ملائكة السماء الدنيـــا، وكل هؤلاء عشر ملائكة السماء الثانية، وعلى هذا الترتيب إلى السماء السابعة، ثم الكـــل فـــى مقابلة ملائكة الكرسى نزر قليل، ثم كل هؤلاء عشر ملائكة السرادق، وعدد سرادقات العـــرش ستمائة ألف وطول كل واحد وعرضه وسمكه إذا قوبلت به السماوات والأرض وما فيها ومـــا بينها فإنها كلها تكون شيئا يسيرا وقدرا صغيرا، ثم كل هؤلاء فى مقابلة الملائكة الذين يحومـــون حول العرش كالقطرة من البحر ولا يعلم عددهم إلا الله، ثم هؤلاء فى مقابلة ملائكة اللوح الذين هم أشياع إسرافيل والملائكة الذين هم جنود جبرائيل مثل ذلك. ثم استطرد فقال إنه قـــرأ فـــى بعض الكتب أن النبىﷺ حين عرج به رأى الملائكة بمنزلة سوق بعضهم يمشى تجاه بعض قال جبريل أين يذهبون فقال لا أدرى إلا أنى أراهم منذ خلقت ولا أرى واحدا منهم قد رأيتـــه قبـــل ذلك، ثم سألوا واحدا منهم مذ كم خلقت فقال لا أدرى غير أن الله تعـــالى يخلـــق كوكبـــا كـــل أربعمائة ألف سنة فخلق الله مثل ذلك الكوكب منذ خلقنى أربعمائة ألف. وروى فى سياق الجملة القرآنية المذكورة عن ابن عباس أن النبى بينما كان فى ناحية ومعه جبريل إذ انشق أفق السماء فأقبل جبريل يتضاءل ويدخل بعضه فى بعض ويدنو من الأرض فإذا ملك قد مثل بيـــن يـــدى رسول الله فقال يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويخيرك بين أن تكون نبيا ملكا أو نبيا عبدا قـــال عليه الصلاة السلام فأشار إلى جبريل بيده أن تواضع فعرفت أنه لى ناصح فقلـــت عبـــدا نبيـــا فعرج ذلك الملك إلى السماء، فقلت يا جبريل قد كنت أردت أن أسألك عن هذا فرأيت من حـــالك ما شغلنى عن المسألة فمن هذا يا جبريل، قال هذا إسرافيل خلقه الله يوم خلقه بين يديه صافـــا

http://kotob.has.it

قدميه لا يرفع طرفه وبينه وبين الرب سبعون نورا ما منها نور يدنو منه إلا احترق، وبين يديه اللوح المحفوظ فإذا أذن الله فى شىء من السماء أو من الأرض ارتفع ذلك اللوح بقرب جبينه فنظر إليه فإن كان من عملى أمرنى به، وإن كان من عمل ميكائيل أمره به وإن كان من عمل ملك الموت أمره به، قلت على أى شىء أنت يا جبريل قال على الرياح والجنود، قلت على أى شىء ميكائيل قال على النبات، قلت على أى شىء ملك الموت، قال على قبض الأنفس، وما ظننت أنه هبط إلا لقيام الساعة، وما ذاك الذى رأيت منى إلا خوفا من قيامها.

وهذا مثال أسلوبى منه قال: إن جملة ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم ..﴾ (سورة البقرة) تحتوى مسائل (المسألة الأولى) طرز الخطاب وفيها فوائد (الفائدة الأولى) تحريك السمع (الثانية) توجيه الخطاب (الثالثة) الانتقال من الغيبة إلى الحضور (الرابعة) الأمر بالتكليف (المسألة الثانية) احتوت شرح كفة الناس ومداها واشتقاقها (المسألة الثالثة) فى النداء فذكر وجوه النداء ومواقعه أولا وثانيا وثالثا (المسألة الرابعة) فى حروف النداء (المسألة الخامسة) فى صلة النداء (المسألة السادسة) فى الأمر الذى احتوته الجملة وفيها أبحاث (الأول) حرف التعريف ومداه (الثانى) موضع الخطاب (الثالث) شموله وعدم شموله للسامعين (الرابع) مدى الأمر بالعبادة (الخامس) ما إذا كان يتناول الكفار (السادس) إنكار التكليف وأقوال المفكرين فأورد منها خمسة ورد على كل منها (السابع) استثناءات شمول التكليف (المسألة الثامنة) سبب الدعوة للعبادة ومنها يستطرد إلى الجملة الثانية من الآية "الذى خلقكم" وهذا الذى ذكرناه رؤوس أقوال فإن المؤلف قد شرح كل مسألة وكل بحث وكل فائدة احتوتها المسألة شرحا وافيا بإيراد الوجوه ووجوه الاعتراض والأقوال والأدلة والرد عليها الخ واستغرق الكلام على هذه الجملة وحدها وهى نصف آية خمس صحف كبيرة وهناك جمل كثيرة جدا استغرق الكلام عليها أكثر مما استغرقه الكلام على هذه الجملة، واستفاض الكلام فيها استفاضة أبعد عن الشروح اللغوية والنظمية، وجاء فيها استطرادات ضعيفة الصلة جدا بالجملة ومداها.

ونظن أننا فى غنى عن القول إن هذا الأسلوب مشوش على الناظر فى القرآن والراغب فى تفهم مراميه ومبادئه واستيحاء توجيهاته وأحكامه وتلقيناته الكافلة لسعادة الدارين، والتى هى الأصل والجوهر فيه وفى الدعوة التى قامت عليه! وهذا فضلا عما فيه من مآخذ التكلف والتخمين والتزيد والإغراب وإيراد الأقوال والروايات المتهافتة والاستغراق فى الجدل والماهيات الكونية والغيبية والعقائدية.

وإذا كان اختصصنا تفسير الرازى بالكلام فى هذه الفقرة فإننا لا نعنى أنه هو وحده الذى سارع على هذا الأسلوب فهناك تفاسير عديدة وكثيرة التفريع والاستطراد إلى ما لا صلة له بتفسير القرآن

http://kotob.has.it

إلا ما يمكن أن يكون من صلة بعيدة لغوية أو موضوعية ذكر الإتقان منها تفسر الثعلبي. وقد اطلعنا في إحدى مكتبات بورسة على تفسير مخطوط ضخم وعديد المجلدات اسمه العادلي ينحو مؤلفه هذا النحو.

ولعل تفسير المنار من التفاسير الحديثة مما يصح أن يسلك في هذا السلك. فقد صدر منه اثنا عشر مجلدا تبلغ صفحاتهما نحو ستة آلاف من القطع الكبير والحرف الدقيق لتفسير اثنى عشر جزءا من القرآن أي أن الله لو فسح في حياة مؤلفه العظيم وأتمه لبلغت صفحاته خمسة عشر ألفا أي أكثر من ضعف تفسير الرازي، ولعله يكون بذلك أضخم تفسير في القديم والحديث. وقد توسع مؤلفه في البحوث وأكثر من الاستطرادات والتفريعات والتعليقات والتزم في كثير منها على أسلوب المناظرة وخاصة بين الإسلام والنصرانية ومبشري النصارى وكتابهم بحيث يكاد القارئ ينسى أنه يقرأ تفسيرا وبحيث يصعب التفرغ لقراءته، فأبعده ذلك فيما نعتقد عن أن يكون التفسير المثالي، مع أن التمحيص والتدقيق في بحوثه غالبان، والتكلف والتهافت فيها قليلان وقد تم عن فهم عميق لأهداف القرآن ومراميه، بحيث يعد بحق أحسن المؤلفات الإسلامية القرآنية الكبيرة وأقومها وأقواها وأشدها حرارة وحيوية. وهو من هذه الناحية معلمة إسلامية قرآنية عظيمة القدر من الخسارة أن يموت مؤلفها قبل إتمامها، وفرق كبير من ناحية التمحيص والتدقيق وقلة التكلف والتهافت والإغراب بينه وبين تفسير الرازي وغيره من التفاسير الكبيرة القديمة والحديثة.

ولقد اطلعنا على تفسير حديث نشر معظمه للأستاذ المراغي[1] ومع أن قصد التحرز والتحاشي وعدم الإغراب والسير بأسلوب قريب المتناول على أوساط الأفهام ملموس فيه فإنه يأخذ كثيرا من الروايات والأقوال الضعيفة وغير المتسقة مع الآيات سندا أو كقضايا مسلمة ولا يندمج في جو القرآن ونزوله وبيئته، وليس فيه تلك الحرارة والحيوية اللتين تثيران الاهتمام والشوق فضلا عن تفصيلات كثيرة لا طائل من ورائها أدخلته في عداد كتب التفسير الضخمة التي لا تسمح لكثير من الراغبين بالإحاطة به واستيعابه حيث تبلغ صفحاته نحو سبعة آلاف ونيفا، وكل ذلك لا يجعله تفسيرا مثاليا فيما نعتقد.

بالإضافة إلى ما شرحناه من الثغرات وأوردناه من التعليقات والمآخذ حول كل مبحث من مباحث هذا الفصل فإن هناك بحوثا وآراء دارت حول القرآن، وكانت فيما يتبادر لنا مظاهر عامة مشتركة بين هذه الثغرات يصح أن تشرح وأن يعلق عليها في هذا المقام.

---

[1] هو غير المرحوم شيخ الأزهر.

http://kotob.has.it

روايات نزول القرآن جملة واحدة وأثرها :

فلولا من ذلك الآثار المروية بأن القرآن قد نزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا ثم صار ينزل على النبى خلال مدة حياته بعد بعثته. فالذى يبدو لنا أنه كان لهذه الآثار أثر قليل أو كثير فى بعض الثغرات التى ذكرناها أو بالأحرى فى أكثرها، بحيث صارت عاملا بين حين وآخر وبقصد وغير قصد فى إغفال صلة الفصول القرآنية بالسيرة والبيئة النبوية، ومفهوم الأساليب الخطابية العربية ومدارك سامعى القرآن ومألوفاتهم ومتداولاتهم وعاملا كذلك فى إسباغ معان خاصة أو مستقلة على الألفاظ والأساليب القرآنية، واستخراج معان خاصة منها تباعد بينها وبين نزول القرآن وجو البيئة النبوية التى تتصل بالقرآن ونزوله وأساليبه وألفاظه اتصالا مباشرا ووثيقا على ما شرحناه فى مناسبة سابقة.

ومع أن من العلماء من توقف فى التسليم بمدى هذه الآثار ورأى فيها تعارضا مع ما فى القرآن من ناسخ ومنسوخ وجدل، وقال إن القرآن كان ينزل على قلب النبى من عند الله منجما حسب الحوادث كان كثيرا منهم أخذوا بها ، كما يبدو من التدقيق فى مختلف الكتب والتفاسير القديمة التى كانت عماد كتب التفسير قليلا أو كثيرا، ومنهم من جمع بين الأخذ بها وبين القول بنزول القرآن حسب الحوادث معا: وجل هذه الآثار إن لم يكن كلها منسوب إلى ابن عباس مع اختلاف فى النصوص والطرق:

١- فقد أخرج الحاكم من إحدى الطرق عن ابن عباس أنه قال "أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر ثم أنزل بعد ذلك فى عشرين سنة ثم قرأ ﴿وقال الذين كفروا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا﴾ (سورة الفرقان : ٣٢)

٢- واخرج الحاكم كذلك بطريق أخرى عن ابن عباس أنه قال "فصل القرآن من الذكر فوضع فى بيت العزة من الذكر فوضع فى بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبى ﷺ.

٣- وأخرج الطبرانى من إحدى الطرق عن ابن عباس قال "أنزل القرآن فى ليلة القدر إلى سماء الدنيا جملة واحدة ثم أنزل نجوما.

٤- وأخرج الطبرانى كذلك عن ابن عباس من طريق أخرى أنه قال "أنزل القرآن جملة واحدة حتى وضع فى بيت العزة فى السماء الدنيا ونزله جبريل على محمد بجواب كلام العباد وأعمالهم.

٥- وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن عباس "أن القرآن دفع إلى جبريل فى ليلة القدر جملة واحدة ثم جعل ينزله تنزيلا".

http://kotob.has.it

٦- وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قال "نزل القرآن جملة واحدة من عند الله من اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين فى السماء الدنيا فنجمته السفرة على جبريل عشرين ليلة ونجمه جبريل على النبى عشرين سنة. وقد سبقت هذه الروايات فى سياق هذه الآيات:

١- ﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن﴾. (البقرة : ١٨٥)

٢- ﴿أنا أنزلناه فى ليلة مباركة أنا كنا منذرين﴾. (الدخان : ٣)

٣- ﴿أنا أنزلناه فى ليلة القدر﴾. (القدر : ١)

ووردت متقاربة المدى مع بعض التباين فى الصيغة فى التفسير المنسوب إلى ابن عباس وفى تفاسير عديدة مثل الطبرى والكشاف والخازن وأبى السعود والبيضاوى جريا على العادة من اتخاذ المفسرين الروايات الواردة فى أغلب الأحيان عمادا للتفسير مهما كان أمرها ورواتها على ما شرحناه فى مناسبة سابقة.

ولم يقتصر الأمر على الروايات المعزوة إلى ابن عباس فإن بعض العلماء رووا روايات وقالوا أقوالا أخرى فى الموضوع فقال أبو شامة وهو من علماء القرآن باحتمال أن يكون القرآن قد أنزل إلى السماء قبل نبوة النبى ﷺ. وروى عن عكرمة أنه قال إن آية ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ (سورة الواقعة) تعنى نزول القرآن منجما من السماء الأولى.

وعلق بعض العلماء والمفسرين على ما تضمنته الروايات تعليقات تطبيقية وتوفيقية على اعتبار أنها قضية مسلمة فقال أبو شامة إن السر فى إنزاله إلى السماء تفخيم أمره وأمر من نزل عليه، وذلك بإعلام سكان السماوات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم قد قربناه إليهم لننزله عليهم، ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجما حسب الوقائع لهبط به الأرض جملة واحدة كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله باين بينه وبينها فجعل له الأمرين بإنزاله جملة ثم إنزاله مفرقا!.. وقال الحاكم الترمذى أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا تسليما منه للأمة ما كان أبرز لهم من الحظ بمبعث محمد، وذلك أن بعثة محمد كانت رحمة فلما خرجت الرحمة بفتح الباب جاءت بمحمد وبالقرآن فوضع القرآن ببيت العزة فى السماء الدنيا ليدخل فى حد الدنيا ووضعت النبوة فى قلب محمد، وجاء جبريل بالرسالة ثم بالوحى، كأنه تعالى أراد أن يسلم هذه الرحمة التى كانت حظ هذه الأمة من الله..! وقال السخاوى إن فى إنزاله إلى السماء جملة واحدة تكريما لبنى آدم وتعظيما لشأنهم عند الملائكة، وتعريفهم عناية الله بهم ورحمته لهم، ولهذا أمر سبعين

http://kotob.has.it

ألفا من الملائكة أن تشيع سورة الأنعام[1]، وزاد سبحانه فى هذا المعنى بأن أمر جبريل بإملائه على السفرة الكرام وإنساخهم إياه وتلاوتهم له، وفيه تسوية بين نبينا وبين موسى فى إنزاله كتابه جملة، والتفضيل لمحمد فى إنزاله جملة ومنجما.. ! وجاء فى تفسير الخازن فى سياق سورة القدر وبعد إيراد الروايات المذكورة سابقا: قيل إنما أنزله إلى سماء الدنيا لشرف الملائكة بذلك ولأنها كالمشترك بيننا وبين الملائكة فهى لهم سكن ولنا سقف وزينة، وذكر السيوطى فى إتقانه أنه ورد فى تفسير النيسابورى أن جماعة من العلماء قالوا نزل القرآن جملة ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى بيت يقال له بيت العزة فحفظ جبريل وغشى على أهل السماوات من هيبة كلام الله فمر بهم جبريل وقد أفاقوا وقالوا ماذا أنزل ربكم قالوا الحق يعنى القرآن وهو معنى قوله تعالى ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير..﴾ (سورة سبا : ٢٣)، فأتى به جبريل إلى بيت العزة فأملاه على السفرة الكتبة يعنى الملائكة وهو معنى قوله تعالى ﴿بأيدى سفرة، كرام بررة.. ﴾ (عبس : ١٥-١٦) وآية سبأ جاءت فى سياق مشهد من مشاهد الآخرة وفيه إنذار وتنديد بالكفار وحكى فيه موقف من مواقف الجدل بينهم وبين النبى ﷺ ولا صلة قط بينه وبين المعنى أو المشهد الذى أورده النيسابورى، وفى هذا مثل آخر لأخذ المفسرين الآيات آية آية أو جملة من آية وعدم ملاحظتهم السياق الذى جاءت فيه.. ومنهم من ناقش ما إذا كانت جملة ﴿إنا أنزلناه فى ليلة القدر﴾ من جملة القرآن الذى نزل جملة واحدة أم لا لأنها تتضمن أخبارا وتوهم التعارض، ثم خرجوها بأن معنى أنزلناه فى الجملة قضيناه وقدرناه[1].

كل هذا فى حين أن هذه الأقوال وخاصة المعزوة إلى ابن عباس وهى الأصل فيها ليست مرفوعة إلى النبى، وهى أخبار عن غيب متصل بعلم الله وسر ملكوته ووجوده لا يمكن العلم بها إلا عن طريق النبى وهو ما لم يثبت فيما اطلعنا عليه، ونستبعد صدورها عن ابن عباس لما فيها من تخمين فى أمر لا يصح أن يلقى الكلام فيه جزافا ومن غير سند نبوى ثابت أو صراحة قرآنية.

وفى الروايات الوثيقة الواردة أن الوحى نزل لأول مرة على النبى بأول آيات القرآن فى ليلة من ليالى رمضان وهو معتكف فى غار حراء على عادته من الاعتكاف فى هذا الشهر، وما احتوته آيات البقرة والدخان والقدر هو فيما نعتقد إشارة إلى هذا الحادث، وقد جاءت كلمة القرآن فى أوائل سورة المزمل التى من أوائل القرآن نزولا ثم ظلت تتكرر فى السورة المكية والمدنية، وكانت تعنى بطبيعة الحال الجزء الذى تم نزوله على قلب النبى، وفى هذا دليل على أن تعبير ﴿أنا أنزلناه﴾ فى آيتى

---

(١) هناك حديث روى عن النبى ﷺ بذلك.

(١) الأقوال التى أوردناها قد ورد جلها فى الإتقان للسيوطى .

http://kotob.has.it

(الدخان والقدر) وجملة ﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن﴾ فى آية (البقرة) لا تقتضى أن تكون قصدت جميع القرآن ما يمكن أن يكون محل أشكال أريد تخريجه على الوجه الذى خرج به.

ولقد أورد السيوطى فى إتقانه حديثا نبويا برواية وائلة بن الأسفع جاء فيه أن النبىﷺ قال إن التوراة نزلت لست مضين من رمضان والإنجيل لثلاث عشرة والزبور لثمانى عشرة والقرآن لأربع وعشرين خلت منه،وسيق هذا الحديث فى معرض تلك الآيات والروايات والأقوال، ومهما يكن من أمره فليس من شأنه على فرض صحته أن يؤيد تلك الأقوال والروايات لأنه ليس فيه صراحتها، وليس من المستبعد أن يكون أريد به الإشارة إلى أول نزول الكتب السماوية بما فيها القرآن كما هو الواقع المروى فى الأحاديث الصحيحة بالنسبة إلى القرآن.

ومن الطريف أن بعض المعلقين استنبط على ما ذكره السيوطى من عدم الرد على الكفار فيما تحدوه من إنزال القرآن جملة واحدة صحة ما قيل من أن الكتب السماوية نزلت جملة واحدة وقال إنها لو لم تكن نزلت جملة واحدة لكان القرآن رد على المتحدين.

وإذا كان بعض العلماء توقف فيما إذا كانت جملة ﴿أنا أنزلناه فى ليلة القدر﴾ هى من جملة القرآن الذى نزل جملة واحدة أم لا لأنها تتضمن أخبارا وتوهم التعارض فكم بالأحرى الآيات الكثيرة المماثلة ثم الفصول الكثيرة جدا الواردة فى مختلف السور والتى تحكى حجاج الكفار وجدلهم فى القرآن وتحديه أو تحكى مواقف الكفار من الدعوة النبوية ومن إنذارات القرآن وتبشيراته باليوم الآخر وحسابه وثوابه وعقابه، وهزؤهم بالنبى وتحديه بإحداث المعجزات وإنزال الملائكة الخ، ثم التى تحكى وقائع السيرة الجهادية والتشريعية، ثم التى تندد بالكفار وتصور عنادهم وتحتم لهم الخلود فى النار، وتلك التى تذكر إسلام كثير منهم وتوبة الله عليهم وانتقالهم من صف الكفار إلى صف المسلمين ومن مصير الخلود فى النار إلى الخلود فى الجنة. وأمثال ذلك مما كان يقع نتيجة لسير الدعوة وظروفها الطارئة ومما يغلب عليه طابع الوسائل التدعيمية لأهداف القرآن وأسسه ودعوته. ولا ندرى كيف سوغ القائلون لأنفسهم بعد هذا أن يقولوا إن القرآن – وهم يعنون جميع ما بين الدفتين من أسس ووسائل – قد نزل جملة واحدة يوم بعثة النبىﷺ أو قبله.

وعلى كل حال فإن ما ساقه القائلون فى حكمة إنزال القرآن جملة واحدة إلى السماء عند بدء النبوة أو قبلها وكذلك ما علقوا به من تعليقات هى الأخرى أقوال تخمينية، وفيها من التكلف والتزيد بل والتهافت ما يستطيع أن يلمسه المدقق الذى يمعن النظر، وأن القول فى أصله يظل غير مفهوم الحكمة، وغير متسق مع طبائع الأمور وحقائق الأشياء ولقد غاب عنهم فيما يتراءى لنا أن القرآن بصفته وحى الله قد تحققت فيه جميع معانى التعظيم والتفخيم والتكريم، وأنه ليس فى حاجة إلى المزيد

http://kotob.has.it

بمثل هذه المظاهر كما غاب عنهم أنهم يقررون ماهيات مادية عن السماء الأولى وبيت العزة والحفظة والسفرة والتوزيع على جبريل وتلقى جبريل عنهم، ويصفون مشاهد إبصارية لا يصح إلقاء الكلام فيها جزافا، وليس عندهم أى دليل نقلى ثابت وصحيح صادر عن النبى الذى هو وحده صاحب الحق فى الإخبار عن الغيبيات.

ومهما يكن من أمر فإن هذه الأقوال تدل على أن كثيرا من الناظرين فى القرآن وعلمائه ومفسريه اعتبروا أو يقع الوهم بأنهم اعتبروا القرآن- ومن جملته الفصول الوسائلية والتدعيمية والوقائع الجهادية والأسئلة والأجوبة ومواقف التحدى والجدل والحجاج المتقابلة- مستقلا فى أصله عن الأحداث التى نزل بمناسباتها، وكون هذه الأحداث ليست إلا ظروفا عابرة لنزوله حتى مع قولهم إن القرآن قد نزل منجما حسب الحوادث- لأن هذا يبدو غريبا إزاء القول إن القرآن نزل فى بدء نبوة النبى أو قبلها جملة واحدة إلى سماء الدنيا- فقالوا ما قالوه ولعوا بما ولعوا به من أسرار القرآن، واستقراء حروفه ورموزه ومغيباته واستغرقوا فى ماهيات ما جاء فيه من مشاهد كونية وقصص تاريخية وحاولوا أن يستخرجوا حقائق ما كان ويكون من الوقائع والعلوم ونظرياتها، وفى هذا ما فيه من التكلف والتجاوز والتشويش وتعريض القرآن للمغامز والمطاعن فى حين أنه لا طائل من ورائه ولا ضرورة له ولا إسناد وثيقة تدعمه.

روايات نزول القرآن بالمعنى وأثرها :

ثانيا : ومن ذلك ما قاله بعض العلماء من نزول القرآن على قلب النبى بالمعنى لا باللفظ. فقد ذكر صاحب الإتقان هذا الموضوع فى فصل كيفية نزول القرآن على قلب النبى بالمعنى لا باللفظ. فقد ذكر صاحب الإتقان هذا الموضوع فى فصل كيفية نزول القرآن، وقال إن هناك أربعة أقوال (١) أنه نزل باللفظ والمعنى وأن جبريل حفظ القرآن من اللوح المحفوظ ونزل به (٢) أن جبريل إنما نزل به بالمعانى خاصة وأن النبىﷺ علم تلك المعانى وعبر عنها بلغة العرب، واستند قائلوا هذا القول بظاهر قوله تعالى﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾ (الشعراء:١٩٣- ١٩٤).

(٣) أن القرآن ألقى إلى جبريل بالمعنى وأنه عبر عن المعانى بالألفاظ العربية وبها نزل على النبى، وأن أهل السماء يقرأونه بالعربية(٤) أن الوحى نزل باللفظ حينا وبالمعنى حينا، فما نزل باللفظ فهو القرآن وما نزل بالمعنى فهو السنة، أى أن الأحاديث النبوية هى أيضا وحى ربانى ولكنها نزلت بالمعنى، وعلل أصحاب هذا القول أنه كان يقصد التخفيف عن الأمة، ولذلك جازت رواية الأحاديث النبوية بالمعنى.

http://kotob.has.it

ويلاحظ أن هذه الأقوال تخمينية، ولم يورد قائلوها إسنادا موثقا لها فى حين أن الموضوع متصل بسر وحى الله وسر النبوة كذلك، فهو أمر غيبى إيمانى لا يصح قول شىء فيه إلا بنص صريح من قرآن أو حديث ثابت عن النبى ﷺ، وما دام أنه لم يرد شىء من ذلك، وأن النبى قد بلغ القرآن الموحى به إليه بألفاظه العربية التى دونت وحفظت عنه بالتواتر اليقينى فليس من محل للقول بأن القرآن أوحى إليه بالمعنى كما أنه ليس من ورائه طائل، وأن الحق فى هذا هو ما يتسق مع الواقع وحسب وهو أن ما بلغه النبى من ألفاظ القرآن هو ما نزل الوحى به على قلبه، وأنه لا يصح أن يعدل عن هذا إلى غيره بالظن والتخمين.

على أن النصوص القرآنية هى فى جانب ما نقول أيضا أكثر منها فى الجانب الآخر أو فى جانب السكوت. فآيات يوسف(٢) والزخرف(٣) والزمر (٢٨) وفصلت (٣و٤٤) التى تذكر تنزيل القرآن عربيا وجعله عربيا – وقد نقلناها فى مناسبات سابقة – تحتوى قرائن بل دلائل قوية على قصد تقرير كون الألفاظ العربية التى بلغها النبى هى ما نزل الوحى به على قلبه.

ومن الغريب أن القائلين بنزول القرآن بالمعنى استندوا إلى آيتى الشعراء ١٩٣-١٩٤ اللتين نقلناهما وغفلوا عما بعدها ﴿بلسان عربى مبين﴾ (١٩٥) كما هى العادة من أخذ آية دون آية ودون سياق للتدليل بها على رأى ما، فى حين أن بعدهما أى الآية (١٩٥) يحتوى ما ينقض ذلك بصراحة، ومن الغريب أكثر أن لا يحتج القائلون بنزول القرآن بألفاظه بهذا النص القرآنى للصريح القاطع.

ومما يجدر التنبيه عليه فى هذه المناسبة أن القول بأن الأحاديث النبوية مما كان ينزل به الوحى بالمعنى على إطلاقه لا يتسق مع الواقع والنصوص القرآنية. فقد احتوت آيات عديدة عتابا للنبى على بعض الحوادث والوقائع والمواقف والأقوال التى صدرت منه، بل وعلى بعض الأفكار والخطرات التى دارت فى ذهنه فى العهد المكى والعهد المدنى على السواء، مما تشير إليه آيات سورة عبس ١-١٠ والإسراء ٧٣-٧٥ وهود ١٢ والأنفال ٦٧-٦٨ والتوبة ٤٣و ١١٣-١١٧ والأحزاب ٣٧ والتحريم ١-٢ والنساء ١٠٥-١١٣، فلو كان ما قاله النبى وفعله وفكر فيه وحيا على إطلاق القول لما كان محل لمعاتبته.ولقد أثر عن النبى ﷺ حوادث وأخبار وأحاديث كثيرة ووثيقة فى تقرير كونه بشرا قد يخطئ ويصيب فى اجتهاداته فى أمور الدنيا وسياستها وفيما يبدو له من ظواهر الأمور التى لا يكون مطلعا على بواطنها وملابساتها، وأنه لا يحلف على شىء فيرى ما هو خير إلا كفر عن يمينه وأتى الذى هو خير الخ.

ولقد استند القائلون بالوحى العام الشامل إلى آيتى سورة النجم ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى﴾ (٣-٤) مع أن روح الآيات وسياقها هما فى صدد توكيد صحة ما أخبر به النبى عن

http://kotob.has.it

اتصال وحي الله به بصورة عامة كما هو المتبادر منها، وهو ما تكررت في صدده الآيات واستهدفته، وأن من التجوز تشميل مداها لكل قول صدر عن النبي لتعارض ذلك مع الوقائع والنصوص.

ونريد أن ننبه على نقطة مهمة، فنحن لا نعني بما نقرره أن لا يكون النبيﷺ في كثير مما قاله وفعله وأمر به ونهى عنه وخاصة مما لم ينزل فيه قرآن ناقض أو معدل أو معاتب ملهما به من الله، ففي القرآن دلائل عديدة على أن كثيرا مما وقع من النبي قبل نزول قرآن به قد وقع بإلهام رباني، وأن القرآن الذي نزل بذلك جاء مؤيدا له فيه، كما أن جميع ما ثبت عن النبي ﷺ من سنن قولية وفعلية، وأوامر ونواه مات عنها دون أن ينقضها هو أو القرآن هو تشريع واجب الاتباع بنص القرآن[1]، وإنما الذي نعنيه التعليق على القول بأن جميع ما صدر عنه من قول وفعل إطلاقا، وبأن جميع السنن النبوية القولية وحي من جنس الوحي القرآني مع فارق واحد وهو أن هذا باللفظ وذاك بالمعنى مما لم يرد ما يؤيده من حديث نبوي ثابت أو نص قرآني صريح، ومما لا يجوز الكلام فيه بالظن والتخمين والاجتهاد. وفي القرآن مشاهد كثيرة تدل على أن النبيﷺ كان يجتهد في أمر فينزل القرآن مؤيدا له ومثبتا فيه ومنددا بالذين وقفوا منه موقف المخالفة أو التردد أو التمرد، فلو كان ذلك وحيا من جنس الوحي القرآني مع ذلك الفارق لكان يقتضي أن ينص عليه حين صدوره عن النبيﷺ، أو حين تثبيت النبي فيه قرآنيا بعد صدوره أنه كان وحيا ربانيا وهذا لم يقع.

ولقد استهدف بعض الذين قالوا ذلك تقرير العصمة النبوية. وننبه على أن ما نقرره لا يمس هذه العصمة، عدا أنه قائم على براهين محكمة قرآنية وواقعية. فالعصمة النبوية تتناول ما يبلغه النبي عن الله وآيتا النجم مصوبتان على هذا المعنى، والمبلغ عن الله بصراحة هو القرآن فقط ثم تتناول امتناع النبي عن اقتراف إثم أو جريمة أو فاحشة أو مخالفة للقرآن قولا وفعلا، ولا تتناول فيما نعتقد الأقوال والأفعال والمواقف الاجتهادية والعادية التي لم تؤيد بقرآن وليس فيها نية الإثم والضرر والشر والمخالفة، والتي قد يكون فيها الخطأ والصواب وخلاف الأولى الذي في علم الله والذي لا ينكشف للنبي إلا بوحي. وفي القرآن مشاهد عديدة تدل على أن النبي ﷺ كان يجتهد في أمر فيصدر عنه قولا أو فعلا فينزل القرآن معاتبا حينا ومنبها أو مذكرا حينا بما هو الأولى كمشاهد أسرى بدر وتحريم النبي ﷺ على نفسه زوجاته واستغفاره لأقاربه من المشركين وإذنه للمعتذرين عن الانضمام لحملة تبوك، وزواجه بمطلقة متبنيه وحادث الأعمى وخطرات نفسه في التساهل مع المشركين مما احتوت

---

[1] اقرأ آيات الحشر ٧ والنساء ٨٠ وآل عمران ٣١.

http://kotob.has.it

الإشارات إليه سورة الأنفال والتحريم والتوبة والأحزاب وعبس والإسراء، مما لا يمكن أن يحتمل القول معه أن ذلك كان إلهاما ربانيا فى معنى الوحى البتة. ونحن من المؤمنين بالعصمة النبوية ولكن لا على ذلك المعنى الذى يجعل النبى يمتنع عليه أن يصدر منه أى اجتهاد فى خلاف الأولى المغيب عنه علمه أو أى خطأ برىء مما لا يمكن أن ينتفى عن الطبيعة البشرية النبوية المقررة فى القرآن، ومما تنعدم به حكمة الثناء العظيم الذى أثناه الله فى القرآن على أخلاقه، وحكمة اختصاصه من دون الناس بالرسالة، ولكن على المعنى الذى يتحقق فى الكمال النبوى خلقا وروحا وعقلا والذى لم يصل النبى إلى درجة الاصطفاء الربانى إلا بعد أن وصل إليه، فصار من سمو الأخلاق وصفاء الروح وعظم القلب ورجاحة العقل إلى ما يرتفع به عن كل ما يشين، ثم على معنى عصمته من أى خطأ فى تبليغ ما أوحى إليه والتزامه له بكل دقة وأمانة وصدق واستغراق.

ومهما يكن من أمر، ومع أن كثيرا من العلماء على رأى أن القرآن نزل بألفاظ عربية، وأن ما بلغه النبى من ألفاظ هو ما ألقى إليه من الوحى فالذى يتبادر لنا أن لتلك الأقوال أثرا فى الروايات الكثيرة عن خلافيات القراءة وخاصة الخلافيات اللفظية والنظمية من بدل كلمة بكلمة ومن تقديم وتأخير مما أوردنا أمثلة عديدة عنه فى مناسبة سابقة، أو أن الذين تداولوا أو دونوا هذه الخلافيات دون تمحيص ونقد قد تأثروا بهذه الأقوال، أو أن الذين اخترعوا ودسوا هذه الخلافيات أو بعضها بقصد التشكيك قد استغلوا وروجوا هذه الأقوال قد أثرت أو تأثرت بأحاديث الأحرف السبعة وتأويلاتها العجيبة التى ذكرنا بعضها سابقا، وخاصة ما ورد فى بعض وجوهها من أنها بقصد تقرير أن القرآن قد نزل بمعان متسق مفهومها مختلف مسموعها، حيث يجوز التغاير إذا لم تبدل كلمة عذاب بكلمة رحمة.

ولعل ما عزى إلى أبى حنيفة من تجويزه الصلاة بقراءة القرآن بالترجمة الفارسية، وتقريره أن المهم فى القرآن هو المعنى متصل بهذه الأقوال. وقد ذكر الزمخشرى أن أبا حنيفة استند إلى ما روى عن ابن مسعود من إجازته لقارئ بقراءة "طعام الفاجر" بدلا من "طعام الأثيم" على شرط أن تؤدى الترجمة المعانى على كمالها، وعلق الزمخشرى على هذا بقوله هذا الشرط بمثابة المنع لأن فى كلام العرب وخصوصا القرآن الذى هو معجز بفصاحة وغرابة نظمه وأساليبه من لطائف المعانى والأغراض ما لا يستقل بأدائه لسانه من فارسية وغيرها، ولم يكن أبو حنيفة يحسن الفارسية فلم يكن ذلك التقرير منه عن تحقيق وتبصر، ثم قال إن صاحبى أبى حنيفة أنكرا جواز الصلاة بالقراءة الفارسية، وأن عليا بن الجعد روى عن أبى يوسف أن أبا حنيفة هو على رأى صاحبيه فى الإنكار وننبه على أننا لسنا هنا فى معرض منع ترجمة القرآن أو عدم جوازه، بل إننا نرى هذا مفيدا جدا

http://kotob.has.it

وواجبا لازما فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية القرآنية العظمى، كما أن عموم الرسالة النبوية، وعموم الخطاب القرآنى لجميع الناس من الدلائل على هذا الوجوب، على أن يقوم بها الأكفاء فى فهم القرآن ولغته ولغة ترجمته، وعلى أن يكون القصد منها النشر والدعوة والتبشير لا الصلاة بها، حيث نعتقد بصواب رأى أبى يوسف والحسن صاحبى أبى حنيفة فى إنكار الصلاة بها وعدم جوازها إلا بالألفاظ القرآنية العربية التى نزل القرآن بها، لأن القرآن قد وصف فيه بأنه قرآن عربى ولا يمكن أن يعتبر قرآنا تصح به صلاة إلا بهذا الوصف.

الخلاف على خلق القرآن وأثره :

ثالثا: ومن ذلك ما دار عليه الخلاف الكلامى المشهور من كون القرآن مخلوقا أو غير مخلوق. ومع أن هذه المسألة فرع من أصل موضوع صفات الله ومعانيها ومداها فإنها اشتهرت أكثر من غيرها لأن الخلاف فيها أدى إلى أحداث تجاوزت الجدل الكلامى بين العلماء إلى الميدان السياسى، وكان من آثارها فتن عمياء أريقت فيها الدماء واضطهدت حرية الرأى والعقيدة، وازدرى فيها العلماء واشترك فيها الغوغاء مع الساسة فى ساحة واحدة حتى صارت رئيسية، وحتى قال بعضهم إن علم الكلام قد سمى بهذا الاسم بسبب الخلاف الشديد المشهور على صفة الكلام الإلهى المتصلة بمسألة خلق القرآن وعدمه.

وكان الخلاف من حيث الأساس بين المعتزلة الذين سموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد وبين أهل السنة الذين التزموا ما كان عليه السلف من قول وما وردت به الأحاديث أو دلت عليه الآيات، أو كانوا فى موقف يرون أنفسهم فيه كذلك. على أن هؤلاء افترقوا فى القول، حيث إن ابن حنبل وأشياعه قالوا غير ما قاله أبو الحسن الأشعرى وجماعته مثلا.

ومن أصول الخلاف بين المذهبين صفات الله، فالمعتزلة قالوا إن صفات الله هى ذات الله فهو عالم بذاته قادر بذاته متكلم بذاته الخ أى بدون علم وقدرة وكلام زائد عن ذاته أو غير ذاته، على اعتبار أن الذهاب إلى كون صفات الله القديمة بقدمه غير ذاته هو تعدد لله القديم الذى يستحيل عليه التعدد، وأهل السنة قالوا إن لصفات الله معنى زائدا عن ذاته فهو عالم بعلم وقادر بقدرة ومتكلم بكلام، واحترزوا بهذا لمنع تعدد الله القديم بتعدد صفاته لأنهم مثل أولئك معتقدون باستحالة التعدد فى حق الله، ثم تكشف الخلاف فى هذا الباب حول صفة كلام الله وماهية القرآن باعتباره كلام الله، فقال الأشاعرة إن الله متكلم بكلام أزلى قديم زائد عن ذاته وغير منفك عنها، وأن القرآن معنى قائم بذات الله، وقيدوا أنهم لا يعنون بذلك الحروف والأصوات المقروءة المسموعة المكتوبة، ومثلوا على ذلك بالفرق بين ما يدور فى خلد الإنسان من كلام دون أن ينطق به، فهو شامل فى آن واحد لجميع الكلام

http://kotob.has.it

الذى يدور فى الخلد، أما الحروف والأصوات المقروءة المسموعة المكتوبة من القرآن فإنها ليست من تلك الصفة القديمة وإنما هى من الحوادث، لأنها تابعة لترتيب يتقدم فيه حرف عن حرف نطقا وكتابة وسمعا وهذا من سمات الأمور الحادثة، وافترق الحنابلة وهم من أهل السنة عن الأشاعرة فى تقريرهم أن حروف القرآن المكتوبة المقروءة وأصواتها المسموعة غير منفكة عن صفة كلام الله الأزلى القديم وأنها مثلها قديمة أزلية أيضا أى ليست حادثة ولا مخلوقة. أما المعتزلة - والشيعة الإمامية مثلهم فى أكثر المذاهب الكلامية- فقد قالوا أن الله متكلم بذاته بدون كلام زائد عنها، وإنه يخلق الحروف والأصوات فى الأعراض فتقرأ وتسمع، وأن القرآن باعتبار أنه متصف بما هو صفات المخلوق وسمات الحدوث من تأليف وتنظيم وإنزال وتنزيل وكتابة وسماع وعروبة وحفظ وناسخ ومنسوخ الخ هو مخلوق ولا يصح أن يكون قديما أزليا، ويقولون إن القرآن اسم لما نقل إلينا عن دفتى المصحف تواترا وهذا يستلزم كونه مكتوبا فى المصاحف مقروءا بالألسن مسموعا بالآذان وكل ذلك من سمات الحدوث بالضرورة، فيجيبهم الأشاعرة بأنه كلام الله مكتوب فى مصاحفنا محفوظ فى قلوبنا مقروء بألسنتنا مسموع بآذاننا غير حال فيها، بل هو معنى قديم قائم بذات الله يلفظ ويسمع بالنظم الدال عليه ويحفظ بالنظم المخيل، ويكتب بنقوش وصور وأشكال موضوعة للحروف ويكتب بالقلم، وأن المراد بأن القرآن غير مخلوق هو حقيقته الموجودة فى الخارج الخ.

وواضح أن الجماعات المختلفة معترفون بكمال صفات الله، وأن اختلافهم هو حول آثار هذه الصفات الكاملة وتخيلها وتفهمها ومداها، وأن شأنهم فى هذا شأنهم فى الخلافيات الكلامية الأخرى منهم المعظم لله ومنهم المنزه، وأنهم متفقون على أن القرآن منزل من الله على نبيه.

ولا يعنينا التبسط فى هذه المسألة الخلافية وتاريخها، ونعتقد أنها ذات صلة بالأحداث السياسية والنحلية والطائفية والعنصرية التى حدثت فى القرون الإسلامية الأولى، وكان لتسرب الأساليب الكلامية والكتب الفلسفية الأجنبية أثر قوى فيها، وأنها لا تتصل بآثار نبوية وراشدية موثقة ثابتة فى ذاتها، فضلا عما هناك من آثار نبوية وراشدية تنهى عن التورط فى بحوث قد تنتهى إلى الخوض فى ماهية الله والقرآن ومحتوياته وأنه يكفى للمسلم أن يظل فيها فى حدود التقريرات القرآنية من أن القرآن كلام الله ومن عند الله، ومن أن الله ليس كمثله شيء، وأن ما عدا ذلك متصل بسر الوجود واجب الوجود وسر الوحى والنبوة مما لا يستطاع إدراكه بالعقل البشرى، وأنه لا طائل من الجدل والخلاف فيه ولا ضرورة له، وإنما الذى يعنينا هنا هو تقرير أن هذه المسألة الخلافية قد تكون أدت بين حين وآخر وبقصد وبغير قصد إلى إغفال صلة الفصول والآيات القرآنية بأحداث السيرة النبوية وظروف البيئة النبوية، واعتبار هذه الأحداث والظروف شأنا عابرا. وأن هذا قد أدى إلى ما قيل من

http://kotob.has.it

أقوال وضمن من تخمينات حول أسرار القرآن وحروفه ورموزه ومغيباته وماهيات ما جاء فيه من مشاهد الكون ونواميس الخلق وقصص التاريخ والأمثال ومطوياتها مما لا يتسق مع حقائق الأمور وأهداف القرآن الواضحة في الهداية والإرشاد والدعوة إلى الخير والحق وأسباب السعادة، ومما فيه تشويش على الأهداف وعلى الناظر في القرآن والراغب في تفهمه وتفهم السيرة النبوية والبيئة النبوية والأسس والمبادئ القرآنية، وما كان من سيرة التشريع القرآني وتطوره.

النهي عن التفسير بالرأي وأثره :

رابعا : ومن ذلك ما ورد في النهي عن تفسير القرآن بالرأي وما قيل من وجوب الوقوف في تفسيره عند حدود الروايات المروية عن النبي والصحابة والتابعين أو علمائهم.

فقد قال بعض العلماء إنه لا يجوز لأحد أن يتعاطى تفسير شيء من القرآن إلا أن ينتهي إلى ما روى عن النبي في ذلك، وقال بعضهم إن التفسير قسمان ورد تفسيره بالنقل وقسم لم يرد، والأول إما أن يكون عن النبي ﷺ أو الصحابة أو رؤوس التابعين، وإما لم يرد فيه نقل فهو قليل، وقال بعضهم إن ما ورد فيه حديث نبوي لا يعدل عنه فيه إلى غيره، وما لم يرد فيه حديث نبوي وورد فيه قول صحابي فلا يعدل فيه إلى غيره، وما لم يرد فيه قول صحابي وورد فيه قول عالم تابعي أو قول تابعي- على اختلاف في التخصيص والإطلاق- فلا يعدل فيه إلى غيره، وأنه إذا كان هناك أقوال عديدة من مصدر من هذه المصادر الثلاثة فيجتهد في التوفيق والجمع بينها. وقد روى عن الشافعي أنه قال إنه لا يحل تفسير المتشابه إلا بسنة أو خبر أو إجماع[١]، ولم يحدد المتشابه في هذا القول مع أن مداه واسع جدا وموضوع خلاف كبير.

ولما كان قد ورد روايات منسوبة إلى المصادر الثلاثة المذكورة كثيرة جدا وصف ما ورد عن ابن عباس منها بوصف لا يحصى، وقيل إن ما روى منها منسوبا إلى النبي ﷺ والصحابة نحو خمسة عشر ألفا، وتكاد تشمل كل آية في القرآن بل وإن كثيرا ما ورد في آية واحدة أكثر من رواية وحديث، وقد روى تفسير كامل عن ابن عباس وحده، ونسب إلى تابعين وتابعي تابعين تفاسير عديدة كاملة أو ناقصة فإن من شأن الأقوال الواردة في إيجاب الوقوف في التفسير عند الروايات والأقوال المنسوبة إلى المصادر الثلاثة المشار إليها أن يؤدي إلى أن هذا الموقف يجب أن يشمل جميع آيات القرآن.

---

[١] الأقوال ملخصة عن الإتقان للسيوطي .

http://kotob.has.it

هذا من جهة. ومن جهة أخرى فقد روى حديثان نبويان أخرج أحدهما أبو داود والترمذى والنسائى جاء فيه "من تكلم فى القرآن برأيه فأصاب فقط أخطأ" وأخرج ثانيهما أبو داود جاء فيه "من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار" وفسر بعضهم تعبيرى "برأيه" و"بغير علم" فى الحديثين بغير سند من حديث أو رواية أو خبر.

وقد التزم إمام المفسرين بعد عصر تابعى التابعين أى الطبرى هذا المبدأ فألف تفسيره الكبير فى نطاقه،ويكاد يكون مقصورا على الروايات المروية عن المصادر الثلاثة المذكورة. وفعل قبله مثله البخارى فى الكتاب الذى عقده فى صحيحه على التفسير وبوبه على ترتيب السور فى المصحف مع التزامه شروطه فى رواية الأحاديث والأقوال المنسوبة إلى هذه المصادر.

ومع أن من العلماء المتقدمين من خرج الحديثين النبويين تخريجا من شأنه التوسيع فقال إنهما فى صدد النهى عن التفسير بالهوى، وعن القول بقول يعلم قائله إن الحق غيره، وعن الكلام فى القرآن بغير علم يساعد صاحبه على الاستنباط وحسن الإدراك من معرفة باللغة والفقه والناسخ والمنسوخ الخ، وأن منهم من أورد بعض الأحاديث التى تسوغ النظر فى القرآن والاجتهاد فى الاستنباط منه مثل الحديث الذى أخرجه أبو نعيم وجاء فيه "القرآن ذو وجوه فاحملوه على أحسن وجوه"، وأن منهم من قال إن المسلمين مأمورون بنص القرآن بالنظر فيه وتدبره وتفهم أحكامه وهذا هو متناول التفسير والتأويل، وأن نصوص القرآن تحتم صرف الأحاديث النبوية فى حالة صحتها إلى مثل ما صرفت إليه، وأنه ما من آية إلا ويحب الله أن يعلم الناس فيما أنزلت وما أريد منها، ومع أن هذا التوجيه متسق مع طبائع الأشياء، بحيث يكون النهى فى الأحاديث إذا صحت قد استهدفت النعى على الذين يحاولون صرف نصوص القرآن ودلالاته إلى تأييد بدعة فى القول أو رأى فيه انحراف عن جادة الحق وتلقينات القرآن الواضحة ومفهوماته المتواترة، وعلى الذين يلقون الكلام فى القرآن على عواهنة ويحملون عبارات غير ما تتحمله ويخوضون فى الماهيات الغيبية التى وردت الإشارات إليها بغير سند، ولم يستهدف خطر التدبر فى آيات القرآن وأهدافه وتفهم معانيه بالعقل والتفكير والدراسة والاستنباط والمقايسة، وخاصة فى سبيل تجلية الأهداف السامية والمثل العليا والأحكام الشرعية التى تنطوى فيه، لأن هذا هو الذى أوجبه القرآن على سامعيه وأنزل على النبى ﷺ من أجله وجرى السلف الصالح عليه، وهو الذى تدل عليه الروايات الكثيرة جدا المعزوة إلى علماء الصحابة والتابعين وتابعيهم والوارد كثير منها فى كتب الأحاديث الصحيحة أيضا إذ أن كثيرا من هذه الروايات إن لم يكن أكثرها تأويلات وتفسيرات اجتهادية شخصية، ويدل عليه كذلك سيرة المفسرين الذين جاءوا بعد هذه الطبقة على هذا النمط متجاوزين أحيانا كثيرة حدود الروايات المعزوة إلى

http://kotob.has.it

المصادر الثلاثة، ومدونين هم الآخرون تأويلات وتفسيرات اجتهادية شخصية، نقول إنه مع ذلك كله فإن الروايات ظلت عماد التفسير الأقوى وركنه الأعظم.

ومما لا ريب فيه أن الفكرة من حيث أصلها وجيهة كل الوجاهة، لأن الصحابة والتابعين وخاصة علماءهم هم أعلم بمفهومات القرآن ودلالاته ومناسبات نزوله ومدى مقاصده على اعتبار أنهم أشد الطبقات اتصالا بظروف نزوله وجو نزوله، ومما لا ريب فيه أن القول أقوى صحة ووجاهة وصوابا وأولوية بالنسبة للأحاديث النبوية، كما أن للنهى والتشديد ما يبررهما لأن خطورة شأن القرآن من جميع الاعتبارات توجب حتما الاحتياط والتروى والتدبر وعدم إلقاء الكلام فيه جزافا، وتجعل الانحراف عن هذه الخطة والخطأ الناشئ عن غير علم وروية إثما كبيرا، لما يترتب عليه من آثار تمس بأمور الإيمان والعقيدة ومصالح الإنسانية عامة والمسلمين خاصة.

ومما لا ريب فيه أيضا أن هناك أحاديث نبوية وصحابية قوية الإسناد وردت فى كتب الصحاح ومتسقة مع روح الأيات القرآنية ومضامينها كما أن هناك أقوالا منسوبة إلى الصحابة والتابعين وخاصة علماؤهم وردت فى كتب الحديث المعتبرة سائغة ومعقولة المتون كذلك فى شرح العبارات القرآنية وتفسيرها وإيضاح مداها، فيجب الأخذ بتلك الأحاديث وهذه الأقوال والوقوف عندها وإدارة الكلام فى نطاقها تبيانا وشرحا وتجلية وتطبيقا.

غير أنه مما لا ريب فيه أن الروايات والأقوال لا يصح أن تؤخذ قضايا مسلمة فى هذا الصدد كما فى غيره إلا بعد التمحيص متنا وسندا وتطبيقا ومقايسة على العبارات والدلالات القرآنية، وأنه قد تسوهل فى هذا الباب تساهلا عظيما، وأن كثيرا مما ورد إن لم نقل أكثره مما يحمل على التوقف فيه من حيث إسناده ومتونه، لغلبة احتمال الخطأ والتحريف والتلفيق والدس والانتحال والغرض السياسى والطائفى والنحلى فيه، وخاصة ما لا يتسق فى مداه ومعناه مع روح الآيات والوقائع التى يلهمها القرآن، وأنه يصدق فيه قول ابن حنبل الذى أشرنا إليه فى مناسبة سابقة "ثلاثة لا أصل لها التفسير والمغازى والملاحم" بل ولعله إنما قيل بسبب هذه العلات.

ومع أن العلماء والمفسرين قالوا بوجوب التمحيص والنقد، وتوقفوا فى روايات وأقوال كثيرة وناقشوها وجرحوها، وفى طليعتهم إمام مفسرى المأثور الطبرى، فإن النهى فى أصله والقول بالأخذ بالروايات أولا، وكثرة الروايات كثرة عجيبة. ثانيا جعل هذه الروايات تستفيض فى مختلف كتب التفسير على علاتها، وتكون عمادا قويا بل العماد الأقوى فيها، ولم يحظ إلا القليل منها بالنقد والتمحيص والجرح، بل وأن هذا المنقود المجروح لم يبعد من كتب التفسير، ومنها ما لم يشر إلى جرحه، وكان هذا من أسباب وعلل ما وقع فى هذه الكتب من تشويش واضطراب وإغراب ومفارقة،

http://kotob.has.it

وما أدى إليه من تشويش على الناظر فى القرآن والراغب فى تفهمه، ومن اتخاذه من قبل المغرضين وسيلة إلى الغمز والطعن وسوء التفسير والاستنباط، سواء أكان ذلك فى أحداث السيرة النبوية المختلفة فى ظروف البيئة النبوية، أم فيما احتواه القرآن من قصص ومشاهد كونية وأخروية وأخبار إيمانية غيبية، أم فى انسجام الفصول والمجموعات القرآنية وتوجيهاتها وتلقيناتها ومداها الخاص والعام والزمنى المستمر.

• • •

http://kotob.has.it

خاتمة

ذلك اليقين بالخطة المثلى لفهم القرآن وخدمته التى شرحناها فى الفصل الثالث، وهذه الثغرات العديدة التى نبهنا عليها فى الفصل الرابع جعلنا نعتقد أن الحاجة ما تزال ماسة إلى تفسير واف بالغرض غير مطول ممل ولا موجز مخل، تجتمع فيه الملاحظات، وتتحاشى فيه الثغرات، ويسار فيه وفق هذا المنهج المتسق مع الخطة التى شرحناها والثغرات التى نبهنا عليها:

(١) تجزئة المجموعات والفصول القرآنية إلى جمل تامة يصح الوقوف عندها من حيث النظم والمعنى والسياق، وقد تكون هذه الجملة آية واحدة أو آيات قليلة أو سلسلة طويلة.

(٢) شرح الكلمات والتعابير الغريبة والجديدة وغير الدارجة كثيرا بإيجاز ودون تعمق لغوى ونحوى وبلاغى إذا لم يكن هناك ضرورة ماسة.

(٣) شرح مدلول الجملة شرحا إجماليا حسب المقتضى والمتبادر بأداء بيانى واضح وبسيط، والاكتفاء من ذلك بعرض الهدف والمدلول إذا كانت العبارة واضحة للمتوسطين نظما ولغة.

(٤) إشارة موجزة إلى ما روى فى مناسبة الآيات أو فى صددها وما قيل فى مدلولها وأحكامها وقصصها إذا كان الموضوع يقتضى ذلك، وإيراد ما يقضى إيراده من الروايات والأقوال، والتعليق على ما يقتضى التعليق عليه منها بإيجاز.

(٥) تجلية ما تحتويه الجملة من أحكام أو مبادئ أو تلقينات أو توجيهات تشريعية وأخلاقية واجتماعية وروحية.

(٦) تجلية ما تحتويه الجملة من صور ومشاهد عن السيرة النبوية والبيئة النبوية، وقد اهتممت لذلك حتى جاء الكلام أحيانا بحثا ودرسا وتقريرا وموضوعيا مع أنه ليس من الأسس، لأنى رأيت أن هذا يساعد على تفهم ظروف الدعوة النبوية وسيرها وصورها وتطورها، وعلى تجلية جو نزول القرآن الذى يتجلى به كثير من المقاصد القرآنية سواء أكان أسسا أم وسائل، فضلا عن أنه يساعد على تصحيح كثير مما جاء مضطربا أو ناقصا أو محرفا فى الروايات من سور البيئة ومشاهد السيرة النبوية وأحداثها.

(٧) التنبيه على الجمل الوسائلية والتدعيمية، وعلى ما يكون فيها من مقاصد أسلوبية كالتعقيب والتعليل والتطمين والتثبيت والتبصير والترغيب والترهيب والتقريب والتمثيل والتشبيه والتنديد والتنويه والتذكير إلخ، مع إبقاء ذلك ضمن المقصد الذى جاءت من أجله، وعدم الاستغراق والتطويل فيه، والتنبيه بإيجاز على ما ورد فى صدده مما يخرج به عن هذا النطاق إذا اقتضى الأمر.

http://kotob.has.it

(٨) وصل الجمل القرآنية بعضها ببعض سياقا أو موضوعا كلما كان ذلك مفهوم الدلالة والتنبيه على هذا لتجلية النظم القرآني والترابط الموضوعي أو السياقي أو الهدفي أو الوسيلي. وقد اهتممت لهذه النقطة اهتماما خاصا لأنها مما يساعد كثيرا على فهم دلالات القرآن وظروف نزوله ومدى متناوله.

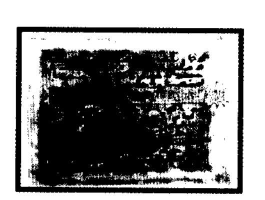
(٩) الاستعانة بالألفاظ والتراكيب والجمل القرآنية قبل كل شيء في صدد التفسير والشرح والسياق والدلالات والهدف والتدعيم والصور والمشاهد ما دام ذلك ممكنا وضروريا. ثم بعد هذا بالروايات إذا ما كانت متسقة مع المفهوم والسياق، ثم بأقوال المفسرين إذا كانت كذلك وما دام ذلك ممكنا وضروريا أيضا.

(١٠) العطف على ما جاء في السور السابقة حين تفسر الجمل القرآنية ومقاصدها إذا ما كان ذلك ممكنا وضروريا وكافيا لتفادى التكرار والتطويل.

وإنا لنرجو الله أن يوفقنا إلى إخراج تفسيرنا الحديث الذى نهجنا فيه هذا المنهج فنتم به السلسلة القرآنية التى بدأناها بكتاب عصر النبى ﷺ وبيئته قبل البعثة مقتبسا من القرآن، ثم بكتاب سيرة الرسول ﷺ مقتبسا كذلك منه ثم بكتاب نظم القرآن ودستوره فى شئون الحياة، ولا سيما أننا نشعر برغبة ملحة عند كثير من شباب المسلمين فى فهم القرآن ومدلولاته وظروفه بتفسير حديث يتسق مع روح العصر، وبأسلوب قريب التناول، غير ضارب بالتفريع والاستطرادات والتزيد فى العلوم الآلية، ثم لا سيما أن الرغبة أخذت تزداد عند المسلمين عامة فى تخطى القرون الطويلة التى ساد فيها الجهل والغفلة، ووقف المسلمون فيها جامدين فى نطاق التقليد والترديد والتعقيد، وفى تفهم أهداف الدعوة الإسلامية وظروفها وتوصياتها فى "القرآن المجيد" معجزتها الخالدة.

• • •

http://kotob.has.it



تدوين القرآن المجيد



نطالع فى هذا الكتاب رحلة تدوين القرآن المجيد بدءاً من نزوله وترتيبه وجمعه وتدوينه .. فهو بحث علمى موثق لامجال فيه للتعصب أو التحيز،
لم يترك المؤلف وجهة نظر مؤيدة أو معارضة لم يبحثها، وينتهى فيها إلى حقائق التاريخ موثقة ومؤصلة وهو منهج بحث سلك فيه المؤلف الحيدة والنزاهة فلم يترك امراً لم يتعرض له سواء من المؤيدين أم من المعارضين ولم يدع المؤلف تناول ماجاء بكتب التراث بين معارض ومشكك ومؤيد مع طرحه لجميع الحجج والإشكالات ويعتبر الكتاب مرجعاً هاماً لكافة الدارسين فى العلوم الإسلامية والمهتمين بتاريخ القرآن الكريم.

الناشر

http://kotob.has.it